دراسات أندلسية

الأستاذ الدكتور

عبد الواحد ذنون طه

المدار الإسلامي

دراسات أندلسية

دراسات أندلسية

تأليف
أ. د. عبد الواحد ذنون طه

دار المدار الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

الطبعة الأولى

حزيران/يونيو/الصيف 2004 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 5924/ 2004

ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-208-8

دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،

خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb

ص.ب. 14/6703 ـ بيروت ـ لبنان

الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498،

هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218،

طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

الإهـــــداء

إلى

عباس فاضل ياسين

ابن عمي، أخي وصديقي الغالي

تصدير

هذه مجموعة من الدراسات والبحوث في تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس كان معظمها قد نشر في المجلات العلمية داخل العراق وخارجه، ارتأيت جمعها في كتاب واحد ليسهل الرجوع إليها. وقد دفعني إلى هذا أنها متكاملة في موضوعاتها، فهي تضم دراسات في التاريخ السياسي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي للأندلس. إضافة إلى نواح أخرى مختلفة من الحضارة، لا سيما في مجال العلوم والرحلات العلمية بين المشرق والأندلس.

ويضم الكتاب أيضاً بعض الدراسات التي قمت بترجمتها عن اللغة الإنكليزية والتي لها علاقة وثيقة بالحضارة العربية الإسلامية التي سادت في الأندلس، ومدى تأثيرها على كل من إسبانيا والبرتغال بعد انتهاء الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الآيبيرية. وقد أضفت إليها بحثاً خاصاً عن الموريسكيين الذين هم البقية الباقية من المسلمين الذين عاشوا في ظل الحكام الإسبان بعد سقوط القواعد الأندلسية الكبرى ولا سيما غرناطة عام 897هـ/ 1492م.

ولأجل تيسير رجوع القارىء الكريم إلى مصادر ومراجع الكتاب، فقد جُمعت هوامش كل بحث وأُلحقت في نهايته، كما حذفت قائمة

المصادر والمراجع الخاصة بكل بحث وأُلحقت بجريدة موحدة في نهاية الكتاب، وإني آمل أن أتابع هذه الدراسات بمجموعة ثانية في القريب كي يفيد منها الطلاب والمختصون بالدراسات الأندلسية. أرجو من الله التوفيق والسداد والعون لخدمة حضارتنا الزاهرة وتراثنا الخالد.

عبد الواحد ذنون طه

دراسة في
الجهد العسكري العربي لفتح إسبانيا

تمهيد

لم يأت الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا دون مقدمات، بل كان وليد الأحداث التي مرت بالدولة العربية الإسلامية في المشرق والمغرب. وهو نتيجة طبيعية لحركة الفتوح التي ابتدأت منذ عهد الراشدين بتحرير العراق وبلاد الشام ومصر. ثم استمرت هذه الحركة في عهد الدولة الأموية، فتوِّجت بافتتاح أجزاء واسعة من المشرق وصلت حتى حدود الصين، ومعظم أجزاء الشمال الأفريقي، من برقة إلى طنجة على المحيط الأطلسي. وقد ترابطت أحداث الفتح العربي في شمال أفريقيا بإسبانيا، أو بالأندلس، كما كان يسميها العرب آنذاك. بل يمكن القول إن فتح إسبانيا ما هو إلا نتيجة طبيعية من نتائج استكمال فتح وتحرير شمال أفريقيا. وهو أيضاً ثمرة السياسة الحكيمة التي اتَّبعها العرب في بادىء الأمر مع سكان شمال أفريقيا الأصليين، وذلك بالتقرب إليهم، ونشر الإسلام بينهم وإشاعة المساواة معهم، ومن ثم التعاون سوية في سبيل استكمال فتح بقية مناطق المغرب. وبعد أن تمت هذه الخطوة، أصبح الجو مهيئاً بينهما لعمل مشترك في خدمة الدولة العربية الإسلامية، وذلك بالعبور إلى قارة أوروبا، وافتتاح إسبانيا، وتخليصها من حكم القوط الغربيين. وقد قاد هذا العمل كل من موسى بن نصير، وطارق بن زياد، وهما البطلان اللذان

أنجزا التحرير النهائي للمغرب العربي.

وتتضمن هذه الدراسة نقاطاً أربعاً، وهي:

1 - عرض لسير العمليات العسكرية في عموم إسبانيا.

2 - دراسة أهم المعارك الحاسمة التي كان لها دور في إنجاز الفتح.

3 - تركيب الجيش والأسلحة المستعملة في المعارك.

4 - دراسة مختصرة عن أبرز قادة الفتح.

وهناك أيضاً خارطة توضيحية لبيان سير القوات العربية، ومواقع المعارك الحاسمة.

عرض لسير العمليات العسكرية في عموم إسبانيا

بعد إنجاز فتح المغرب عيَّن موسى بن نصير، والي شمال أفريقيا، طارق بن زياد عاملاً على مدينة طنجة، ليكون مسؤولاً عن الحامية العربية الإسلامية الجديدة فيها. أما مدينة سبتة، فقد ظلت تحت سيادة حاكم يدعى جوليان. وهو على الأغلب الحاكم العام البيزنطي لولاية موريتانيا الطنجية، الذي اضطر بسبب ضغط الأحداث، وبعد المسافة عن القسطنطينية، إلى الاعتماد على مساعدة القوط الغربيين في إسبانيا، والتعاون معهم. ولكن بمجيء لذْرِيق Roderic الملك القوطي الأخير إلى الحكم في إسبانيا، توقفت مساعدات القوط لجوليان، بسبب مشاكل لذريق الداخلية. وبدأ جوليان يميل إلى التعاون مع المسلمين، لا سيما بعد أن شعر بقدرتهم، وقوتهم المتنامية، فعقد معهم صلحاً، أقرّ بموجبه على البقاء في سبتة، على أن يخضع للنفوذ العربي[1].

وقد أشرنا إلى شخصية هذا الحاكم البيزنطي، لما له من أثر في

---

(1) أخبار مجموعة، مجهول المؤلف، نشرها وترجمها إلى الإسبانية، لافوينتي، القنطرة مدريد، 1867، ص44؛ المقَّري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968 (برواية ابن حيان): 1/ 4230 ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956 ـ 1961: 6/ 437 ـ 438.

سير الأحداث في أثناء الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا. فقد جرت بينه وبين طارق بن زياد اتصالات عديدة بشأن الموقف في إسبانيا، أحيط بها علماً، على الأغلب، القائد العام موسى بن نصير في القيروان، على الرغم من أن بعض مصادرنا ترجح عدم معرفة موسى بخطط طارق، أول الأمر، وأن الأخير عَبَر دون علمه أو موافقته(2). ومن جهة أخرى، تؤكد بقية المصادر اطِّلاع موسى على الأمر، ومراسلاته بشأنه مع السلطة المركزية في دمشق التي أعطت الضوء الأخضر للعملية، شريطة اختبار المنطقة بالسرايا(3).

وعلى أي حال، فإن المتفق عليه أن طارقاً هو الذي ابتدأ المراحل الأولى للفتح، وذلك بسبب موقعه الاستراتيجي على المضيق الذي يفصل بين قارة أفريقيا وأوروبا. وقد تم ذلك في رمضان في سنة 91هـ/آب ـ أيلول 710م، وذلك بإرسال حملة استطلاعية بقيادة أبي زرعة طريف بن مالك المعافري، الذي عبر المضيق مع أربعمائة راجل ومائة فارس على متن أربعة مراكب هيئت من قبل جوليان، ونزلت على الشاطىء الإسباني

---

(2) انظر ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نشر: تشارلس توري، نيوهيفن، 1922 ص205 ـ 207؛ البلاذري، فتوح البلدان، ـ نظر: دي غوية، ليدن، 1866 (برواية الواقدي)، ص230 ـ 231؛ الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968، ص74؛ ذكر بلاد الأندلس، مجهول المؤلف، مخطوط الخزانة العامة في الرباط، رقم (84ج)، ص84 ـ 85؛ الحميدي، جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة، 1966، ص248.

(3) انظر ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، نشره وترجمه إلى الإسبانية: خوليان رايبيرا، مدريد، 1926، ص8؛ أخبار مجموعة، ص5 ـ 6؛ فتح الأندلس، مجهول المؤلف، نشره وترجمه إلى الإسبانية: دون خواكين دي كونثالث، الجزائر، 1889 ص2، 4 ـ 5؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تاريخ الأندلس، تحقيق: أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد 13، مدريد 1965 ـ 1966، ص 45 ـ 46؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1965 ـ 1966: 4/ 561؛ ابن عذاري، البيان المغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948: 2/ 5 ـ 6.

في منتصف المضيق، في مكان أطلق عليه اسم قائد الحملة طريف Tarifa. وقد تكللت جهود هذه الحملة بالنجاح، مما شجع طارقاً على المضي في خطة الفتح.

وفي السنة التالية، رجب 92هـ/ نيسان 711م، قاد طارق بن زياد بنفسه حملة إلى الأندلس، تألفت من مجموعات من العرب والبربر يقدر عددهم باثني عشر ألف رجل[4] وقد نزلت الحملة على صخرة تُسمى جبل كالبي Mons Calpe، التي اتخذت اسم طارق منذ ذلك اليوم، فأصبحت تُسمى بجبل طارق Gibraltar وكان هدف طارق الأول، السيطرة على الجانب الإسباني من المضيق، من أجل حماية مواصلاته مع شمال أفريقيا.

وقد تحقق ذلك بالفعل، حينما قامت كتيبة عربية بقيادة عبد الملك ابن عامر المعافري، بالاستيلاء على المناطق المجاورة للجبل، والمضيق، والجزيرة الخضراء Algeciras، فأصبحت خطوط مواصلات الحملة مؤمَّنة مع الجانب الأفريقي[5].

وبعد شهرين ونصف تقريباً من نزول طارق، وقعت المعركة الفاصلة بينه وبين لذريق، آخر ملوك القوط الغربيين. وكان هذا الأخير قد زحف إلى الجنوب، بعد سماعه بنزول المسلمين، مصطحباً معه جيشاً يتراوح عدده بين أربعين إلى مائة ألف رجل[6]. وتقابل الجيشان في كورة

---

(4) الرقيق، ص 74؛ فتح الأندلس (برواية ابن حبيب) ص9، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص47؛ ابن عذاري: 2/ 9.

(5) انظر ابن القوطية، ص8 ـ 9؛ فتح الأندلس، ص 5؛ ابن عذاري: 2/ 9، 256؛ وقارن.
E. Saavedra, Estadio sobre la invasion de los arabes en España, Madrid, 1892, p.65.

(6) ابن حبيب، استفتاح الأندلس، نشر: محمود علي مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد 5، 1957، ص 222؛ أخبار مجموعة، ص7؛ ابن الكردبوس، ص47؛ المقري، نفح الطيب: 1/ 258.

شذونة، جنوب غرب إسبانيا، فدارت بينهما معركة حاسمة استمرت ثمانية أيام، كان نتيجتها أن انهزم القوط، وتكبدوا خسائر فادحة. لكن مصير لذريق لم يكن معروفاً، فتذكر بعض المصادر أنه قُتِل، بينما تكتفي المصادر الأخرى بالقول إنه اختفى، ولا يُعرف ما حل به، فربما غرق في نهر أو مستنقع(7).

وبعد القضاء على قوة القوط الرئيسة، كان هدف طارق المباشر أن يلاحق فلولهم المنهزمة، وأن ينهي مقاومتهم، فسار إلى مدينة إستجة Eciga التي تجمَّع فيها قسم من الجيش القوطي. وفي طريقه إلى هذه المدينة، افتتح طارق مورور Moron de la Frontera، ثم عسكر قرب إستجة وحاصرها، ثم تمكن من افتتاحها، وغنم رجاله في هذه المعركة عدداً كبيراً من الخيول التي كانوا بحاجة إليها. أما بقية فلول القوط، فقد انهزمت إلى الجبال، وبقية المدن الحصينة الأخرى(8).

وقد عمل طارق بنصيحة جوليان، الذي رافق الحملة مع بعض رجاله الذين عملوا أدلاء للمسلمين، فزحف إلى طليطلة Toledo، لمنع القوط من محاولة توحيد صفوفهم. وتذكر المصادر أن جوليان نصحه أيضاً، بإرسال عدة حملات إلى مناطق أخرى من إسبانيا، مثل مالقة Malaga، والبيرة Elvira، ومرسية Murcia، وقرطبة Cordoba ولكن من غير المعقول أن يكون طارق قد عمل بهذه النصيحة، وقسم قواته القليلة

(7) The Chronicle of 754, P.147 (no. 34) وقد نشرت هذه الحولية باللغة اللاتينية ملحقاً لكتاب أخبار مجموعة، (مدريد، 1867).
وانظر ابن عبد الحكم، ص 207، ابن القوطية، ص7؛ الرقيق، ص 75؛ فتح الأندلس ص7؛ أخبار مجموعة، ص9 ـ 10، ذكر بلاد الأندلس، ص85؛ ابن الكردبوس ص48؛ ابن عذاري: 2/ 7 ـ 9؛ المقَّري: 1/ 249، 258 ـ 259.

(8) أخبار مجموعة، ص9 ـ 10؛ الكامل في التاريخ: 4/ 563؛ ابن عذاري (برواية الرازي): 2/ 8 ـ 9؛ المقَّري (برواية الرازي): 1/ 260 ـ 261.

العدد، في الوقت الذي كان ينوي فيه أن يتوغل بعمق في أرض الأعداء. ولكنه أرسل فقط كتيبة مؤلفة من سبعمائة فارس إلى قرطبة، بقيادة مغيث الرومي[9]، أما بقية المناطق المذكورة، فقد افتتحت بعد وصول حملة موسى بن نصير[10].

اتَّبع طارق الطريق الروماني القديم إلى طليطلة، والذي يمر بمدينة جيَّان Jaen، فعبر نهر الوادي الكبير Guadalquivir، وتقدم إلى الشمال. وعندما وصل إلى طليطلة، وجدها خالية، إلا من بعض اليهود، وأن قائد حاميتها قد انسحب إلى مدينة أخرى خلف الجبال. فسار طارق لملاحقته، واتخذ طريق وادي الحجارة Guadalajara، حتى وصل إلى مدينة تسميها المصادر العربية، بمدينة المائدة[11]. وهذه المدينة هي، على الأغلب، مدينة قلعة هنارس Alcala de Hanares، كما يقترح المستشرق الأسباني سافيدرا[12]، التي تقع شمال شرقي مدريد الحالية، وبعد افتتاح هذه المدينة، غنم طارق تحفاً ثمينة جداً، كان الهاربون قد نقلوها من طليطلة. ثم رجع طارق إلى طليطلة وذلك في سنة 93هـ/ 711م وقضى فيها فصل الشتاء[13].

---

(9) La Cronica del Moro Rasis (Memoria sobre la autenticidad la Cronica denominada del Moro Rasis) Memorias de la Real Academia de la Historia, VIII, Madrid, 1852, PP. 69 - 70.

وانظر أيضاً: أخبار مجموعة، ص13 ـ 14؛ فتح الأندلس، ص8؛ ابن عذاري: 2/ 9 ـ 10؛ المقَّري (برواية الرازي): 1/ 261 ـ 263؛ وقارن.

Saavedra, OP. Cit., p.85.

(10) راجع: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة 1973: 1/ 101؛ وقارن: المقَّري: 1/ 275.

(11) انظر: ابن القوطية، ص9؛ أخبار مجموعة، ص14؛ فتح الأندلس، ص9؛ ابن عذاري: 2/ 12؛ المقَّري (برواية ابن حيان): 1/ 264 ـ 265.

(12) Estudio sobre la invasion de los arabes en España, p.79.

(13) أخبار مجموعة، ص15؛ الكامل في التاريخ: 4/ 564؛ ابن عذاري: 2/ 12؛ المقَّري (برواية ابن حيان): 1/ 256.

وبعد هذا النجاح الباهر الذي حققه طارق بن زياد في إسبانيا، قرر موسى بن نصير أن يلحق به بجيش آخر، حتى يستكمل ما بدأ به طارق. وتشير بعض الروايات إلى أن طارقاً كان قد كتب إلي موسى بن نصير بعد انتصاره على لذريق، يعلمه بالنصر، وربما سأله أيضاً القدوم بإمدادات جديدة[14]. وعلى أي حال، وصل موسى إلى الأندلس في رمضان سنة 93هـ/ حزيران ـ تموز 712م. وقد عسكرت حملته لعدة أيام في الجزيرة الخضراء، ثم واصلت السير غرباً، لاستكمال افتتاح الأجزاء التي لم يصل إليها طارق. وكانت أولى المدن الإسبانية التي حاصرتها الحملة، ثم افتتحتها عنوة، هي مدينة قرمونة Carmona. ثم تلتها قلعة رعواق Alcala de Guadaira، ثم مدينة إشبيلية Sevilla التي قاومت الهجوم لعدة أشهر، لكنها أخيراً افتتحت عنوة، وفرَّت حاميتها إلى باجة Beja، في جنوب البرتغال الحالية. وقد لاحق موسى فلول المنهزمين غرباً إلى نِبلة Niebla، وأكشونبة Ocsonoba (Faro)، وباجة، واستطاع أن ينتصر عليهم ويفتتح مدنهم جميعاً[15].

وبعد ذلك قرر موسى التوجه إلى مدينة ماردة Merida القوية، التي كانت تتمتع بأسوار عالية حصينة. وفي الطريق افتتح لقنت Fuente Cantos، ثم ضرب الحصار على ماردة لعدة أشهر. وقد دارت معارك بين جيش موسى بن نصير وحامية المدينة. ولكن سكان المدينة اضطروا أخيراً

(14) انظر: الإمامة والسياسة، منسوب لابن قتيبة، نشر الجزء الخاص بالأندلس مع كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية، مدريد، 1926، ص124؛ وقارن: حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، 1959، ص89.

(15) انظر: رواية محمد بن مزين، نقلها محمد بن عبد الوهاب الغساني، في كتابه: رحلة الوزير في افتكاك الأسير، مخطوط المكتبة الوطنية في مدريد رقم (5304)، ص99 ـ 100؛ الرسالة الشريفية، مجهولة المؤلف، نشرت مع كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية، مدريد، 1926، ص198 ـ 199، كذلك، ص192؛ فتح الأندلس ص13.

إلى طلب الصلح، واستسلمت المدينة في شوال سنة 94هـ/ تموز 713م وقد رافق هذا الاستسلام عقد معاهدة بين الطرفين(16). وسوف نذكر بنود هذه المعاهدة حينما نتحدث بالتفصيل عن معركة حصار ماردة، باعتبارها إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ الفتح العربي للأندلس.

وقبل الاسترسال في عمليات موسى العسكرية، يحسن بنا التطرق إلى دور أبنائه في الفتح، لا سيما عبد العزيز بن موسى. فبعد سقوط إشبيلية، أرسل موسى ابنيه، عبد العزيز وعبد الأعلى إلى جنوب، وجنوب شرق شبه الجزيرة. فاستطاع عبد الأعلى أن يفتتح كلاً من مالقة والبيرة، وربما كان ذلك بمساعدة أخيه عبد العزيز ثم توجه عبد العزيز إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد، حيث التقى قرب أوريولة Orihuela بالدوق تدمير Theodemir، حاكم المقاطعة. وقد قاوم هذا الأخير الفتح العربي، لكنه توصل أخيراً إلى عقد معاهدة مع عبد العزيز بن موسى في رجب سنة 94هـ/ 713م، حصل بموجبها على شروط مناسبة جداً للصلح. فقد استمر حاكماً على سبع مدن في المنطقة، مع احتفاظه بالإدارة الداخلية لهذه المدن، والحرية في ممارسة الشعائر الدينية لأتباعه، مقابل دفع مبالغ نقدية وعينية معيَّنة للمسلمين، وخضوعه لنفوذهم السياسي(17).

وبعد إقرار الأمور في هذه المنطقة، عاد عبد العزيز بن موسى إلى إشبيلية التي تمردت فيها بعض العناصر القوطية القادمة من مدينتَي نِبلة

---

(16) cronica del Moro Rasis, p. 78؛ أخبار مجموعة، ص 16 ـ 18؛ الكامل في التاريخ: 4/ 564 ـ 565؛ ابن عذاري: 1/ 14 ـ 15؛ المقَّري (برواية ابن حيان: 270 ـ 271).

(17) La Cronica del Moro Rasis, p.78. الضبي، بغية الملتمس، نشر فرانسسكو كوديرا، مدريد، 1884، ص259، العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، ص4 ـ 5، الحميري، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشره وترجمه إلى الفرنسية، ليفي بروفنسال القاهرة ـ ليدن، 1937، ص62 ـ 63، 151 ـ 152.

وباجة. فقضى على التمرد، وأعاد افتتاح المدينة، ثم سار إلى نبلة وباجة لتقوية الحاميات العربية فيهما. وقد أسندت قيادة حامية باجة إلى قائد عربي مشهور هو عبد الجبار بن أبي سلمة الزهري، الذي كان يتولى قيادة ميسرة جيش موسى بن نصير[18]. وبعد ذلك عاد عبد العزيز إلى إشبيلية، ومن ثم إلى ماردة، حيث تولى القيادة العامة لكل الأراضي المفتوحة في هذه المنطقة، وذلك بعد مغادرة والده إلى الشمال للالتقاء بطارق، واستكمال فتح المناطق الشمالية. ومن الجدير بالذكر أن عبد العزيز ربما ابتدأ من هنا حملته لفتح وسط البرتغال، ففتح عدة مدن، وعقد معاهدات صلح مع يابرة Evora، وأشبونة Lisbon، وقلمرية Caimbra، وشنترين Santaren[19].

وبعد سقوط ماردة بشهر واحد توجه موسى إلى ملاقاة طارق بن زياد في طليطلة. وقد خرج طارق لاستقباله عند مدينة طلبيرة Talavera، غربي طليطلة. ثم مضى موسى وطارق إلى طليطلة، حيث قضيا فصل الشتاء هناك، وأرسلا مبعوثين إلى دمشق، وهما مغيث الرومي وعلي بن رباح اللخمي، لإعلام الخليفة الوليد الأول بنتيجة العمليات العسكرية في إسبانيا[20]. وفي بداية ربيع عام 714م/ 94هـ تحركت القوات المشتركة لموسى بن نصير وطارق بن زياد نحو الشمال الشرقي، لإنجاز فتح كل

(18) المقَّري: 3/ 64.

(19) cf. Saavedra, Op. Cit., p. 127; J.D. Garcia Domingues, "Invasao e conquista de Lusitania por Muca Ben Nocair e seu filho Abdalaziz" Congreso de Estudios Arabes e Islamicos, Actas, held, Cordoba, 1964 PP. 224 - 225; F.J. Velozo, "The Problem of Arabic - Islamic Influence in Portugues Civilization", Journal of the Pakistan Historical Society, XIV, 1966, p.50.

وانظر أيضاً: رواية ابن مزين عند الغساني، ص100؛ الرسالة الشريفية، ص200.

(20) ابن عبد الحكم، ص210؛ الإمامة والسياسة، ص126.

شبه الجزيرة الآيبيرية. فافتتحت مدينة سرقسطة Zaragoza، والمناطق المجاورة لها، ووقع العديد من المدن الإسبانية الأخرى في أيدي العرب، مثل طركونة Tarragona، وبرشلونة Barcelona، ولاردة Lerida، ووشقة Huesca. وقد ذكر بعض المؤرخين العرب، أن موسى بن نصير عبر جبال البرت Pyrenese، وتوغل في داخل فرنسا، وأنه أراد أن يكمل زحفه عبر أوروبا حتى يصل إلى القسطنطينية عن طريق الغرب(21). ولكن لم يرد ذكر لمثل هذه الفتوح في الحوليات المسيحية المعاصرة، الأمر الذي لا يشجع على الأخذ بمثل هذه الروايات المبالغة في تصوير فتوحات موسى ابن نصير.

وبعد إنجاز فتح المناطق الواقعة في الشمال الشرقي، قرر موسى أن يفتتح مناطق قشتالة القديمة Castilla la Vieja. ومن المحتمل أنه قسم جيشه إلى قسمين، أسندت قيادة الأول إلى طارق بن زياد، أما الثاني، فظل تحت إمرة موسى نفسه(22). وقد مضى طارق بمحاذاة الجهة الشمالية لوادي نهر الإبرة Ebro، فهاجم منطقة الباسك Basque، ثم سار إلى أماية Amaya وأسترقة Astorga، وليون Leon(23). أما موسى، فسار ببقية الجيش إلى الجنوب من وادي الإبرة، فافتتح حصن باروس Villabaruz، ثم تقدم إلى لك Lugo. ومن هنا أرسل عدة حملات صغيرة إلى المناطق المجاورة حتى صخرة بلاي Pena de Pelayo، وخيخون Gijon على المحيط الأطلسي(24). وفي أثناء هذه الحملات، كان كل من موسى وطارق

(21) ابن حبيب، ص227؛ الحميري، ص27؛ ابن خلدون 4/ 255، الإمامة والسياسة ص137 - 138؛ وانظر: المقَّري (برواية ابن حيان) 1/ 273 - 274، 277.

(22) انظر: Saavedra, Op. Cit., PP. 114 - 115; فجر الأندلس، ص104.

(23) ابن القوطية، ص9؛ أخبار مجموعة، ص15؛ الكامل في التاريخ: 4/ 564؛ المقَّري: 1/ 265.

(24) الكامل في التاريخ: 4/ 566؛ المقَّري: 1/ 276؛ وقارن. فجر الأندلس، ص105. Saavedra, Op. Cit., 117;.

يقومان بوضع حاميات عربية إسلامية في المناطق المحررة.

ويحتمل أن تكون فتوح موسى بن نصير قد غطت مناطق أخرى إضافة إلى ما ذكرناه أعلاه، فهناك على سبيل المثال ست مدن تحمل اسم موسى بن نصير في القسم الشمالي من البرتغال. ولهذا فإن فتوح موسى لا بد أن تكون قد امتدت إلى هذا المكان، وأنه ربما التقى بابنه عبد العزيز في شمال البرتغال(25). ولكن لا تتوفر لدينا أدلة مكتوبة تدعم مثل هذا الاستنتاج. وعلى أي حال، فقد تمكن موسى وطارق من تحرير معظم جليقية Galicia والأشتوريش Asturias، وتعقّبا الفلول الأخيرة لجيش القوط الغربيين واضطرّاها للفرار حتى جبال كانتبريا Cantabrian mountains. وبعد هزيمة هذه البقايا، اعتقد القائدان أنهما قد أنهيا المقاومة القوطية، وأنه لا حاجة لهما لتتبع الأعداد الضئيلة الباقية من المنهزمين، لا سيما، وأن الخليفة الوليد أرسل في استدعائهما إلى دمشق، فرجعا بعد أن عهد موسى إلى ابنه عبد العزيز بإدارة البلاد المفتوحة.

(25) J. D. Garcia Domingues, Op. Cit., PP. 228 - 229.

أهم المعارك الحاسمة
التي كان لها دور في إنجاز الفتح

1 ـ عملية النزول على الشاطىء الإسباني ومعركة جبل طارق:

تعد عملية نزول طارق بن زياد بقواته إلى الشاطىء الإسباني من أهم عمليات الإنزال العسكرية في التاريخ، لهذا تحدثنا عنها مفصلاً في هذا المكان باعتبارها عملية عسكرية ممهدة ومساعدة لكسب النصر في الموقعة اللاحقة. فعلى الرغم من أن مقر طارق كان في مدينة طنجة، لكنه تعمد أن يبحر من سبتة، وذلك بالتعاون مع جوليان، ليكسب عملية الإبحار صفة سرية، وحتى لا يتسرب الشك إلى القوط في الجانب الآخر بوجود أي عملية عسكرية. ويبدو أن هذا الأمر هو الذي دعاه لاستخدام سفن تجارية تعود إلى جوليان في هذه العملية، على الرغم من أنه كان يمتلك سفنه الحربية الخاصة به في طنجة، وبقية السواحل الخاضعة للعرب في شمال أفريقيا[26].

(26) انظر: ابن حبيب، ص221؛ ابن القوطية، ص8؛ أخبار مجموعة، ص7؛ الامامة والسياسة، ص120؛ وقارن: أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية، ص1968، ص16 ـ 19.

لقد أقلع طارق من سبتة بسبب رغبته الشديدة في إيجاد مكان ملائم للنزول على الشاطىء الإسباني، ربما منطقة الجزيرة الخضراء التي تقابل سبتة. ولكن طارقاً تخلى عن النزول في هذا المكان عندما وجد جماعة من القوط حاولت منع نزوله. فغادر المكان مبحراً حتى أقبل الليل، وحاول في حركة التفاف بارعة أن ينزل في مكان آخر من الشاطىء الإسباني، يتصف بالوعورة، وهو جبل صخري أطلق عليه منذ ذلك الوقت اسم جبل طارق وقد حاول تسهيل عملية النزول باستخدام المجاذيف، وبراذع الخيول التي ألقيت على الصخور لتلافي خطرها. وبهذه الخطة المحكمة، تمكن طارق من النزول المباغت من غير أن تشعر به القوة التي كانت تحرس المضيق. ثم انقض طارق بمن معه من الجنود على تلك القوة، وأوقع بها، وغنم ما كان لديها من عتاد وسلاح[27].

وعلى الرغم من أن هذه المعركة كانت محدودة، ولم يتطرق إليها معظم المؤرخين لتاريخ الفتح العربي للأندلس، لكنها عظيمة الأهمية في تقدير النبوغ العسكري الذي تميز به طارق، في التعبئة، والإبحار، والنزول على الشاطىء الإسباني، ورسم الخطط الجريئة لمفاجأة العدو المتمركز على الشاطىء. وبالتالي قررت هذه المعركة بدء نجاح عملية الفتح، والسيطرة على موضع قدم للجيش العابر، مكنته من إقامة الاتصال مع خطوطه الخلفية في شمال أفريقيا. وقد قذفت هذه المعركة الرعب في قلوب القوات المعادية التي فرت مذعورة لتنقل نذير الهزيمة إلى لذريق على لسان أحد أفرادها الذي قال: بأنهم قد هوجموا من قبل قوات لا طاقة لهم بها، وهو لا يعلم هل أن هؤلاء قد هبطوا عليهم من السماء، أم أنهم قد طلعوا عليهم من باطن الأرض[28].

(27) ابن الكردبوس، ص46؛ وقارن: ابن عذاري: 2/ 9.

(28) ابن حبيب، ص222؛ المقَّري: 1/ 240؛ الامامة والسياسة، ص121 ـ 122؛ الهذيل،

وقد أقام طارق بعد هذه المعركة قاعدة عسكرية بجانب الجبل لحماية جنده حالة الانسحاب، وهي مدينة الجزيرة الخضراء، التي اختار موقعها، حينما حاول النزول لأول مرة، وذلك لسهولة اتصالها مع سبتة على الساحل الإفريقي، بينما يصعب اتصالها مع بقية أنحاء إسبانيا، وذلك لوجود سلسلة جبلية إلى الشمال منها. كما أقام قاعدة أخرى أمامية في منتصف المضيق على الشاطيء الإسباني، وهي قاعدة طريف، بقيادة طريف بن مالك. ثم بدأ يخطط لاختيار المكان الملائم لملاقاة قوة القوط الرئيسة القادمة من الشمال بقيادة الملك لذريق.

2 ـ معركة كورة شذونة: Sidonia

اتجه طارق إلى كورة شذونة في الجنوب الغربي من إسبانيا. وكان اختيار هذا الاتجاه موفقاً، حيث أنه احتمى بالجبال المطلة على الجزيرة الخضراء، كذلك ترك قاعدة طريف خلفه لحماية مؤخرة الجيش. ثم استمر في التقدم، حتى وصل إلى بحيرة تعرف باسم لاخاندا Laguna de la janda فجعلها على مجنبته اليمنى، والبحر على مجنبته اليسرى، بينما كان الطريق إلى الجزيرة الخضراء مفتوحاً من جهة الجنوب، تحسباً لكل الظروف التي قد تضطره إلى الانسحاب.

ولا يوجد اتفاق في مصادرنا بشأن المكان المحدد الذي وقعت فيه المعركة الفاصلة بين القوط الغربيين، وجيش طارق بن زياد. لكن الروايات الإسلامية، والمسيحية تجمع على أنها وقعت في كورة شذونة. وقد سميت المعركة بأسماء عديدة، منها معركة البحيرة، ووادي لكة أو

كتاب تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخطوط المكتبة الوطنية في مدريد رقم (5095)، ص132.

بكة، ووادي البرباط، ووادي شريش، والسواني، والسواقي[29]. وتقع هذه الأماكن جميعها في كورة شذونة، مما يدل على أن المعركة لم تقتصر على مكان واحد بل حدثت كلياً أو جزئياً في كل هذه المناطق المذكورة، فهي معركة كورة شذونة بأسرها. وإن اقتران تسمية المعركة بتلك الأماكن، ما هو إلا دليل على كبر حجمها، وتشعبها، بحيث غطت مناطق واسعة من كورة شذونة. ومما يؤيد هذا الرأي، أن بقية المعارك التي حدثت بين العرب والقوط لم تكن سوى مناوشات خفيفة بالنسبة لهذه الموقعة الفاصلة[30].

ولا تتوفر لدينا تفصيلات دقيقة عن سير المعركة، وخططها، لكننا نعلم من رواية أحمد بن محمد الرازي، أنها كانت معركة رهيبة استمرت ثمانية أيام (28 رمضان ـ 5 شوال 92هـ/ 19 ـ 26 تموز 711م)[31]. وكان جيش القوط يتألف من عدد كبير جداً من الجنود، وقد بلغت أقل التقادير تواضعاً لهذا الجيش نحو 40 ألفاً من الرجال. وقد نظم هذا الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب. وكان على القلب الملك لذريق. وقد انهزمت الميمنة والميسرة أولاً، ثم استمر القلب في القتال، لكنه لم يستطع أن يصمد أمام قوة وحماس جيش طارق بن زياد، فانهزم هو الآخر، وفقد قائده ولم يُعلم مصيره. وتشير معظم الروايات إلى أنه قتل أو غرق في أحد المستنقعات المجاورة، ولكن لم يعثر على جثته أبداً[32].

---

(29) انظر: ابن عبد الحكم، ص206: ابن القوطية، ص7؛ فتح الأندلس ص7؛ أخبار مجموعة، ص9 ـ 10؛ الكامل في التاريخ: 4/ 562؛ ابن عذاري (برواية الرازي) 2/ 8؛ الحميري، ص169؛ ابن خلدون 4/ 254؛ المقّري (برواية ابن حيان): 1/ 249، 258.

(30) قارن: أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص35.

(31) انظر: رواية الرازي عن ابن عذاري: 2/ 8.

(32) The Chronicle of 754, P. 147 (n° 34) ابن عبد الحكم، ص207 ابن القوطية، ص7؛ الرقيق؛ ص75؛ فتح الأندلس، ص7، أخبار مجموعة، ص9 ـ 10؛ ذكر بلاد الأندلس، =

وبالنسبة للجيش العربي الإسلامي، لا نعلم على وجه اليقين كيف كان التنظيم والأسلوب الذي اتبعه في القتال. ولكن من سير المعركة يمكن أن نفترض أن الجيش كان يتألف أيضاً من ميمنة وميسرة وقلب، وأنه قاتل صفاً واحداً أول الأمر، ولكن بعد الصدمة الأولى، ونتيجة لانهزام ميسرة وميمنة العدو، واختلال قلبه، قسم طارق جيشه إلى مجموعات متعددة لملاحقة ومطارقة القوات القوطية التي فقدت اتزانها، وانهزمت باتجاهات مختلفة نحو البحيرة، أو نحو وادي لكة، أو نحو وادي شريش، أو نحو السواقي أو السواني، وغيرها من المناطق التي أشارت إليها المصادر. فقتل عدد كبير جداً من الهاربين، وانهزمت مجموعات لا بأس بها إلى الجهات الغربية من البلاد، وإلى مدينة إستجة. ثم تجمع الجيش العربي الإسلامي مرة أخرى، وأحصى طارق الغنائم، وقسمها على الجنود الباقين، وقد فقد المسلمون في هذه المعركة ثلاثة آلاف شهيد[33]، أي ربع الجيش المشارك في المعركة، مما يدل على ضراوتها، ومدى التضحية التي بذلت في سبيل إنجاز الفتح. ومع هذا، فإن خسائر المسلمين لا تبدو كبيرة، إذا ما قورنت بالإنجاز الذي تحقق، وهو الانتصار على ما لا يقل عن 40 ألفاً من الأعداء وكسر شوكة الجيش القوطي إلى الأبد، مما مهد الطريق للعمليات العسكرية القادمة، التي استطاعت أن تسيطر على شبه الجزيرة الآيبيرية بسهولة ويسر.

وكانت العمليات العسكرية التالية لهذه المعركة الحاسمة عبارة عن

= ص85؛ ابن الكردبوس، ص48؛ ابن عذاري: 2/ 7 ـ 9؛ المقَّري: 1/ 249، 258 ـ 259.

(33) ابن الشباط، صلة السمط وسمة المرط، تحقيق: أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد 14، ص107 (برواية عريب بن سعد)؛ المقَّري (برواية الرازي): 1/ 259.

ملاحقة لفلول القوط المنهزمين إلى حاميات المدن الأخرى، ومحاصرة هذه الحاميات وإبادتها، أو عقد الصلح معها، إن استسلمت ورضيت بشروط المسلمين وهذا ما حدث في إستجة، وقرطبة، بالنسبة لحملة طارق على سبيل المثال وقرمونة، وإشبيلية، وباجة، وماردة، بالنسبة لحملة موسى بن نصير، ومالقة والبيرة، وأوريولة، بالنسبة لعبد العزيز بن موسى. ونظراً لأهمية حصار مدينة ماردة، فسوف نتناوله في فقرة خاصة.

3 ـ معركة ماردة:

تميزت معركة مدينة ماردة عن بقية عمليات الحصار الأخرى، بموقف حاميتها وأهلها المتصلّب إزاء جيش موسى بن نصير. فقد أظهروا مقاومة ملحوظة، وخرجوا من المدينة محاولين صد الهجوم العربي، وقد استطاعوا أن يوقعوا خسائر كبيرة في صفوف المسلمين. ونتيجة لهذا الموقف، كان على موسى أن يجابه الموقف بحكمة، وبخطة عسكرية ناجحة. فقد لاحظ في أثناء القتال وجود مقاطع كبيرة للحجارة خارج أسوار المدينة الحصينة. فحينما جن الليل وضع مجموعة من الكمائن في هذه المقاطع. وفي صباح اليوم التالي خرج أهل ماردة وحاميتها على المسلمين مثل اليوم السابق، فقاتلهم هؤلاء ونجحوا في زعزعتهم عن مواقعهم، واضطروهم للدخول ثانية إلى المدينة بعد أن خسروا عدداً كبيراً من مقاتليهم. ثم ضرب موسى الحصار على المدينة لعدة أشهر. لكن عناد وإصرار الحامية على الدفاع كان يوحي باستمرار الحصار لفترة طويلة ولهذا فقد حاول موسى أن يقتحم أسوار المدينة، باستخدام آلة من آلات الحصار، تصفها المصادر باسم الدبابة. وقد قاد الجنود المسلمون هذه الدبابة نحو أحد أبراج المدينة، وحاولوا تكسير صخر السور، فنبّت معاولهم وفؤوسهم عن ذلك، لأنه كان مبني بمادة صماء شبيهة بالاسمنت يقال لها Argamasa أو «اللاشّة ماشّة» وهو تحريف لهذا الاسم ذكره كل

من ابن حيان، ومؤلف كتاب أخبار مجموعة[34]. وبينما كان المسلمون يحاولون ذلك، شعر بهم المدافعون عن الأسوار فهاجموهم، واستشهد عدد كبير من المسلمين تحت الدبابة، فسمي ذلك البرج ببرج الشهداء.

وقد استغل أهل ماردة هذه الحادثة، واعتقدوا أنهم قد كسروا المسلمين فأرسلوا وفداً للمفاوضة مع موسى عسى أن يتوصلوا إلى الصلح، فعرضوا عليه شروطاً لم يقبلها. ثم جاءوه مرة ثانية وكان ذلك في ليلة عيد الفطر فأصر على شروطه. واضطروا في اليوم التالي أن ينزلوا على ما سأل من شروط، وتذكر إحدى الروايات أن موسى اتبع أسلوباً معيناً في التأثير على المفاوضين من أهل ماردة ففي المرة الأولى قابلهم بهيئته الاعتيادية، وكان شيخاً أبيض اللحية لكنه في ليلة العيد، عمد إلى تخضيب لحيته بالحناء فاحمر لونها مما أثر على المفاوضين فاعتقدوا أنه غير الذي فاوضوه بالأمس. وفي يوم الفطر صبغ لحيته باللون الأسود وأصر على شروطه فرجع الوفد إلى المدينة وهم يتعجبون من شكله وإصراره وقالوا لأهل مدينتهم «يا حمقاء إنما تقاتلون أنبياء يتخلقون كيف شاءوا يتشببون قد صار ملكهم حدثاً بعد أن كان شيخاً اذهبوا فأعطوه ما سأل»[35]. وعلى الرغم من استبعاد وقوع مثل هذه الرواية فإنها، لو صحت تدل على حنكة موسى واتباعه للأسلوب النفسي في التأثير على المفاوضين.

وعلى أي حال، استسلمت المدينة في شوال 94هـ/ تموز 713م وذلك بموجب معاهدة صلح عقدت بين موسى بن نصير وأهل المدينة. وقد ضمنت هذه المعاهدة للمسلمين الاستيلاء على ممتلكات جميع الذين قتلوا من المدافعين عن المدينة يوم الكمين وكذلك أموال القوط الهاربين

(34) المصدر نفسه (برواية ابن حيان): 1/ 270؛ أخبار مجموعة، ص17؛ وانظر أيضاً فجر الأندلس، ص93.

(35) أخبار مجموعة، ص18.

من المدينة إلى منطقة جليقية، في الشمال الغربي من إسبانيا. يضاف إلى ذلك الاستيلاء على أموال الكنائس وذخائرها في المدينة. أما بالنسبة للسكان، فقد ضمنت لهم المعاهدة الأمان، وعدم التعرض بالأذى لأي فرد يقرر البقاء في المدينة، أو ينوي المغادرة إلى أي مكان آخر(36). ولم تصلنا نصوص معاهدات أخرى عقدها موسى، ولكن يبدو أن هذه الشروط، هي التي حددت العلاقة بين الفاتحين وأهالي المدن التي قاومت الفتح العربي الإسلامي.

(36) La Cronica del Moro Rasis, P.78 أخبار مجموعة، ص18، ابن عذاري: 2/ 15؛ المقّري (برواية ابن حيان): 1/ 270 ـ 271؛ وقارن: فجر الأندلس، ص93.

تركيب الجيش والأسلحة المستعملة في المعارك

لقد سبقت الإشارة إلى قيام حملتين رئيستين بإنجاز فتح شبه الجزيرة الآيبيرية وهما حملة طارق بن زياد، وحملة موسى بن نصير. وبصفة عامة يمكن القول إن المشاركين في هاتين الحملتين كانوا يتألفون من العرب والبربر ولكن باختلاف في النسَب تبعاً لكل حملة. ففي حملة طارق كانت نسبة البربر أعلى من العرب، وذلك بسبب رجوع معظم الجيش العربي الذي كان مع موسى بن نصير إلى القيروان. وظلت حامية مدينة طنجة تتألف من أعداد كبيرة من البربر الذين اعتنقوا الإسلام، وتحمسوا لنشر مبادئه، مثل إخوانهم العرب على حد سواء. ومع هذا، فقد ظلت جماعة من العرب مع طارق بن زياد، وساهموا في الحملة الأولى، وتتراوح أعداد هؤلاء بين ألفين إلى ثلاثمائة رجل[37]. وكان عبد الملك بن عامر المعافري الجد الأعلى للمنصور بن أبي عامر من أشهر القادة العرب المساهمين في هذه الحملة[38].

---

(37) ابن خلدون: 6/ 254؛ وقارن: ذكر بلاد الأندلس، ص84؛ المقَّري: 1/ 233.

(38) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القاهرة، 1945، جـ1، ق4، ص40، ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1963 (برواية ابن حيان): 1/ 275؛ ابن عذاري: 2/ 256 ـ 257؛ المقَّري: 1/ 396، 399.

أما البربر، فكانوا ينتمون إلى قبيلة مصمودة، وغيرها من القبائل، مثل جراوة ومطغرة، ومكناسة ومديونة[39]. ولكن بعد انتصار طارق على لذريق في معركة كورة شذونة، وتسامع البربر في شمال أفريقيا بذلك توجهت مجموعات كبيرة منهم إلى الجانب الإسباني فعبرت المضيق، وبدأت بالاستقرار في المناطق السهلة من البلاد، أو اختلطت بحملة طارق، ورافقته في بقية فتوحه. وليس لدينا إحصاء، أو معلومات عن أعداد هذه الجماعات ولكن يرجح أنها كانت كبيرة جداً.

وضم تركيب حملة طارق أيضاً عنصراً آخر من السكان، من غير العرب أو البربر، وهم السودان الذين بلغ عددهم نحو سبعمائة في الحملة. وعلى الرغم من عدم توفر المعلومات عن الظروف التي أدت إلى ظهور هؤلاء في طنجة، فإن المرء يمكن أن يتوقع أنهم قد جنِّدوا، وجُلبوا من قبل طارق بن زياد وموسى بن نصير في أثناء حملاتهما على السوس الأقصى في جنوب المغرب. ولهذا فهم على الأغلب ينتمون إلى البلاد التي تقع إلى الجنوب من الصحراء الكبرى، ربما من حوض السنغال، أو غانة. وعلى أي حال، إن وجود هؤلاء السود في مثل هذا الوقت المبكر، هو أمر في غاية الأهمية، لا سيما وأن هؤلاء اعتنقوا الإسلام، وساهموا إلى حد كبير في مساعدة طارق في الفتح[40].

واشترك في حملة طارق أيضاً بعض أتباع جوليان، حاكم سبتة البيزنطي، الذي كان هو على رأس المرافقين لطارق. ويبدو أن دور هؤلاء لم يكن القتال الفعلي بجانب المسلمين، إنما مساعدة الحملة وإرشادها

(39) عبيد الله بن صالح، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، تحقيق ونشر: ليفي بروفنسال صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد 2، 1954، ص224؛ ابن خلدون: 6/ 239، 256، 265، 462.

(40) ذكر بلاد الأندلس، ص84؛ فتح الأندلس، ص5.

في أثناء العبور، والقيام بعمليات تقصي أخبار الأعداء. ولدينا من الأدلة في مصادرنا العربية ما يؤيد هذا، لا سيما تزويد حملة طارق وموسى بالأدلاّء والعيون، الذين أرشدوا كلا القائدين إلى أفضل الطرق وأقصرها لبلوغ المدن التي تركزت فيها المقاومة القوطية[41].

أما بالنسبة لحملة موسى بن نصير، فتتوفر لدينا معلومات جيدة عن تركيبها، والعناصر التي ساهمت فيها. ويأتي على رأس هؤلاء، العرب، فقد كان جيش موسى يقدر بنحو ثمانية عشر ألف رجل. وكان معظم هؤلاء من القبائل اليمنية[42]، وبقية العشائر العربية المختلفة الأخرى التي كانت موجودة في شمال أفريقيا، لا سيما منطقة القيروان. وضمت الحملة أيضاً أعداداً كبيرة من رجال قريش البارزين، الذين كانوا في مناصب القيادة، إضافة إلى الإداريين، وبقية القادة المحنكين من أمثال محمد بن أوس الأنصاري، وحبيب بن أبي عبيدة الفهري وعبد الله بن المغيرة بن أبي بردة، وعياش بن أخيل، وحنش بن عبد الله الصنعاني، وعبد الجبار ابن أبي سلمة الزهري، وعلي بن رباح اللخمي ومعظم أبناء موسى نفسه[43].

وبالنسبة للتشكيل العسكري، فقد تألف جيش موسى من أكثر من عشرين وحدة، وكانت كل وحدة تحت راية خاصة، وقاد موسى بنفسه

(41) انظر: ابن عذاري: 2/ 9، 13 ـ 14؛ فتح الأندلس، ص10، أخبار مجموعة، ص10؛ الرسالة الشريفية، ص192؛ الإحاطة في أخبار غرناطة (برواية ابن القوطية): 1/ 100؛ المقَّري (برواية الرازي)؛ 1/ 260.

(42) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون القاهرة، 1962، ص430؛ أخبار مجموعة، ص10؛ فتح الأندلس، ص10.

(43) ابن عبد الحكم، ص207، العذري، ص22؛ فتح الأندلس، ص13؛ الحميري، ص4؛ المقَّري: 1/ 278، 288، 3/ 64.

اثنتين من هذه الرايات، بينما تولى ابنه عبد العزيز قيادة راية ثالثة. أما بقية الرايات، فكانت بقيادة قواد من قريش، ومختلف العشائر العربية الأخرى. وكانت الحملة تضم عشائر كثيرة دون أن تكون مصنفة ضمن راية معيَّنة(44). إن غرض موسى من تقسيم جيشه إلى وحدات تنضوي تحت رايات لا تتخذ التصنيف العشائري أساساً لها، يمكن أن يعزى إلى عدم وجود أعداد كافية من رجال القبائل العربية في كل عشيرة، ليكوّنوا الوحدات الاعتيادية، تبعاً للتقليد العربي المتبع في مثل هذه الحالات. وبهذه الطريقة، أصبح بالإمكان ضم جماعات عديدة من مختلف العشائر ليقاتلوا تحت قيادة أي قائد يعيِّنه موسى. وتشير تقسيمات موسى هذه أيضاً إلى استخدامه لعدد كبير من البربر في هذه الحملة، وذلك بضمهم تحت ألوية هذه الرايات المختلفة، لأن موسى كان يميل إلى تجنيد البربر في حملاته لتغطية النقص الحاصل في أعداد القبائل العربية المتوفرة في شمال أفريقيا نتيجة للحيز المكاني الواسع الذي حققته الفتوح العربية في شمال أفريقيا وإسبانيا(45).

ولا تتوفر لدينا معلومات مفصلة عن نوعية الأسلحة التي استخدمها الجيش الفاتح لإسبانيا، سواء بالنسبة لحملة طارق أو لحملة موسى، ولكن بعض النصوص الواردة في مصادرنا، تشير عرضاً إلى أمور يمكن أن نستفيد منها في هذا المجال. وبطبيعة الحال، فإن جنود كلا الحملتين لا بد وأنهم كانوا مزودين بالأسلحة التقليدية المعروفة في ذلك العهد، كالسيوف، والرماح والسهام، والتروس، والخناجر، وغيرها.

(44) انظر: رواية محمد بن مزين عن محمد بن موسى الرازي التي نقلها الغساني في كتابه: رحلة الوزير ص99، انظر أيضاً: الرسالة الشريفية ص197 ـ 200، فتح الأندلس، ص13.

(45) انظر: عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، بغداد ـ ميلانو، 1982، ص175 ـ 176.

إن وجود حاجز مائي يفصل بين شمال أفريقيا وشبه الجزيرة الأيبيرية، يتطلب منا دراسة كيفية ووسائل العبور. وقد سبق أن أشرنا إلى طريقة طارق في عبور المضيق، وفي النزول على البر الإسباني. وقلنا إنه على الرغم من استخدام طارق لسفن تجارية تابعة لجوليان، لغرض تغطية العبور، وإسدال ستار من الكتمان والسرية عليه، لكن العرب كانوا يمتلكون بالفعل سفنهم الخاصة بهم. وقد ظهر دور هذه السفن بعد انتصار طارق على القوط، وتأمين المضيق من الناحية العسكرية، فعبرت فيها النجدات المتلاحقة، وكذلك عبرت فيها حملة موسى بن نصير. وهذا يشير إلى توفر سلاح البحرية الفعّال لنقل الإمدادات والمؤن وغيرها. ولن نناقش في هذا المجال الرواية التي تشير إلى إحراق طارق لسفنه بعد النزول إلى الشاطىء الإسباني، وذلك لضعف هذه الرواية، وتناقضها مع قيادة طارق الحكيمة، التي ضمنت النزول الآمن لقواته، ووفرت لهم الحماية الكاملة لخطوط مواصلاتهم مع شمال أفريقيا ولا يمكن أن يتم ذلك بإحراق السفن التي عبروا فيها[46].

ويبدو أن معظم الرجال الذين عبروا مع طارق كانوا من المشاة، وأن عدد الخيول التي كانت بحوزتهم قليلة في بادىء الأمر. ويدل على ذلك اهتمامهم الكبير عقب كل معركة مع كتائب القوط، بالاستحواذ على الخيول، التي عُدَّتْ من أثمن مكونات الغنائم، واستعملت فور الحصول عليها لركوب المشاة من الجيش. وقد حدث هذا في بعض المناوشات التي سبقت المعركة الحاسمة مع لذريق[47]. وكذلك حصل جند طارق

(46) قارن: فجر الأندلس، ص69 هامش «2»؛ العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص23 ـ 27.

(47) انظر: ابن عذاري: 2/ 8.

على كل ما يحتاجونه من خيول بعد حصارهم لمدينة إستجة وانتصارهم على حاميتها القوطية[48].

وقد وردت إشارة واحدة إلى استخدام المسلمين لأدوات الحصار، وذلك في أثناء حصار موسى بن نصير لمدينة ماردة، فقد أمر بعمل «دبابة. فدبّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراجها...»[49]. ويبدو أن آلة الحصار هذه صنعت في موقع الحصار، بعد أن طال انتظار المسلمين لإمكانية تسليم المدينة. وليس لدينا تفصيلات عن هذه الآلة، ولكن من المتوقّع أنها كانت كبيرة إلى حد ما، بحيث اختفى تحتها عدد من المهاجمين، ليقوموا بمهمة هدم السور، دون أن يتعرضوا لخطر المدافعين عن المدينة. ولكن المعاول والفؤوس التي استخدموها في تلك العملية، لم تكن كافية، لا سيما وأن السور كان مبنياً بمادة قوية جداً، فتأخروا في إنجاز مهمتهم، مما أتاح للعدو الفرصة للقضاء عليهم، وتحطيم الدبابة.

(48) La Cronica del Moro Rasis, PP. 67 - 68، ابن الشباط، ص112 ـ 113؛ المقّري (برواية الرازي): 1/ 260 ـ 261.

(49) انظر: أخبار مجموعة، ص17؛ ابن عذاري: 2/ 14.

أبرز قادة الفتح

موسى بن نصير:

ينتسب موسى بن نصير إلى أراشة، من قبيلة بليّ العربية[50]. وهناك من ينسبه خطأ إلى بكر بن وائل، وذلك بسبب اعتبار أراشة من هذه العشيرة[51]. ولكن من المؤكد أن أراشة تعود إلى بليّ، من قضاعة، وليس إلى بكر بن وائل[52]. أما نسبة موسى إلى قبيلة لخم، فقد جاءت عن طريق الزواج، فهو صهر حبيب اللخمي، والد أيوب بن حبيب، الذي تولى الأندلس بعد مقتل عبد العزيز بن موسى[53].

وُلد موسى في بلاد الشام، في قرية تدعى كفر مري في خلافة عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه[54]. وكان والده قد خدم في حرس معاوية ابن أبي سفيان في دمشق. ولما شب موسى، عمل هو الآخر في خدمة

---

(50) البلاذري، فتوح البلدان (برواية الواقدي وابن الكلبي) ص230، 247.

(51) المصدر نفسه، ص230؛ ابن دريد، الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة 1958، ص335.

(52) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 442.

(53) أخبار مجموعة، ص30.

(54) البلاذري، فتوح البلدان (برواية ابن الكلبي)، ص230.

الفرع المرواني من الأسرة الأموية[55]. ولكنه تولّى منصبه المهم الأول في مصر عندما رافق الخليفة مروان بن الحكم في حملته هناك سنة 65هـ/684م. فلقد عيَّنه الأخير مستشاراً ووزيراً لابنه عبد العزيز، الذي أصبح والياً على مصر[56]. ونظراً للجدارة التي أثبتها موسى بن نصير في مصر، فقد أسند إليه الخليفة عبد الملك بن مروان مهمّة الإشراف على خراج البصرة، عندما كان أخو الخليفة، بشر بن مروان، والياً على العراق. ولما عيِّن الحجّاج بن يوسف الثقفي على العراق، غادر موسى إلى مصر، والْتحق بخدمة عبد العزيز بن مروان، الذي كان يقدِّر مواهبه في الإدارة والقيادة. ولهذه الأسباب، استحصل موافقة الخليفة عبد الملك بن مروان وأسند إليه ولاية أفريقية في عام 85هـ/704م. وقد أثبت موسى بن نصير أنه جدير بهذا المنصب، فأتم افتتاح الشمال الأفريقي إلى المحيط الأطلسي، ثم أنجز مع مساعدة طارق بن زياد افتتاح الأندلس.

وبعد إنجاز فتح الأندلس، تم استدعاء موسى إلى العاصمة دمشق من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، الذي أراد أن يطمئن إلى سلامة الجيش العربي الإسلامي، ويضبط حركة الفتوح الإسلامية، ويحد من انطلاق موسى إلى اتجاهات أخرى، لا سيما ما سمعه عن نيّته في التوغل في جنوب فرنسا. وقد توفي الوليد بعد فترة وجيزة من وصول موسى إلى دمشق. وأعقبه أخوه سليمان بن عبد الملك، الذي لم يكن راضياً عن بعض النواحي من سياسة موسى بن نصير في شمال أفريقيا والأندلس، وفرض عليه غرامة مالية كبيرة. ولكن العلاقات الطبيعية عادت بين سليمان وموسى، حتى إنهما ذهبا سوية لأداء فريضة الحج عام 97هـ/716م. وقد

(55) المقَّري: 1/ 286.

(56) الكندي، الولاة والقضاة، بيروت، 1908، ص47.

توفي موسى بن نصير في هذه الرحلة[57].

طارق بن زياد:

إن معلوماتنا عن طارق بن زياد محدودة جدّاً، وتشير بعض الروايات إلى أنه كان من موالي قبيلة صدف العربية. بينما تؤكد روايات أخرى أنه كان من موالي موسى بن نصير، وأنه ينتمي إلى قبيلة نفزة البربرية[58]. ومن المحتمل أن أباه زياداً كان قد أسلم في أيام عقبة بن نافع، ودخل في خدمة العرب، وشبّ ابنه هذا في بيئة عربية، والتحق بخدمة موسى بن نصير، الذي وثق به، وعهد إليه بقيادة جيوشه من العرب والبربر. وقد ساهم طارق بن زياد في فتوحات المغرب، لا سيما طنجة، والسوس الأدنى، ووادي درعا، وتافيللات، حيث رافق موسى في هذه العمليات[59].

وقد تبين لموسى بن نصير، كما يبدو، أهمية هذا القائد الشاب، فقرَّبه إليه، وتخطى غيره من القادة الذين كانوا في جيشه من أمثال: زراعة ابن أبي مدرك، وطريف بن مالك، وعبد الملك بن عامر المعافري، وعياش بن أخيل، وغيرهم. فأَوكل إليه قيادة حامية مدينة طنجة، التي لم يكن عدد أفرادها يقل عن اثني عشر ألف رجل. وكان طارق، كما يفهم من رواية ابن عبد الحكم[60]، يقيم قبل الاستيلاء على طنجة، في منطقة تلمسان، في المغرب الأوسط، مع زوجته أم حكيم، ومن هناك اتصل به

---

(57) ابن عبد الحكم، ص213؛ ابن عذاري: 2/ 21 ـ 22؛ الإمامة والسياسة، ص184، 186 ـ 187؛ المقَّري: 1/ 287.

(58) ابن حبيب، ص221؛ ابن عبد الحكم، ص207؛ الرقيق، ص69؛ أخبار مجموعة، ص6، فتح الأندلس، ص2، ابن عذاري: 1/ 43؛ المقَّري: 1/ 239، 245.

(59) ابن عبد الحكم، ص205؛ الرقيق، ص69؛ ابن عذاري: 1/ 42؛ أخبار مجموعة ص4؛ المقَّري: 1/ 250.

(60) فتوح مصر وأخبارها، ص205.

جوليان، وتبادل معه الهدايا.

وربما كان موسى قد فضل طارق بن زياد لمهمة قيادة القوات العربية الإسلامية في منطقة المغرب، لأنه كان مطّلعاً على أحوالها، وخبيراً بقبائلها، وبطبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين البربر، وجوليان، وإسبانيا، ممّا سهل عملية التفاهم بين الاثنين لخدمة الجهد العسكري العربي في هذه الجبهة، وفي الأندلس. ولقد أثبتت الظروف صحة اعتقاد موسى في طارق، وحنكته العسكرية. أما ما يقال عن عبوره دون علم موسى، وعدم إطاعته لأوامر الأخير بالتوقف بعد معركة شذونة، فلا يمكن أن يتخذ دليلاً عن العصيان، أو عدم التفاهم، لأن طارقاً كان يعمل باسم قائده موسى. ولكنه كان في خضم الأحداث، وهو الذي يقدِّر تماماً الإجراء العسكري الواجب اتخاذه لحماية إنجازاته، والمحافظة على النصر الذي حققه على القوط. لهذا، فقد رأى أنه يجب متابعة فلول الأعداء، والقضاء عليهم قبل أن يتجمعوا، ويستعيدوا قوّتهم. وحينما التقى موسى بطارق، تفهم الأول موقف الثاني، وتعاون الإثنان في إنجاز الفتح.

عاد طارق مع موسى بن نصير إلى المشرق بناءً على استدعاء الخليفة الوليد بن عبد الملك. وبعد وفاة الوليد، كان من الواضح أن سليمان بن عبد الملك بدأ يميل إلى تفضيل طارق بن زياد، وإرجاعه لتولي أمور الأندلس ولكنه فضل أن يستشير مغيثاً الرومي، وهو أحد القادة الذين كانوا مع طارق، في هذا الأمر. فسأله عن مدى نفوذ طارق، وتأثيره على المسلمين في الأندلس. ولكن مغيثاً أثار مخاوف الخليفة حين قال له: لو أن طارقاً «أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا»[61]. وقد كان هذا سبباً كافياً للخليفة ليصرف النظر عن

(61) المقَّري: 3/ 13.

تعيين طارق في ذلك المنصب. ويمكن أن يفسر هذا الأمر أيضاً على أن الخلافة الأموية ابتدأت تخشى من ازدياد نفوذ البربر في الأندلس.

ولم نعثر على معلومات أخرى عن حياة طارق بن زياد، وهل عاد إلى الأندلس، أم بقي في المشرق. وتشير بعض الروايات إلى وجود عقب لطارق في الأندلس[62]، لا سيما وأنه كان قد أخذ معه زوجته أم حكيم في حملته إلى الأندلس، وأسكنها في الجزيرة الخضراء، التي سميت منذ ذلك الوقت بجزيرة أم حكيم[63]. وتشير روايات أخرى إلى وجود أقرباء لطارق في الأندلس ومنهم بنو عبد الوهاب، من ذرية ميمون ابن جميل الصنهاجي، ابن أخت طارق بن زياد، وقد سكنوا في أشونة Osuna إلى الجنوب من إستجة[64]. وعلى أي حال، فإن نهاية طارق ظلت مجهولة بالنسبة لنا ويبدو أنه مات مغموراً في طي النسيان لكنه مع ذلك، ظل خالداً في ضمير الأمة، لما قدم من إنجاز، وظل اسمه علماً، وفي كل اللغات، على الجبل الذي شهد عمليته العسكرية الجريئة، التي غيرت مصير شبه الجزيرة الآيبيرية، ومهدت لحكم العرب، ونشر حضارتهم فيها لما يقرب من ثمانية قرون.

(62) المصدر نفسه: 1/ 254.

(63) ابن عبد الحكم، ص206.

(64) انظر: جمهرة أنساب العرب، ص502، مفاخر البربر، مجهول المؤلف، نشر: ليفي بروفنسال، الرباط، 1937، ص63.

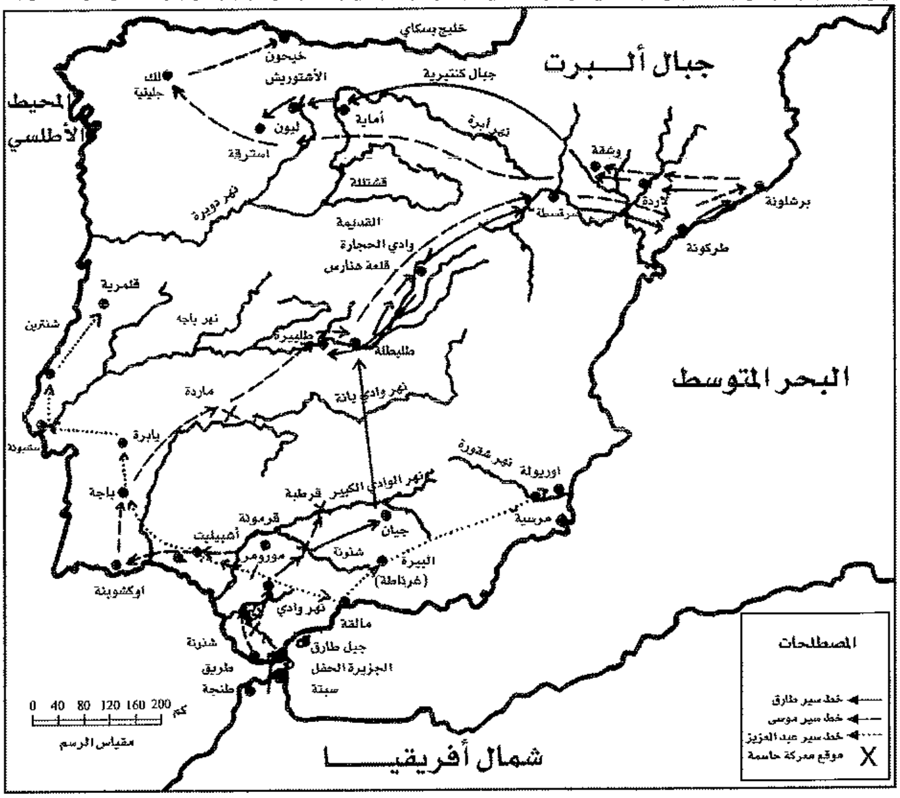

حملات الفتح العربي للأندلس

طبيعة الجهد العسكري العربي
في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا
في عصر الولاة

تمهيد

لا يمكن فصل الجهد العسكري العربي في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا عن الخط العام الذي سار فيه هذا الجهد منذ بداية الفتوحات العربية الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين. فلقد نجح العرب في فتح وتحرير أجزاء واسعة من العالم المعروف في ذلك الوقت، سواء في المشرق أو في المغرب، وكان امتدادهم إلى الشمال من إسبانيا والجنوب من فرنسا، نتيجة طبيعية لإنجازهم فتح إسبانيا. وفي الحقيقة فإن المبادرة الأولى لفتح شمال إسبانيا، تعود إلى القائدين موسى بن نصير، وطارق بن زياد، اللذين كان لهما الفضل في قيادة الطلائع الأولى التي عبرت لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية. فحاولا استكمال هذا الفتح بالتوغل في شمال وشمال غرب شبه الجزيرة، ممهّدين بذلك السبيل لمن جاء بعدهما من الولاة العرب، ورسما لهم الطريق الواجب سلوكها في هذا المجال.

وتواجه الباحث عند دراسة الجهد العسكري العربي بشكل عام، لا سيما التوغل في جنوب فرنسا، مشكلة البواعث والأهداف التي حملت العرب على سلوك هذا السبيل. ولمناقشة هذه المشكلة اهتم هذا البحث بدراسة النصوص العربية والأجنبية المتيسرة، والمقارنة بينها للتوصل إلى الحقيقة التاريخية الخالصة التي لا تقوم على الهوى، ولا تهمل وجهات

النظر الأخرى. فعلى سبيل المثال يرى بعض المستشرقين، أن الدوافع المادية، والغنائم وحب التوسع، هي التي دفعت العرب إلى الفتوحات. وهذه تهمة خطيرة قصد بها تشويه التاريخ العربي الإسلامي، وهي لا تقوم على أساس واقعي. فلم يكن هدف العرب الكسب المادي، بل كانت لهم غاية نبيلة أهم من ذلك بكثير، وأبعد أثراً، ألا وهي نقل مبادىء الحضارة العربية الإسلامية المستمدة من قيم السماء السمحة إلى البلاد المفتوحة، والجهاد في سبيل الله من أجل تحريرها من نير القوى المضطهدة، ومن ظلام الجهل والتخلف الذي كان يغلف معظم الشعوب في العصور الوسطى. أما الغنائم، والمكاسب المادية، فهي تحصيل حاصل، ونتيجة طبيعية من نتائج الحروب التي كانت وما زالت تقوم بين الأمم، فالغالب لا بد وأن يستولي على مخلفات المغلوب، ولو أن موقف العرب من هذا الأمر كان أفضل بكثير من مواقف غيرهم من الشعوب الأخرى، نتيجة لنظرتهم الإنسانية السامية.

(أ) امتداد العرب في شمال إسبانيا وموقفهم من الإمارات الإسبانية الناشئة:

لم يتمكن طارق وموسى من استكمال فتح المناطق الشمالية الغربية من شبه الجزيرة الإيبيرية وذلك بسبب استدعائهما من قبل الخليفة الأموي إلى دمشق. ولم تتح الفرصة لعبد العزيز بن موسى في أثناء ولايته القصيرة أن يكمل مهمة والده في افتتاح المناطق الباقية. ومع هذا، فإن المؤرخين العرب يذكرون بأنه قد افتتح في ولايته مدناً كثيرة[1]. لكنهم لم

(1) أخبار مجموعة، مجهول المؤلف، نشره وترجمه إلى الإسبانية: لافوينتي القنطرة، مدريد، 1867، ص21؛ ابن عذارى، البيان المغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال ليدن، 1948، ج2، ص24. المقّري نفح الطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت 1968، ج1، ص281.

يحددوا هذه المدن مما يشير إلى أن جهده في الفتوحات لم يكن كبيراً. وقد حاول خليفته أيوب بن حبيب اللخمي أن يثبت السلطة العربية ويطهر المنطقة الشمالية من مقاومة القوط ويدل على ذلك عنايته بهذه المنطقة وقيامه بإنشاء بلدة أطلق عليها اسم قلعة أيوب Calatayub، تقع إلى الشمال الشرقي من طليطلة[2] وعلى الرغم من هذا فقد ظلت المناطق الشمالية الغربية العقبة الأساسية في سبيل استكمال فتح شبه الجزيرة بكاملها. وتعد هذه الأجزاء من المناطق الوعرة جداً لأنها تضم هضاب اشتوريش Asturias القاحلة. وقد اعتقد الفاتحون أنها ليست ذات أهمية بالنسبة إليهم فأغفلوها وكان هذا خطأ كبيراً وقعوا فيه، لأن هذا المركز الشمالي الغربي، الذي يسمى جليقية، أصبح موطناً للشراذم المنهزمة من جيش القوط الغربيين وقد تزعم هؤلاء كما تذكر المصادر العربية، زعيم يدعى بلاي، اعتصم بهم في صخرة بلاي، وقد اطمأن بهم المقام في هذا المكان لبعده عن العرب الذين عجزوا عن الوصول إليه بسبب مناعة هذه الصخرة التي هي أعلى قمم جبال كنتبرية Cantabria. وهكذا أصبح بلاي يشكل تهديداً خطيراً للمسلمين في الأندلس وكان من الضروري أن تتخذ إزاءه إجراءات قوية[3]. وقد أدرك أهل الأندلس هذا الخطر في عهد الوالي عنبسة بن سحيم الكلبي (103 ـ 107هـ/ 721 ـ 726م)، الذي أرسل حملة إلى هذه المنطقة للقضاء على المقاومة فيها.

ولكن بلاي انسحب إلى المواقع الحصينة من الصخرة وتحصن في

---

(2) حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، 1959، ص244.

(3) انظر فتح الأندلس، مجهول المؤلف، نشره وترجمه إلى الإسبانية: دون خواكين دي كونثاليث، الجزائر، 1889، ص226؛ المقّري (برواية ابن حيان) جـ3، ص17.

The chronicle of Alfonso III, ed Manuel Gomez - Moreno Boletin de la Real Academia de Historia, 100, Madrid, 1932, p.613: Levi - Provencal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris, Leiden, 1950, vol. I. P.48.

مغارة كوفادونغا Govadonga، وتمكن من إحراز النصر على هذه الحملة وقتل العديد من أفرادها.

وفي عهد عقبة بن الحجاج السلولي (116 ـ 123هـ/ 734 ـ 741م). الذي كان والياً حازماً وجه اهتمامه نحو الفتوح عبر جبال البرت والقضاء على المقاومة الإسبانية التي تركزت في جليقية، خرجت حملة إلى منطقة الشمال الغربي، وهاجمت منطقة جليقية. وقد استطاع عقبة أن يفتتح كل قرية من قراها، لكنه لم يستطع السيطرة على الصخرة التي امتنع فيها بلاي مع الناجين من أنصاره. وكان عدد هؤلاء نحو ثلاثمائة رجل. وقد حاصر المسلمون هؤلاء حتى هلك الكثير منهم من الجوع، وظل على قيد الحياة نحو ثلاثين رجلاً وعشر نساء. ويقال إن هؤلاء الأفراد اقتاتوا فقط على العسل الذي كانوا يستخرجونه من بعض المناحل المتوفرة في شقوق الصخرة. وبعد أن أعيا المسلمين أمرهم وصعوبة الوصول إليهم تركوهم «وقالوا ثلاثون عِلْجاً ما عسى أن يكون أمرهم واحتقروهم ثم بلغ أمرهم إلى أمر عظيم»[4].

والثابت على أي حال كما يرى الدكتور حسين مؤنس[5]، أن العرب والمسلمين لم يتركوا هؤلاء لأنهم هزموا من قبل بلاي أو لأنهم احتقروهم لقلة عددهم، بل لأن الفاتحين انصرفوا في أول أمرهم في الأندلس إلى المنازعات التافهة فأضعفوا أنفسهم، وأعطوا لهؤلاء الرجال فرصة قيِّمة ليثبتوا مقاومتهم ويتحولوا من مجموعة صغيرة مطاردة إلى دولة مستقرة. وقد أدى انصراف العرب عن القضاء على هذه الدولة إلى وضع جديد في شبه الجزيرة الإيبيرية ملخصه وجود قوتين في البلاد، الأولى هي الدولة

(4) أخبار مجموعة، ص28؛ ابن عذاري، جـ2 ص29.

(5) فجر الأندلس، ص339.

العربية الإسلامية، والثانية هي القوى النصرانية. واستمر الصراع بين الطرفين إلى أن انتهى في الأخير لصالح القوى المسيحية وخروج المسلمين من الأندلس بعد مضي نحو ثمانية قرون.

لم تقتصر حركة المقاومة الإسبانية للفتح العربي الإسلامي على منطقة الصخرة في الأشتوريش، بل كانت هناك بؤر أخرى للمقاومة تركزت في جبال البرت، وامتدت على طول الساحل إلى الغرب من جبال كنتبرية. وقد تمركزت أول هذه التجمعات في الطرف الشرقي من هذه الجبال تحت زعامة بطْرة Pedro الذي أنشأ إمارة سميت بإمارة كنتبرية. وكان هذا التجمع قليل الأهمية في أول الأمر ولكن أصبح له شأن كبير لا سيما بعد زواج الفونسو الأول، ابن بطرة من ابنة بلاي. وقد كانت هذه الإمارة، ومنطقة جبال البرت، وبلاد الباسك أو البشكنس، هدفاً للقوات الإسلامية المتجهة إلى جنوب فرنسا. فعندما سار عبد الرحمن الغافقي إلى فرنسا اتخذ مدينة بنبلونة قاعدة له، فاستعرض فيها جنده وحثهم على الجهاد. وكذلك فقد هاجم كل من عبد الملك بن قطن، في ولايته الأولى 114 ـ 116هـ/ 732 ـ 734م، وعقبة بن الحجاج السلولي بلاد البشكنس ودخلا العاصمة بنبلونة[6] وتدل هذه الحملات المبكرة على بلاد البشكنس إلى ازدياد خطرهم خاصة بعد اندحار المسلمين في معركة بلاط الشهداء سنة 114هـ/ 732م. وقد اشتدت مقاومة البشكنس في عهد آخر ولاة الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري. وربما كان للنجاح الذي أحرزته جماعة بلاي في جليقية أثر على ذلك[7].

ويذكر مؤلف كتاب أخبار مجموعة، أن أهالي بنبلونة نقضوا عهدهم

(6) أخبار مجموعة، ص28؛ ابن عذارى، ج2، ص29.
(7) خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، بغداد 1976، ص100.

مع المسلمين بنقض أهل جليقية[8]. ولهذا فقد أرسل إليهم يوسف الفهري حملة خرجت من مدينة سرقسطة. ولكن أبناء الباسك الجبليون استطاعوا التغلب على هذه الحملة التي كانت قليلة العدد[9]. وهكذا ازدادت قوة المقاومة في هذه المنطقة في أواخر عصر الولاة واستمرت خلال عصر الإمارة.

(ب) توغل العرب ونشاطهم في جنوب فرنسا:

تفصل جبال البرت أو البرتات وهي التي تعرف خطأ باسم البرانس - إسبانيا عن جنوب فرنسا. وكانت هذه المنطقة الجنوبية من فرنسا تسمى بغالة Gaul. وهي تتألف من عدة ولايات كولاية سبتمانية، وتعني المقاطعة ذات المدن السبع، منها أربونة Narbonne، وهي عاصمة هذه الولاية وقرقشونة Carcassonne. وتقع دوقية أكيتانية إلى الشمال الغربي من ولاية سبتمانية، وعاصمتها برديل أو بوردو Bordeaux الواقعة على مصب نهر الجارون. ومن مقاطعات غالة الأخرى، إقليم بروفانس الذي يقع إلى الشمال الشرقي من ولاية سبتمانية وعاصمته مدينة أبنيون Avignon الواقعة على وادي رودنة أو الرون. وإلى الغرب من هذا النهر يقع إقليم برغندية، وعاصمته مدينة لودون أو ليون Lyon، وكانت المنطقة الواقعة إلى الشمال من نهر اللوار خاضعة للدولة الميروفنجية[10].

وتشير بعض الروايات العربية إلى أن موسى بن نصير وطارق بن زياد كانا أول من عبر جبال البرت، ففتحا أراضِيَ ومدناً في جنوب

---

(8) أخبار مجموعة، ص76.

(9) أخبار مجموعة، ص76؛ دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ترجمة: حسن حبشي وآخرون القاهرة، 1963، جـ1 ص198 ـ 199.

(10) انظر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1962، ص137.

فرنسا، منها أربونة، وأبنيون، وليون، حتى انتهيا إلى وادي رودنة[11]. وكما يبدو، فإن ما تذهب إليه هذه الروايات بعيد الاحتمال، ولا يتوفر لدينا ما يؤيد وصول هذين القائدين إلى هذه المناطق، خاصة ونحن نعلم أن موسى اضطر إلى عدم استكمال فتوحه في شبه الجزيرة الإيبيرية ذاتها بسبب استدعائه من قبل الخليفة. وهناك رواية لاتينية أخرى تشير إلى أن الحر بن عبد الرحمن الثقفي، الوالي الذي أعقب أيوب بن حبيب اللخمي، قد توغل عبر جبال البرت وافتتح أربونة عاصمة غالة[12]. ويذكر المؤرخ الإسباني رامون عبدال R. Abadal أن الحر قد فتح قطلونية Catalonia وبرشلونة في الشمال الشرقي من إسبانيا ووصل إلى جبال البرت[13].

ولكن لا توجد أية إشارات في بقية المصادر اللاتينية أو في المصادر العربية القديمة تؤكد هذه الفتوحات، ولهذا فمن الصعب التعويل على ما جاء في هذه الروايات.

الفتوح في عهد السَّمح بن مالك الخولاني:

وتتفق معظم المصادر على أن نشاط حركة الفتوح عبر جبال البرت ابتدأ في عهد السمح بن مالك الخولاني (100 ـ 102هـ/ 719 ـ 721م) الذي عيّنه الخليفة عمر بن عبد العزيز ليكون والياً للأندلس بدلاً من الحر بن عبد الرحمن الثقفي، لنزاهته وشدة إيمانه. وما أن استقر السمح في الولاية

---

(11) المقّري (برواية ابن حيان) جـ1، ص273 ـ 274.

(12) Isidoro Pacense or The chronicle of 754 (n° 43), P.151 (نص هذه الحولية منشور مع كتاب أخبار مجموعة، ملحق رقم 2).

(13) R. Abadal, "El paso de septimania del dominio godo al fiarco a traves la invasion sarracena (720 - 768)", Cuadernos de Historia de España, xix, 1953, P.16.

وقضى على بعض الاضطرابات الداخلية، وأصلح الأمور الإدارية، وقام ببعض الإصلاحات العمرانية[14]، حتى بادر بالنهوض إلى الفتح والجهاد في جنوب فرنسا، وذلك من أجل توحيد طاقات العرب والمسلمين في الأندلس مرة أخرى وتوجيهها نحو الأعداء في بلاد الفرنجة.

شرع السمح بسلسلة من الحملات والفتوح في غالة فسار بجيش كبير عبر منطقة سرقسطة، واجتاز جبال البرت إلى أن أصبح أمام أربونة عاصمة ولاية سبتمانية فحاصرها وافتتحها عنوة، ثم حصَّن أسوارها ووضع فيها وفي المدن المجاورة لها الحاميات، ثم توغل من هذه المدينة إلى داخل غالة حتى وصل إلى طولوشة Toulouse، وفي محاولة لافتتاح هذه المدينة بالقوة أحاطها المسلمون بالخنادق والمنجنيقات وسائر أدوات الحصار حتى أوشك أهلها على التسليم. وعندما سمع الدوق أودو Eudo، دوق أكيتانية، بهذا سار مسرعاً نحو المدينة، واشتبك مع الجيش العربي الإسلامي في معركة حامية بالقرب من مدينة طولوشة أسفرت عن هزيمة السمح واستشهاده مع العديد من رجاله (يوم عرفة سنة 102هـ/ 10 حزيران 721م) وقد استطاع مساعده القائد عبد الرحمن الغافقي أن يقود فلول الباقين من الجيش الإسلامي ويرجع بهم إلى أربونة، ومن ثم إلى الأندلس[15].

(14) أخبار مجموعة، ص24؛ فتح الأندلس، ص25؛ ابن عذاري، جـ2، ص26.

(15) راجع عن فتوحات السمح: فتح الأندلس؛ ص75، ابن عذاري جـ2، ص26؛ المقّري، جـ1، ص235، جـ3، ص15.

The Chronicle of 754, p. 152 (n° 48);

M. Rinaud, "Incursions of the Muslims into France, Piedmont and Switzetland", translated from the French by: Harun Khan, Islamic culture, IV, 1930, PP.261 - 263.

انظر، ترجمة عربية لبعض نصوص رينو ينقلها شكيب أرسلان في كتابه: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، مصر، 1352هـ، ص64 ـ 71.

وعلى أثر هذه الهزيمة تشجع أهالي المنطقة لخلع طاعة العرب لكن هؤلاء كانوا لا يزالون متمكّنين من أربونة وقد جاءتهم نجدات من الأندلس فثبتوا في المناطق التي تم فتحها على يد السمح بن مالك(16).

وظلت أربونة قاعدة للفتوح والجهاد في جنوب فرنسا، ولعلّ قربها من البحر وسهولة تلقي المسلمين الإمدادات عن طريق الأساطيل بدلاً من عبور جبال البرت هو الذي أدى إلى تمسك المسلمين بهذه المدينة يضاف إلى ذلك فإن مناخ أربونة يشبه مناخ المدن العربية، أي إنها لطيفة الشتاء، حارة القيظ لولا نسمات البحر المجاور. وتكثر فيها حاصلات المناطق الحارة مثل الكروم والتين والزيتون والصبّير(17). ونتيجة لهذا، فقد عدت أربونة أقصى ثغور الأندلس، تتجمع فيها النجدات والحملات المتجهة إلى فرنسا، بعد أن تمر بالقاعدة الجنوبية الأخرى وهي برشلونة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الإيبيرية(18).

الفتوح في عهد عنبسة بن سحيم الكلبي:

أقام الجنود الراجعون من الحملة على جنوبي فرنسا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والياً على الأندلس وكانت هذه ولايته الأولى التي لم تستمر سوى فترة قصيرة جداً (من ذي الحجة 102 ـ صفر 103هـ/ حزيران 721 ـ آب 721م). وذلك لأن عامل أفريقية استبدله بوالٍ آخر هو عنبسة ابن سحيم الكلبي الذي وصل الأندلس في صفر 103هـ/آب 721م(19).

---

(16) المرجع نفسه، نقلاً عن رينو، ص72.

(17) المرجع نفسه، ص64 ـ 65.

(18) انظر: خليل السامرائي، المرجع السابق، ص126 ـ 127.

(19) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، نشره وترجمه إلى الإسبانية: خوليان رايبيرا، مدريد، 1926، ص13؛ أخبار مجموعة، ص24؛ ابن عذاري جـ2 ص27؛ المقّري جـI ص235.

وكانت الأندلس تعاني من الاضطراب بسبب الهزيمة التي أصابت المسلمين في جنوب فرنسا، وبسبب النزاع المستمر بين القبائل العربية لذلك فقد قضى عنبسة فترة السنوات الأولى من ولايته في تنظيم وتهدئة البلاد يضاف إلى ذلك أنه وجَّه جهوده للقضاء على التمرد في جليقية كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. وكان عنبسة ذا حماس للفتوح وللسير في الطريق التي سلكها السمح من قبله. وكان يرمي إلى الحفاظ على منطقة غالة القوطية وحماية خطوط مواصلات العرب مع أربونة، ولهذا فلم تكد الأمور تستقر لعنبسة حتى سار بجيش عظيم نحو بلاد غالة أو جنوب فرنسا وحاول تدعيم خط الدفاع أمام أربونة، فحاصر مدينة قرقشونة وافتتحها بعد فترة وجيزة، وذلك بعد أن نزل المدافعون عن البلد على شروطه. فعقد معهم معاهدة صلح وافقوا بموجبها على منح نصف المدينة وما حولها للمسلمين وأن يدفعوا الجزية ويطلقوا سراح جميع الأسرى المسلمين الموجودين في المدينة وأن يلتزموا بروح هذه المعاهدة وذلك بمقاتلة أعداء المسلمين، ومحالفة أصدقائهم[20]. واستولى عنبسة بعد هذا على جميع غالة القوطية ووصل إلى نيمس Nimes وأخذ رهائن من أهلها وأرسلهم إلى برشلونة، القاعدة الإسلامية في شمال شرق الأندلس ومن هذا المكان سار المسلمون حتى أدركوا نهر رودنة وصعدوا مع النهر إلى نهر الساءون ومن ثم توغّلوا في إقليم برغندية وفتحوا مدينة أوتون Autun في 22 آب 725م/ ربيع الثاني 107هـ[21].

ويذكر بعض المؤرخين أن حملة عنبسة استمرت في سيرها حتى وصلت إلى مدينة أوزة Uzes وفيفية Viviers وفالانس Valence وليون

(20) (ملحق رقم 4 لكتاب أخبار مجموعة). The Chronicle of Moissac, p.165.
وانظر: ابن عذاري ج2، ص27؛ المقري ج1، ص235.

(21) انظر: تاريخ غزوات العرب ص73؛ The Chronicle of Moissac, p.165.

وماسون Macon وشالون Chalon ومن هناك تفرعت إلى فرعين، سار الأول نحو ديجون Dijon وبيز Beze ولانجر Langres، واتجه الثاني إلى أوتون مرة أخرى، ولم يقف تيار هذه الحملة إلا قرب بلدة سَانس Sens، على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب من باريس، وذلك بسبب تصدي أسقف سانس للمسلمين ووقفه لتقدمهم(22).

وقد عاد عنبسة ومن معه من الجند، وذلك بعد أن وصلته أنباء بحدوث بعض القلاقل في البلاد. ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى الأندلس فقد هاجمته في طريق العودة جموع كبيرة من الفرنج، فاستشهد نتيجة للمعركة التي حدثت بين الطرفين في شعبان 107هـ/ كانون الأول 725م. فقام القائد عذرة بن عبد الله الفهري ـ وتسميه المصادر اللاتينية Hodera أو Hodeyra(23) ـ بقيادة الجيش والعودة به إلى قواعده. وهو الذي خلف عنبسة على ولاية الأندلس.

ويبدو أن حملة عنبسة لم تكن ترمي إلى الفتح المنظم الثابت، والدليل على هذا أنه لم يضع الحاميات في بعض المدن التي افتتحها، ولم يعمل على استقرار المسلمين في هذه المدن وهذا يشير إلى أن حملته لم تكن سوى حملة سريعة بعيدة المدى، قصد منها إلى الاستطلاع والتعرف إلى البلاد تمهيداً لفتوحات لاحقة «ولو استقر عنبسة في ليون مثلاً» كما يقول أحد المؤرخين المحدثين، «أو في أحد مراكز غالة الوسطى لكان في إمكاننا أن نقرر أنه فتح جنوبي غالة ووسطها، أما وقد

---

(22) فجر الأندلس، ص246 ـ 247 cf. R. Abadal, Op. Cit., p.20.؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص139.

(23) The Chronicle of 754, p.153 (n° 53)

وانظر: المقَّري، جـ1، ص235 الذي يفهم من روايته وفاة عنبسة مستشهداً في بلاد الإفرنج ـ ولكن يذكر ابن عذاري، جـ 2، 26، أن عنبسة توفي حتف أنفه ولم يستشهد.

عاد أدراجه بعد أن سار نحو ألف ميل شمالي قرطبة فلا نستطيع القول إلا أن حملته الرائعة تلك لم تكن أكثر من غارة سريعة طويلة أتت بمغانم وفيرة... ومهما يكن الأمر فإن عنبسة بن سحيم الكلبي ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر، فخر الوصول برايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح مسلم آخر»[24].

ونلاحظ على حملة عنبسة أيضاً أنها بعد أن فتحت قرقشونة لم تستمر بالاتجاه إلى طولوشة في مقاطعة أكيتانية، بل عدلت عن ذلك إلى إقليم بروفانس وبرغندية. ويرجع السبب في ذلك كما يرى بعض الكتّاب المحدثين إلى قيام علاقات صداقة بين المسلمين وبين الدوق أودو، دوق أكيتانية، الذي كان في ذلك الوقت يخشى بأس الدولة الميروفنجية وحاجب ملوكها شارل مارتل، صاحب الأمر في هذه الدولة آنذاك. وكان هذا الأخير ينفس على الدوق أودو مكانته ويتمنى إزالته عن ولاية أكيتانية. وتربط المصادر اللاتينية صداقة الدوق أودو بحاكم شرطانية، منوسة البربري، فتذهب إلى أن الدوق أودو صاهر منوسة وزوّجه من إحدى بناته لكي يأمنه على بلاده[25]. ولهذا فعند قدوم المسلمين بقيادة عنبسة لم يسر لحربهم كما فعل أيام السمح بن مالك، ولم يحاول أن يهاجمهم من الخلف بعد أن تركوا بلاده بل سهّل لهم السير في مقاطعة برغندية فساروا حتى قاربوا نهر السين ولهذا فقد انصرف العرب عن بلاده لأنه كان حليفهم[26].

ومن الجدير بالذكر أن هناك من الكتّاب الآخرين من ينفي وقوع مثل هذه الصلات بين العرب والمسلمين وبين الدوق أودو. وينفون أيضاً

(24) فجر الأندلس، ص248.
(25) The Chronicle of 754, p.155 (n° 58)؛ تاريخ غزوات العرب، ص88.
(26) انظر: فجر الأندلس، ص253.

تعاون منوسة مع هذا الدوق، وعداءه لبعض الولاة من أمثال عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي بل إنهم ينكرون أصلاً وجود شخص باسم منوسة معتمدين في ذلك على أن هذا الاسم ليس لشخص إنما قد يكون تحريفاً لاسم مكان[27]. ولا تخفى، بطبيعة الحال، الدوافع النبيلة التي تحمل هؤلاء الباحثين على هذا الرأي، وهي محاولة التصدي لبعض المؤرخين المسيحيين المتعصبين والمستشرقين الذين استغلوا هذه القصة أكثر مما يجب للنيل من المسلمين وتشويه فتوحاتهم في جنوب فرنسا. ومع هذا يبدو من الصعب إنكار وجود شخصية منوسة الذي ورد اسمه ودوره صراحة في حولية سنة 754 اللاتينية أو ما تسمى بحولية إزيدور الباجي، المعاصرة لتلك الحقبة ولا تذكر المصادر العربية أية أعمال حربية أو فتوح لعذرة بن عبد الله الفهري. وهذا طبيعي لأن مدة ولاية عذرة كانت قصيرة جداً (شعبان 107 ـ شوال 107هـ/ كانون الثاني 726 ـ آذار 726م). أما المصادر اللاتينية فتنسب إليه القيام بأعمال حربية خطيرة، فتذكر أن النجدات جاءت من الأندلس إلى عذرة بعد توليه القيادة فاستعرت الحرب من جديد، وأخذ المسلمون يوجهون حملاتهم نحو كل صوب واتسمت هذه الحملات على حد زعم رينو Reinaud بالدمار والتخريب والعبث في المناطق التي توجهت إليها[28]. وهذه الروايات ملأى بالمبالغات عما تسميه مساوىء العرب والمسلمين ومظالمهم التي أنزلوها بهذه النواحي. فليس من المعقول أن المسلمين لم يفعلوا في جنوب فرنسا غير التخريب وحرق الأديرة والكنائس، بينما الثابت عنهم أنهم لم يفعلوا هذه الأمور قبل ذلك أثناء تحريرهم للعراق وبلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، وكل

---

(27) عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق، 1976، ص192 ـ 193؛ خليل السامرائي، المرجع السابق، 107 ـ 108.

(28) تاريخ غزوات العرب، ص ص73 ـ 77.

هذه الأماكن كانت غاصة بالأديرة والكنائس. فما الذي حصل حتى غيَّر المسلمين وقلب حالهم ومعاملتهم للشعوب المفتوحة في جنوب فرنسا. الواقع لم يحصل شيء، ولم يتغير المسلمون، ولكن حقد المؤرخين الغربيين المتعصبين هو الذي صوَّر لهم نسبة كل حرق وتخريب حصل في المنطقة إلى المسلمين علماً أن العصر كله كان عصر فوضى واضطراب وحروب بين النصارى أنفسهم في هذه الجهات من غالة على وجه الخصوص. «وإذا نحن قارنّا المسلمين» على حد تعبير أحد الكتاب العرب المنصفين «بالشعوب التي كانت تسود غالة في ذلك الحين من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين ومن إليهم، لتبينّا أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب. ومهما بحثنا في حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في غالة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم أو عبد الرحمن الغافقي»[29].

وعلى أية حال فلا يمكن أن تكون الحملات والنشاط الحربي للمسلمين في هذه الحقبة إلا سلسلة من الجهود التي قام بها المستقرون منهم في منطقة سبتمانية من أجل تثبيت أقدامهم في هذه الجهات. أما الجهاد والفتح الحقيقي فلم يبدأ إلا بتولي عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الأندلس سنة 112هـ/ 730م، وهي ولايته الثانية. وكان قد تولى الأندلس بعد عزل عذرة بن عبد الله الفهري عدة ولاة لم يقم أحدهم بعبور جبال البرت لاستئناف الفتح، وهم يحيى بن سلمة الكلبي، وحذيفة بن الأحوص الأشجعي وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي، والهيثم بن عبيد

(29) فجر الأندلس، ص258 ـ 259.

الكناني، ومحمد بن عبد الله الأشجعي، ولم تتجاوز مدة حكم كل من هؤلاء ـ باستثناء يحيى بن سلمة الذي حكم أكثر من سنتين ـ عدة شهور(30).

الفتوح في عهد عبد الرحمن الغافقي:

كان عبد الرحمن الغافقي من العرب البلديين، أي الذين دخلوا الأندلس مع حملتي طارق وموسى واستقروا فيها، وهو من القادة الأكفاء الذين ساهموا في حملات الفتح في جنوب فرنسا، وقاد المسلمين بسلام إلى الأندلس بعد استشهاد السمح بن مالك في معركة طولوشة. ويبدو من إجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان نزيهاً مؤمناً سليم الإيمان حريصاً على تطبيق الشريعة فيما يخص توزيع الغنائم على الجنود(31). وكان عبد الرحمن يعد من التابعين، ومن رواة الحديث النبوي الشريف، فقد ورد في ترجمته أنه روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب(32)، ولهذا كان محل احترام صلحاء المسلمين، فضلاً عن جنده، لعدالته في تقسيم الغنائم، وعدم رغبته في حطام الدنيا. ومما يؤسف له أننا لا نجد معلومات مفصلة عن عبد الرحمن وعهده في المصادر العربية وكل ما هناك أخبار مقتضبة عن حملته على جنوب فرنسا، ولعل السبب في ذلك يعود إلى الهزيمة التي حلت بالمسلمين في معركة بلاط الشهداء، فاكتفت المصادر العربية بالإشارات الموجزة العابرة عن هذا القائد والمعركة الأليمة التي خسرها المسلمون. ومن جهة أخرى تسهب المصادر اللاتينية في

(30) ابن القوطية، ص13؛ أخبار مجموعة، ص24 ـ 25؛ ابن عذاري، جـ2 ص27 ـ 28، 49.

(31) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، نشر: شارلس توري، نيوهيفن، 1922، ص216 ـ 217، الحميدي، جذوة المقتبس، القاهرة، 1966، ص274، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1965 ـ 1966، جـ5 ص174 ـ 175.

(32) الحميدي، ص274، الضبي، بغية الملتمس، نشر: فرانسسكو كوديرا، مدريد، 1884.

الحديث عنه وعن الحملة التي قادها إلى فرنسا. كما تشير أيضاً إلى توتر العلاقات بين عبد الرحمن الغافقي والقائد البربري المسلم منوسة، الذي كان يحكم في منطقة شرطانية في الشمال، فقد أعلن هذا الأخير التمرد على السلطة بعد ازدياد التوتر بين العرب والبربر في كل من شمال أفريقيا والأندلس. وتزعم المصادر اللاتينية أن منوسة عقد الصلح مع الفرنجة ووثق علاقته معهم دون استشارة الوالي في قرطبة ولهذا فبعد سماع الغافقي بالموقف المعادي لمنوسة وبالعلاقات القائمة بينه وبين الدوق أودو، دوق أكيتانية، أرسل حملة عسكرية نجحت في القضاء على التمرد وقتلت منوسة[33].

وبعد أن نظم عبد الرحمن الغافقي البلاد، وقضى على الاضطرابات الداخلية تهيأ لمجابهة تحدي الفرنجة وتهديدهم للحكم العربي الإسلامي في غالة القوطية. ويبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان يختلف عمن سلفه من الولاة، فهو من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر، فمن جملة الأسباب التي دعته إلى استئناف الحملات على فرنسا هو العمل على تأسيس وتثبيت موطىء قدم للمسلمين عبر جبال البرت، وتقوية قاعدة أربونة الإسلامية ومن المحتمل أنه كان ينوي إسكان بعض البربر من منطقة الشمال الغربي من إسبانيا في المناطق المفتوحة في جنوب فرنسا ويدل على هذا ما جاء في إحدى الحوليات المسيحية من أن المسلمين الذين عبروا إلى فرنسا كانوا بأعداد كبيرة، وقد اصطحبوا

(33) The Chronicle of 754, PP.155 - 156 (no.58); cf. Reinaud, Op. Cit., PP.272 - 273; R. Abadal, Op. Cit., P.29. (وانظر: الترجمة العربية. تاريخ غزوات العرب، ص88 - 89).

نساءهم وأطفالهم وممتلكاتهم المنقولة، مما يدل على أنهم كانوا ذاهبين للاستقرار هناك[34].

اتخذ عبد الرحمن من مدينة بنبلونة قاعدة لتجميع الجند المتوجهين للجهاد إلى جنوب فرنسا. ثم عبر جبال البرت من ممرات رونشفالة Roncesvalles أي إنه لم يسلك الطريق المحاذي للبحر الذي يؤدي إلى سبتمانية، بل سلك طريقاً في وسط الجبال يفضي مباشرة إلى قلب دوقية أكيتانية ولكنه قبل أن يهاجم هذه الدوقية توجه مع فرقة من جنده نحو وادي رودنة لإعادة فتح مدينة آرل Arles التي شقت عصا الطاعة وتوقفت عن دفع الجزية فاسترجعها بعد معركة عنيفة[35]. ويظن بعض المؤرخين الإفرنج أن حملة الغافقي على مدينة أرل لم تكن سوى خدعة قصد بها صرف نظر الفرنجة عن وجهة الحملة الحقيقية، وهي دوقية أكيتانية في الجهة الشمالية[36]. فلما سقطت هذه المدينة توجهت جيوش عبد الرحمن مباشرة نحو بوردو عاصمة دوقية أكيتانية التي قاومت مقاومة واهية، فحاول المسلمون فتحها عنوة. وقد حاول الدوق أودو أن يمنع تقدم عبد الرحمن وتوغله في أراضيه فاشتبك معه في معركة حاسمة بالقرب من التقاء نهري الدوردوني Dordongne والجارون Garonne مما أدى إلى انهزامه هزيمة قاصمة، انسحب على أثرها نحو الشمال فدخل المسلمون عاصمته وغنموا فيها غنائم هائلة وعاقبوا كل من قاومهم من أهلها[37]. ثم تقدموا نحو اللوار يفتحون كل ما وقع تحت أيديهم من المناطق التي تؤدي إلى مدينة تور Tours.

(34) (ملحق أخبار مجموعة رقم 6). Paul the Deacon, book 6, P.1, 7.

(35) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة 1969، جـ1، ص90، فجر الأندلس، ص265.

(36) تاريخ غزوات العرب، نقلاً عن رينو، ص99.

(37) سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص142.

The Chronicle of, 754, P.156 (n° 59).

وعندما أدرك الدوق أودو استحالة صد الجيوش الإسلامية الفاتحة، اضطر إلى الاستنجاد بشارل مارتل حاجب ملك الدولة الميروفنجية، وطلب مصالحته لصد المسلمين، خاصة وأن هدف هؤلاء التالي كان الوصول إلى أراضي دولة الفرنجة ذاتها وقد أدرك شارل مارتل الخطر، فاستجاب إلى التماس أودو، وشرع في جمع الجند والفرسان من كل صوب وبعث يستقدم الرجال من حدود الراين، فجاءه هؤلاء وكانوا من المحاربين الشماليين الأشداء الذين لا يقلون عن العرب والبربر شجاعة وقوة وصبراً في الحروب. وبهذا اجتمع للفرنجة جيش قوي قادر على الثبات أمام الجيوش العربية الإسلامية(38).

كان المسلمون يتهيأون للاستيلاء على مدينة تور عندما سمعوا بوصول شارل مارتل وجنده. وقد التقى الجيشان في رمضان 114هـ/ تشرين الأول 732م وجرت بينهما مناوشات عديدة لمدة سبعة أيام. ثم تحول القتال إلى صدام مروّع رجحت كفة المسلمين في بدايته، لكنهم عجزوا عن اختراق صفوف الفرنجة وحلفائهم من الألمان والسّكسون والسويف. يضاف إلى ذلك، أن الفرنجة هاجموا مؤخرة الجيش الإسلامي، مما أدى إلى الإخلال بنظام الجيش. وعندما حاول عبد الرحمن التدخل بشجاعة فائقة لإعادة النظام إلى صفوف جيشه أصابه سهم من جهة العدو، فخرَّ شهيداً في المعركة. وقد زاد هذا من إرباك المسلمين لكنهم استمروا في القتال وخلصوا مخيمهم في مؤخرة الجيش من أيدي الأعداء، إلى أن أقبل الليل فحجز بين الفريقين. ثم تشاور كبار قادة المسلمين وتوصلوا إلى قرار بالانسحاب من موقع المعركة فانتهزوا فرصة الظلام وتسللوا نحو الجنوب تاركين خيامهم وغنائمهم التي لم يتمكنوا من حملها معهم

(38) The Chronicle of 754, P.156 (n° 59).

وتوجهوا نحو قاعدة المسلمين في سبتمانية وهي أربونة[39]. وعندما لاحظ الفرنجة في صباح اليوم التالي خلو معسكر المسلمين، ظنوا أن في الأمر مكيدة وتريثوا في دخوله. وبعد أن تبين لهم رحيل المسلمين لم يلاحقوهم إما خوفاً من أن يكون انسحابهم شركاً أو أن شارل مارتل اعتقد أنه قد أمن بعد هذه الموقعة على مملكته وأصبح لا يخشى عليها من عودة المسلمين فرجع إلى الشمال مفتخراً بما أحرزه من نصر باهر[40].

وهناك خلاف في المكان الذي حدثت فيه هذه الموقعة الفاصلة فبالإضافة إلى ما ذكرنا آنفاً من أنها وقعت بالقرب من مدينة تور، هناك من يرى أنها جرت في ضواحي مدينة بواتية Poitiers[41]. ويحتمل أن المعركة وقعت كما يرى أحد المستشرقين الفرنسيين بالقرب من طريق روماني يربط بين شاتلور Chatellerault وبواتية، على بعد نحو عشرين كيلو متراً من المدينة الأخيرة، ربما بالقرب من مكان يدعى في الوقت الحاضر موسيه لاباتاي Moussais La Bataille[42].

ويذكر المؤرخون العرب أن المعركة حدثت بالقرب من مكان يُدعى بلاط الشهداء، مما يفهم منه أن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة[43].

---

(39) Ibid., PP.156 - 57; See also: Chronicle of Moissac, P.166; Reinaud, Op. Cit., PP.397 - 404.

(وانظر: الترجمة العربية: تاريخ غزوات العرب من 101 ـ 102).

E. Creasy, Fifteen Decisive Battle of the world, London 1862, PP.239 - 254;

فجر الأندلس، ص271، 274.

(40) تاريخ غزوات العرب، ص102.

(41) Chronicle of Moissac, P. 166.

(42) Levi - Provincal, Op. Cit., vol. I. P.62.

(43) أخبار مجموعة، ص25؛ فتح الأندلس، ص28؛ وانظر: فجر الأندلس ص271 هامش رقم (1).

وقبل الانتهاء من الحديث عن هذه الموقعة لا بد من الإشارة إلى العوامل التي أدت إلى خسارة المسلمين وتحليل هذه العوامل بشكل علمي دقيق. فلا يخفى أن الجيش العربي الإسلامي توغل مسافات شاسعة في أرض الأعداء، وبعد بذلك عن قلب الدولة الإسلامية. ولم يكن بمقدور الجيش أن يحصل على إمدادات من مركز الخلافة أو حتى من قرطبة مركز ولاية الأندلس، لبعد المسافة، ولتفرق عرب الأندلس في نواحيها المختلفة نتيجة لاستقرارهم هناك. أما القواعد التي أقامها المسلمون خلف جبال البرت، كأربونة مثلاً، فلم تكن في وضع يسمح لها بإرسال الإمدادات لحاجتها إليها في الدفاع عن نفسها ويقابل هذا العامل من الناحية الثانية، تكتل الإمارات في غالة واستماتتها في الدفاع والوقوف أمام المسلمين هذا فضلاً عن معرفة الإفرنج للمواقع وطبيعتها ودروبها، وتعوّدهم على القتال في جوها المطير الشاتي وأراضيها الموحلة وتلالها الوعرة. يضاف إلى ذلك فقد كان من السهل عليهم الحصول على الإمدادات من كل نوع وهذه أمور أساسية حرم منها جيش عبد الرحمن الغافقي بعد توغله العميق في فرنسا[44].

أما ما يقال عن الخلاف بين صفوف الجيش والنزاع بين عناصره المؤلفة من العرب والبربر، فلا يتوفر لدينا ما يشير إليه من قريب أو بعيد، اللهم إلا في الروايات اللاتينية التي تبني حول قصة منوسة كثيراً من الأحداث الملفوفة بالأساطير. ولكن المتمعن في تكوين عناصر الجيش الذي قاده عبد الرحمن الغافقي يلاحظ بأنه كان يتألف من أغلبية من البربر الذين كانوا مستقرين في منطقتي الأشتوريش وجبال البرت وبالإمكان

(44) انظر: علي المياح، «العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا» مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، بغداد، 1969، م5، ص129، عبد الرحمن الحجي، المرجع السابق، ص196.

التوصل إلى هذا الاستنتاج من حقيقة اتخاذ الغافقي لمدينة بنبلونة مركزاً لتجميع جنده. وكان هناك أيضاً العديد من العرب في هذا الجيش وبشكل خاص القبائل اليمنية في منطقة سرقسطة والثغر الأعلى. ولكن البربر شكلوا الأغلبية وكانوا، كما أسلفنا برفقة أسرهم. وقد أرهق هذا الموقف الجيش وقلل من قابليته على المناورة. ولم يكن باستطاعة الغافقي الذي كان على علم بهذا الموقف، أن يقوم بعمل شيء بسبب رغبة رجاله الشديدة لحماية أسرهم وهذه الحقيقة بالذات كانت هي السبب في ضعف موقف المسلمين، وليس تلهفهم على الغنائم، كما تحاول أن تصور ذلك بعض الروايات اللاتينية(45).

وقد أدرك الفرنجة نقطة الضعف هذه في جيش المسلمين. ولهذا ففي أثناء الموقعة الفاصلة هاجمت كتيبة من جيش الفرنجة ـ ربما كانت بقيادة دوق أكيتانية ـ مؤخرة مخيم المسلمين الذي كان يضم نساءهم وأطفالهم(46). وما أن سمع المسلمون بهذا حتى ترك الكثير منهم مواقعه وذهب ليدافع عن أهله وأولاده. وكان هذا بداية لاختلال النظام في صفوفهم وعاملاً رئيساً لهزيمتهم في المعركة(47).

حركة الفتوح بعد معركة بلاط الشهداء:

تعد موقعة بلاط الشهداء من المواقع الحاسمة في التاريخ، لأنها وضعت حداً للفتوح الإسلامية خلف جبال البرت. ويعلق المؤرخون الأوروبيون أهمية كبيرة عليها، فيقولون لو أن العرب انتصروا في هذه

---

(45) (تاريخ غزوات العرب، ص100 ـ 101). See: Reinaud, Op. Cit., PP. 440 - 401.

(46) المرجع نفسه، ص101.

(47) عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، دار الرشيد للنشر، ميلانو، 1982، ص347، وقارن: فجر الأندلس، ص269 ـ 270، سالم، المرجع السابق، ص143، الحجي، المرجع السابق، ص197 ـ 198.

المعركة لأصاب أوروبا مثلما أصاب إسبانيا، ولكان القرآن يدرس في جامعات باريس وكمبردج وأوكسفورد. وهناك من لا يعلق أهمية على هذه الموقعة، ويرى بأن الامتداد الطبيعي للفتح العربي في إسبانيا هو جبال البرت أما ما قاموا به من عمليات عسكرية وراء هذه الجبال، فلم تكن سوى توغل بدافع الحماس الديني والجهاد في سبيل نشر مبادىء الإسلام، دون أن يعملوا حساباً للتقهقر أو الانسحاب(48). وعلى أي حال فإن حركة الفتوح الإسلامية لم تتوقف بعد موقعة بلاط الشهداء. فقد قام الوالي الذي عيِّن بعد استشهاد عبد الرحمن الغافقي وهو عبد الملك بن قطن الفهري (رمضان 114 ـ شوال 116هـ/ تشرين الأول 732 ـ تشرين الثاني 734م) في ولايته الأولى، بالتوجه إلى شمال إسبانيا وهناك قضى على تمرد سكان كل من قطالونية Catolonia وأراغون Aragon، ونافار Navarre والباسك، الذين استغلوا فرصة اندحار المسلمين في جنوب فرنسا فتمردوا على حكومة قرطبة(49). ثم توجه مباشرة كما تذكر بعض الروايات اللاتينية عبر جبال البرت إلى لانْجُدُوك Languedoc في فرنسا حيث قام بتحصين المدن التي كانت بأيدي المسلمين(50).

ولكن نشاط حركة الفتوح في جنوب فرنسا ازداد بشكل ملحوظ في ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (شوال 116 ـ صفر 123هـ/ تشرين الثاني 734 ـ كانون الثاني 741م) الذي أعقب عبد الملك بن قطن في ولاية الأندلس وتتفق كل من المصادر العربية اللاتينية على أن عقبة كان من أحد

---

(48) انظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأندلس والمغرب الإسكندرية، بدون تاريخ، ص88 ـ 89؛ الحجي، المرجع السابق ص199، 202 ـ 203.

(49) ابن الأثير، جـ5، ص181؛ المقري جـ1، ص 236، جـ3، ص19.

(50) (تاريخ غزوات العرب ص104؛ Reinaud, Op. Cit., P.405، فجر الأندلس، ص 276؛ سالم المرجع السابق، ص146.

كبار القادة المسلمين الذين قادوا الحملات في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا. ففي إسبانيا، كما أسلفنا، أخضع معظم المناطق القلقة في الشمال والشمال الغربي مثل بنبلونة وجيليقية والأشتوريش، حيث هاجم بلاي وأتباعه. ثم استأنف الفتوح الإسلامية فيما وراء جبال البرت. ونتيجة لنشاط عقبة أصبحت أربونة من أهم القواعد الإسلامية في جنوب فرنسا. وفي ولايته قام العرب المستقرين في لانجدوك بتحصين كل المواقع التي كانت تدعى الرُّبُط، جمع رباط، حتى ضفاف نهر الرون Rhone[51]. ومع هذا، فإن زمام المبادرة في هذا المجال لم يكن لعقبة، بل لعامله على أربونة، يوسف بن عبد الرحمن الفهري، الذي سيصبح فيما بعد الوالي الأخير للأندلس. فقد تحالف مع بعض الحكام والأمراء في سبتمانية وبروفانس. وقد فضل هؤلاء الذين كانوا يخشون كلاًّ من شارل مارتل ودوق أكيتانية، مساعدة المسلمين للسيطرة على ولاياتهم ووضعها تحت الحماية الإسلامية، وكان من ضمن هؤلاء الزعماء الدوق ماورنت Mauronte، الذي امتدت سلطته على جميع بروفانس، وكان يلقب بدوق مرسيلية Duke of Marseilles[52].

لقد كان عقبة بن الحجاج متحمساً للأخذ بثار هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء، وتثبيت أقدام الدولة العربية في وراء جبال البرتات، من أجل نشر الإسلام والجهاد في سبيله. وتشير المصادر العربية إلى رغبة عقبة الشديدة في هداية سكان المناطق المفتوحة إلى اعتناق الإسلام. فتروي هذه المصادر أنه كان من عادته التي لا يتخلى عنها حينما يأسر

---

(51) المقري، جـ3، ص19؛ انظر أيضاً: ابن عذاري جـ 2، ص29؛ (تاريخ غزوات العرب ص 105) Reinaud, Op. Cit., P. 407.

(52) (تاريخ غزوات العرب ص104) Ibid., P. 405.

أسيراً أن يعرض عليه الإسلام وبهذه الطريقة أسلم على يديه خلقٌ كبيرٌ من المسيحيين[53].

ابتدأ عقبة نشاطه في الفتوح بأن اتخذ مدينة سرقسطة، في الشمال الشرقي قاعدة عسكرية له حيث نظم قواته هناك[54] ويحتمل أنه بدأ من هذا المكان بمساعدة عامله على أربونة وإمداده بالجنود. وفي سنة 117هـ/735م عبر الأخير نهر الرون ودخل المناطق التابعة لمدينة أرل، ثم توغل بعد ذلك في قلب ولاية بروفانس، وافتتح مدينة فرتا Fertta التي تدعى الآن سان ريمي St. Remi ومن ثم ذهب إلى أفنيون وافتتحها على الرغم من المقاومة المستميتة التي أبدتها حامية المدينة. وهكذا وقع القسم الأكبر من بروفانس تحت ظل الحكم العربي الإسلامي الذي استمر نحو أربع سنوات[55]. وفي هذه الفترة قامت جيوش الأندلس، ربما بقيادة عقبة نفسه، بمهاجمة العديد من الأماكن الأخرى مثل دوفينية Dauphine وسان بول تروا St. Paul Trois Chateaux، ودونزير Donzere. ثم هاجموا ولايات شارل مارتل، وهكذا أدركوا ثأر المسلمين في معركة بلاط الشهداء. وأعادت هذه الجيوش أيضاً فتح مدينة ليون، ودخلت برغندي، وتمكنت من التوغل والوصول إلى جبال دوفينية وبيدمونت Piedmont في إيطاليا[56]. ولكن شارل مارتل الذي ذعر نتيجة لهذه الانتصارات، بادر بالعمل فوراً على مقاومة المسلمين وتمكن بمساعدة أخيه شِلدُبرانْد Childe brand من أن يعيد احتلال الكثير من الأماكن الحصينة مثل أفنيون،

(53) ابن عذاري، جـ2، ص29، المقري جـ3، ص19.

(54) The Chronicle of 754, P.157 (n° 61).

(55) The Chronicle of Moissac, P.166; Reinaud, Op. Cit., PP. 406 - 407. (تاريخ غزوات العرب، ص104 ـ 105).

(56) (تاريخ غزوات العرب، ص105 ـ 106) Ibid., PP.407 - 408.

ثم تقدم بعد ذلك إلى أربونة التي انقطعت عنها الاتصالات بالأندلس بسبب المقاومة الإسبانية في جبال البرت وقد أرسل عقبة، الذي عاد إلى قرطبة، حملة لنجدة أربونة، كانت كما تذكر الحوليات اللاتينية، بقيادة رجل يدعى عمر. ولم تنجح هذه الحملة التي جاءت إلى أربونة عن طريق البحر في إنقاذ المدينة لأن شارل مارتل تمكن من دحرها بعد فترة وجيزة من نزولها على الشاطىء إلى الجنوب من أربونة(57). وعلى الرغم من ذلك لم يتمكن شارل مارتل من احتلال أربونة التي ظلت قاعدة إسلامية في جنوب فرنسا إلى عهد عبد الرحمن الأول مؤسس الإمارة الأموية.

الخاتمة

وهكذا نرى أن هناك عدة عوامل تحكمت في سير عملية التوغل العربي الإسلامي في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا، منها داخلية لها علاقة بالأوضاع العامة في الأندلس، ومدى نجاح الولاة في تحقيق التوازن بين مختلف العناصر في البلاد. فكلما كان الوضع الداخلي مستقراً، كان ذلك مشجعاً على قيام الولاة بحملات جديدة عبر جبال البرتات. ولهذا فإن الموجات الكبرى سارت جنباً إلى جنب مع وجود الولاة الذين توفر لهم الوقت الكافي للعمل، مثل السمح بن مالك الخولاني، وعنبسة بن سحيم الكلبي، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وعقبة بن الحجاج السلولي.

أما العوامل الخارجية، فتتعلق بمدى وحدة أو تفكك القوى المعادية، فكان يسهل على العرب تحقيق الانتصارات حينما يواجهون

(57) The Chronicle of Moissac, P.166; Paul the Deacon, book 6, P. 167; Reinaud, Op. Cit., PP. 404 - 409.

(الترجمة العربية: غزوات العرب، ص106 وانظر أيضاً الصفحات التي بعدها)؛ فجر الأندلس، ص281 ـ 283؛ سالم، المرجع السابق، ص147 ـ 148.

أعداءهم على انفراد، بينما يلاقون صعوبة في التقدم، ويضطرون إلى الارتداد، حينما يواجهون تحالفاً مضاداً، كما حصل في معركة بلاط الشهداء على سبيل المثال.

ويجب ألاّ ننسى دور العامل الجغرافي في التأثير على الجهد العسكري العربي في جنوب فرنسا، فلم يكن العرب متعودين على القتال الطويل في الأجواء المطيرة الشاتية، والأراضي الوعرة الموحلة، لا سيما إذا كانت مراكز القتال تبعد عن قواعدهم التي خرجوا منها مئات الأميال. ولهذا فقد تأثّر العرب بهذا العامل، الذي لم يكن يعيق أهل البلاد المتعودين على تلك الأجواء، والذين كانوا يقاتلون على أرض يعرفونها، ولا تبعد مراكز التموين عنهم إلا مسافات قليلة. فلا عجب والحالة هذه أن يتفوقوا على المدى الطويل في الصراع مع العرب.

التنظيم الاجتماعي

في الأندلس في عصر الولاة

95 ـ 138هـ/ 714 ـ 756م

ألقي هذا البحث في ندوة النظم الإسلامية التي عقدت في أبو ظبي،
ونظمت من قبل مكتب التربية العربي لدول الخليج للفترة
من 11 ـ 13 تشرين الثاني 1985 ـ 18 ـ 10 صفر 1405

مقدمة:

يُعد عصر الولاة في الأندلس من العصور الأساسية المهمة في تاريخ الأندلس لأنه يمثل الفترة الأولى التي دخل فيها المسلمون إلى هذه البلاد واستقروا فيها وأسسوا كيانهم السياسي الذي استمر نحو ثمانية قرون. وعلى الرغم من أن هذا العصر لم يستغرق سوى سنوات قليلة لا تتجاوز نصف قرن، لكنه يعد الركيزة الأولى التي قامت عليها مختلف التنظيمات الاجتماعية التي حددت المجتمع الأندلسي وطبعته بطابعها الذي استمر طيلة وجود المسلمين في الأندلس، وأسهم في تطوير الفكر السياسي

والإداري والاقتصادي لهذه البلاد، التي شهدت قيام أرقى حضارة إنسانية في ظل المسلمين.

ابتدأ هذا العصر بمغادرة القائدَين موسى بن نصير وطارق بن زياد للبلاد بعد أن أنهيا فتح معظم مناطق شبه الجزيرة الإيبيرية في عام 95هـ/ 714م، حيث تولّى عبد العزيز بن موسى ولاية البلاد. ثم تعاقب بعده نحو عشرين والياً حكموا باسم الخلافة الأموية في الشام. وكانوا تابعين من الناحية الإدارية إلى ولاية أفريقية التي مركزها في القيروان. وعلى الرغم من تميز هذا العصر بأنه العصر الوحيد الذي شهد نشاط المسلمين العسكري خارج نطاق شبه الجزيرة الإيبيرية أي وراء جبال البرتات أو البرنية، حيث وصل المسلمون إلى مسافة قريبة من مدينة باريس، لكن أحواله السياسية العامة لم تكن هادئة بسبب الاختلافات التي نشبت بين مختلف العناصر التي كان يتألف منها المستقرون الأوائل من المسلمين. وكان هذا الاضطراب السياسي عاملاً مساعداً في نهاية هذا العصر حيث استطاع الأمير الشاب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك أن يستغله. ويوظفه لصالحه، حينما دخل الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية في بلاد الشام. ونجح في إنشاء دولة قوية متماسكة على أنقاض عصر الولاة، وذلك في عام 138هـ/ 756م.

وستكون دراستنا لهذا العصر مقتصرة على التنظيم الاجتماعي. الذي يشمل عناصر السكان وطبيعة تكوينهم، سواء أكانوا من الفاتحين أم من السكان الأصليين للبلاد، وكذلك العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة، التي تشمل مجالات واسعة تمثلت في المصاهرات، والتسامح الديني الذي مارسه المسلمون بشكل واضح جداً في هذه البلاد. وأخيراً سوف نتناول التنظيم الاجتماعي لأهل الذمة في ظل الإسلام في الأندلس.

أولاً: عناصر السكان وطبيعة تكوينهم

تألف السكان في الأندلس في عصر الولاة من العناصر الآتية:

(أ) **المسلمون**، وينقسمون إلى:

العرب، البربر، الموالي، المسالمة، المولّدون.

(ب) **غير المسلمين**، وينقسمون إلى: العجم أو المستعربين من النصارى.

العرب: لم يدخل العرب إلى الأندلس ضمن مجموعة واحدة، بل كان دخولهم إليها في مراحل، فقد رافق قسم منهم الحملة الأولى التي قادها طارق بن زياد في سنة 92هـ/ 711م، وكان عددهم في هذه الحملة قليلاً نسبياً، بينما كوّن البربر غالبية هذه الحملة. ومع هذا فقد تميز ضمن هذه المجموعة قادة عسكريّون عرب مثل عبد الملك بن عامر المعافري، الجد الأعلى للمنصور بن أبي عامر، الذي تولى السيطرة على الجزيرة الخضراء[1].

أما المجموعة الثانية من العرب، فقد دخلت مع القائد موسى بن نصير بعد سنة تقريباً من دخول طارق بن زياد، أي في سنة 93هـ/ 712م. ويقدَّر عدد العرب ضمن هذه المجموعة بحدود ثمانية عشر ألف رجل، معظمهم من القبائل العربية اليمانية، وبقية العشائر العربية الأخرى التي كانت موجودة في شمال أفريقيا، لا سيما في منطقة القيروان[2].

(1) ابن الأبّار، الحلة السيراء (برواية ابن حيان)، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1963: 1/ 275، ابن عذاري، البيان المغرب، نشر: كولن وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، 2/ 256 ـ 257، ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1974: 2/ 102، المقَّري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968، 1/ 369، 399.

(2) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، =

وتكوِّن هذه المجموعة من العرب مع المجموعة الأولى التي دخلت مع طارق كتلة واحدة، أطلقت على نفسها اسم البلديين. أي إنهم أهل البلاد وأصحابها لأنهم يعدّون أنفسهم المالكين الوحيدين للبلاد الذين تحملوا أعباء الفتح، واستقروا في البلاد على امتداد الطريق التي سلكها كل من طارق بن زياد وموسى بن نصير. وهؤلاء بطبيعة الحال هم المستقرون الأوائل من المسلمين(3). وقد أسميناهم بهذا الاسم تمييزاً لهم عن مجموعة أخرى من العرب الذين دخلوا الأندلس في فترة لاحقة، وكان معظمهم يتألف من القبائل العربية التي جاءت من بلاد الشام.

لقد كان هؤلاء القادمون الجدد من الشاميين يمثلون بقايا الجيش الذي أرسل من قبل الخلافة الأموية للقضاء على تمرد البربر في شمال أفريقيا عام 124هـ/ 741م. وقد اضطرتهم الأوضاع العسكرية إلى الالتجاء إلى الأندلس، بعد أن أخفقوا في مواجهة البربر. ووجدت الخلافة الأموية أن استقرار هؤلاء في الأندلس، يعزز من كيان المسلمين فيها، ويزيد من قوتهم العددية في مواجهة الأخطار المحدقة بهم فعملت على تثبيت استقرارهم في عام 125هـ/ 742م. على الرغم من معارضة المستقرين الأوائل الذين لم يرغبوا بالتنازل عن بعض أراضيهم لصالح القادمين الجدد.

تألف هؤلاء العرب من ثمانية آلاف رجل تقريباً(4)، ينتمون إلى

= 1962، ص430، مجهول المؤلف، أخبار مجموعة، نشر: لافوينتي القنطرة مدريد، 1867 ص15، مجهول المؤلف، فتح الأندلس، نشر: دي خواكين دي كونثاليث، الجزائر، 1889، ص10.

(3) انظر: عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس ميلانو ـ بغداد 1982، ص211.

(4) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، نشر: خوليان رايبيرا مدريد 1926، ص15.

مختلف عشائر اليمن وقيس ومضر وربيعة، وقد استطاع الوالي أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (125 ـ 127هـ/ 742 ـ 744م) أن يحل مشكلة معارضة المستقرين الأوائل في دخول هؤلاء القادمين الجدد واستقرارهم وذلك بأن وزعهم على أراضي أهل الذمة بموجب نظام خاص كان متبعاً في العهدين الروماني والقوطي، حصلوا بموجبه على ثلثي الإقطاعات في بعض كور الأندلس[5]. وقد جرى استقرارهم على غرار تجمعاتهم السابقة في بلاد الشام، فسكن جند دمشق في أَلْبيرة Elvira وجند حمص في إشبيلية Sevilla ونبلة Niebla، وجند قنّسرين في جيان Jaen وجند فلسطين في شذونة Sidonia والجزيرة الخضراء، وجند الأردن في رَيّة Raiyo، وجند مصر في أكشونبه Faro وباجة Beja في جنوب البرتغال الحالية، وقسم منهم في تدمير بمحافظة مرسية الحالية Murcia[6].

وإذا ما استثنينا المستقرّين الأوائل من البلديين، والقادمين الجدد من الشاميين، فإن عدد العرب الذين دخلوا الأندلس بعد الفتح وفي عصر الولاة كان محدوداً جداً. وهكذا فإن العدد الكلي للعرب لم يكن يزيد على ثلاثين ألف رجل، توزعوا في مختلف أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية. وكانت مهمتهم بالدرجة الأولى هي المحافظة على البلاد، والاستعداد للدفاع عنها في حالة الخطر. لا سيما الجند الشامي، الذين كان استقرارهم في الكور المجندة يمثل نوعاً من الاقطاع العسكري، تحت إمرة قادتهم ليكونوا جاهزين للجهاد عند الحاجة[7].

ويلاحظ على تجمع العرب واستقرارهم في الأندلس أن التنظيم

---

(5) الإحاطة: (برواية ابن حيان): 1/ 102 ـ 103.

(6) ابن القوطية، ص20، أخبار مجموعة، ص46، الحلة السيراء، 1/ 61 ـ 63، ابن عذاري، 2/ 33، الإحاطة: 1/ 102 ـ 103.

(7) المصدر نفسه: 1/ 102 ـ 103.

القبليّ كان هو السائد في هذا المجال، حيث استقرت كل قبيلة مع ما يتبعها من عشائر في مناطق خاصة بها، وهذا بطبيعة الحال يعود إلى أن الجيوش التي دخلت الأندلس كانت تتألف في الأصل من مجموعات عديدة من القبائل العربية التي انتظمت في معظم الأحيان تحت قيادة زعمائها، فكان من الطبيعي بعد انتهاء الفتح أن تتجمع وتستقر حسب هذا التنظيم القبلي.

وهكذا أصبحنا نجد في الأندلس أماكن خاصة بكل قبيلة تسمى باسمها مثل جزء البكريين، وجزء اللخميين وجزء خشين، وإقليم همدان، وإقليم بني أسد، وإقليم بني أوس، وإقليم كنانة[8]. وغيرها.

البربر: يكوّن البربر المجموعة الثانية من المسلمين، وقد دخلوا إلى الأندلس في أعداد كبيرة ضمن حملة طارق بن زياد، حيث شكلوا غالبية الحملة التي بلغ عدد رجالها نحو اثني عشر ألف رجل[9].

ومن المرجح أيضاً أن حملة موسى بن نصير ضمت أعداد لا بأس بها من البربر على الرغم من أن المصادر لا تشير إلى ذلك، لأنه من المتعارف عليه طالما كان على رأس الجيش قادة عرب، فإن كل المقاتلين هم أيضاً من أصل عربي وقد دخلت أعداد كبيرة من البربر إلى البلاد بصورة غير منتظمة، لا سيما بعد سماعهم بأنباء انتصار طارق بن زياد على لذريق ملك القوط في موقعة كورة شذونة فاتجهوا إلى عبور مضيق

(8) العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965 ص20، 90، 92، 120، ولزيادة التفاصيل عن موضوع استقرار العرب في الأندلس، راجع: عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، الفصل الرابع ص203 ـ 328.

(9) الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1986 ص74، فتح الأندلس، ص9، ابن عذاري: 2/ 9؛ نفح الطيب: 1/ 230 ـ 231، 254.

جبل طارق Gibraltar بكل ما وقعت عليه أيديهم من مراكب وقوارب وابتدأوا بالاستقرار في الأماكن المفتوحة السهلة التي هجرها السكان المحليون[10]. واستمر تدفّق البربر إلى شبه الجزيرة الإيبيرية من المناطق المكتظة المحيطة بالمضيق، نظراً لسهولة العبور، وحبّا في الالتحاق برفاقهم ومشاركتهم في الفتح والاستفادة من نتائجه، والاستقرار في المناطق التي تلائم طبيعتهم. والواقع أننا لا نملك تقديراً للأعداد التي دخلت الأندلس من هؤلاء البربر ولكن عددهم دون شك كان كبيراً، وربما فاق عدد العرب الداخلين في حملتي طارق وموسى.

أما بالنسبة للأماكن التي استقر فيها البربر، فقد توزعت على طول الطريق التي سلكها كل من طارق وموسى. ولكن البربر تميزوا باختيار أماكن تلائم طبيعتهم، فسكن غالبيتهم في مناطق البلاد الجبلية التي تشابه أماكن سكناهم الأصلية في شمال أفريقيا. وقد استغل بعض الباحثين المغرضين هذه الظاهرة للطعن بالعرب واتهامهم بالاستقرار في الأماكن السهلة الخصبة وحرمان البربر منها ودفعهم إلى المناطق الوعرة الجبلية[11]. ولا يمكن العثور في المصادر على مثل هذا الاستنتاج، بل على العكس نجد أن البربر، مثلهم كمثل العرب، استقرّوا تقريباً في معظم أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية، وأن استقرار كلا الاثنين كان يخضع لعامل الصدفة لا غير، إذ لم تكن لديهم فكرة واضحة في البداية عما ستكون عليه هذه الأماكن، بل إن البربر كانوا في وضع أفضل لاختيار أحسن المناطق، لقربهم من المنطقة واطلاعهم عليها بحكم معيشتهم في شمال

---

(10) نفح الطيب (برواية أحمد الرازي): 1/ 259.

(11) Reinhart Dozy, Spanish Islam, English translation from Histoire des Musulmans d'Espagne by F.G. Stokes, London, 1913, P.139.

أفريقيا، ولأنهم كانوا الطليعة الأولى التي دخلت البلاد[12].

أما التنظيم الاجتماعي لاستقرار البربر في الأندلس، فكان أيضاً يتميز بالتجمع القبلي، حيث كان البربر الداخلين إلى الأندلس ينتمون إلى العديد من قبائل البتر والبرانس التي تتفرع إلى فروع مختلفة مثل مصمودة، وزناتة وهوارة ولماية، ونفزة، ومكناسة، ومطغرة وغيرها[13]. وقد استقر هؤلاء حسب قبائلهم مثل العرب، وأصبحت لهم أماكن خاصة بهم نسبت إليهم، مثل: إقليم زناتة، وجزء مصمودة في كورة بلنسية، وجزء البربر في كورة الجزيرة الخضراء، وإقليم لماية في كورة رية[14].

الموالي: يمكن أن نرجع أصل الموالي في الأندلس إلى أربعة أصول، الأول بيزنطي، وإليه يرجع أصل الموالي الذين اعتنقوا الإسلام في المشرق، ورافقوا الشاميين الذين جاءوا إلى الأندلس بقيادة بلج بن بشر القشيري، مثل أُميّة بن يزيد الذي كان جده مولى لمعاوية بن مروان ابن الحكم[15].

أما الأصل الثاني والثالث للموالي فيرجعان إلى شمال أفريقيا، حيث كان بعضهم من الأفارقة والبعض الآخر من البربر الموالين للعرب الذين

---

(12) انظر: عبد الواحد ذنون طه: استقرار القبائل البربرية في الأندلس، مجلة أوراق، يصدرها المعهد الإسباني العربي للثقافة، العدد 4، مدريد 1981، ص 35 فما بعدها.

(13) عبيد الله بن صالح، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، تحقيق: ليفي بروفنسال صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد 2، 1954 ص 224، ابن عذاري: 1/ 43 ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت 1956 ـ 1961: 6/ 239، 256، 286.

(14) العذري، ص20، 120، الحميري، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشره وترجمه إلى الفرنسية، ليفي بروفنسال، القاهرة ليدن، 1937، ص170.

(15) انظر: ابن القوطية، ص23، الحلة السيراء: 2/ 373، نفح الطيب: 3/ 46.

اعتنقوا الإسلام ورافقوا العرب إلى الأندلس[16].

وقد دخل قسم من هؤلاء مع المستقرين الأوائل، فأُطلق عليهم اسم الموالي البلديين[17]. ومنهم على سبيل المثال البربر الذين سكنوا في المدور Almodovar del Rio حيث كانوا من موالي عشيرة فهر العربية[18]. أما الموالي الذين دخلوا مع الشاميين فأطلق عليهم اسم الموالي الشاميين وكان عددهم نحو ألفي رجل[19]. وبما أن الكثير من هذه المجموعة الثانية كانوا على اتصال وثيق بالأسرة الأموية الحاكمة، فقد عرفوا باسم موالي بني أمية. وقد عاش قسم من هؤلاء في قرطبة Cordoba، حيث كانوا ينتمون إلى بيوتات غنية من البربر[20]. ولكن منطقة تركزهم الكبرى كانت في جندي دمشق وقنسرين، أي منطقتي البيرة وجيان، حيث شكل نحو خمسمائة رجل منهم جزءاً من الجندين التابعين لهاتين المنطقتين. وكان زعيم الموالي في جيان أبو الحجاج يوسف بن بخت، أما في البيرة فقد تولى الزعامة على الموالي كل من أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد[21] وعاش قسم آخر من هؤلاء الموالي في تاكرونا وهي المنطقة الجبلية المحيطة بمدينة رندة Runda التي تبعد نحو مائة كيلومتر عن مالقة Malaga وقد عرف هؤلاء ببني الخليع، وهم موالي يزيد بن عبد

(16) أخبار مجموعة، ص91، نفح الطيب: 3/ 45.

(17) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: محمود علي مكي، بيروت، 1974، ص196 ـ 197، الحلة السيراء: 1/ 201.

(18) أخبار مجموعة، ص42.

(19) ابن القوطية، ص15؛ انظر المقتبس، تحقيق: مكي، ص196 ـ 197، الحلة السيراء: 1/ 201.

(20) أخبار مجموعة، ص66، 70، 71، 82، 86، 87، 91، 92.

(21) المصدر نفسه: ص66 ـ 67، 70، ابن عذاري (برواية أحمد الرازي): 2/ 42، نفح الطيب (برواية ابن عبد الحكم): 3/ 29.

الملك، وكانوا برئاسة رجل يدعى عبد الرحمن أو عبد الأعلى بن عوسجة[22].

أما الأصل الرابع للموالي فيعود إلى أصول محلّية إسبانية، فقد لحق بعض القوط في أثناء الفتح بالشام مثل قصي قومس الثغر الذي أسلم على يد الوليد بن عبد الملك، فأصبح ينتمي بولائه إليه، واستمر أبناؤه في هذا الولاء للأمويين في الأندلس[23]. وهناك موالي آخرون ينتمون إلى هذه المجموعة مثل بني غومس، وبني غرسية وبني مرتين، وبني قارلة وغيرهم.

وكانت حالة هؤلاء الموالي، بأصولهم المتعددة جيدة جداً، حيث تملكوا الأراضي والممتلكات، وكان لهم نفوذ عظيم بين بقية المستقرين في الأندلس. ويرجع السبب في هذا إلى طبيعة الظروف التي مرت على العرب في الأندلس خلال عصر الولاة، وانشغالهم بالنزاع فيما بينهم، مما سمح للموالي بتكوين مركز اجتماعي ممتاز، والتوحد في كتلة واحدة يسعى إلى كسب تأييدها كل الأطراف في الأندلس[24].

المسالمة والمولدين: المسالمة أو الأسالمة هم من الإسبان الذين دخلوا الإسلام بعد الفتح، وقد أطلق على أبنائهم اسم المولدين كما أطلق اسم المولدين أيضاً على الجيل الجديد من الأبناء الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات إسبانيات، وقد كان عدد المسالمة والمولدين قليلاً في أول الأمر إذا ما قيس بأهل الذمة، ولكنه ابتدأ بالزيادة بالتدريج نتيجة لاعتناق أهل البلاد الإسلام وتأثرهم بمبادئه السمحة، فأصبحوا يكوّنون، معظم سكان الأندلس.

---

(22) ابن القوطية، ص25، فتح الأندلس، ص53، 55، ابن عذاري: 2/ 47.

(23) جمهرة أنساب العرب، ص502.

(24) قارن، حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، 1959، ص412.

ويبدو أن الجماعات الأولى من الإسبان التي اعتنقت الإسلام كانت تنتمي إلى الطبقات الفقيرة والمضطهدة، لا سيما العبيد، ورقيق الأرض، فقد كانت أحوال هؤلاء في العهد القوطي على درجة كبيرة من السوء والشقاء بحيث رأوا في الإسلام المنقذ من المتاعب والظروف القاسية التي كانوا يعيشون في ظلها، فدخلوا في الدين الجديد دون تأثير أو إكراه من الفاتحين[25]. وليس معنى هذا أن اعتناق الإسلام اقتصر على هؤلاء فقط بل إن المسالمة الجدد وأبناءهم من المولدين كانوا ينتمون إلى طبقات اجتماعية شتى، منهم النبلاء والزرّاع، وأهل المدن، وأهل الحرف وغيرهم. وقد احتفظت لنا المصادر الأندلسية بأسماء بعض الأسر المولدية الشهيرة، مثل بنو مردنيش وبنو غرسية، وبنو ردلف، وبنو أنجلين، وبنو شبرفة، وبنو الجريج[26].

(ب) غير المسلمين:

1 ـ العجم أو المستعربون من النصارى

كان لفظ العجم، أو عجم الأندلس يطلق على نصارى الإسبان الذين عاشوا مع المسلمين في الأندلس. كما كانوا يسمون أيضاً بعجم الذمة أو أهل الذمة وقد تعلم هؤلاء اللغة العربية، واستخدموها إلى جانب لغتهم الأعجمية الدارجة المعروفة بالرومانسية، وهي لهجة عامية مشتقة من اللغة اللاتينية، وقد تكونت منها اللغة الإسبانية، ولكن هؤلاء العجم احتفظوا بدينهم المسيحي، ولهذا فقد سموا أيضاً بالمستعربين Mozarabes ولكن هذه التسمية لم تظهر في العصر الذي نؤرخ له، إنما ظهرت في

(25) انظر: المرجع السابق، ص430.

(26) ابن حيان، المقتبس، نشر: ملشور أنطونيا، باريس، 1937، ص16، 70، 74، وقارن: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1962، ص128، 129.

عصور متأخرة لاحقة من تاريخ العرب في الأندلس[27]. وقد كان عدد هؤلاء كبيراً في السنوات الأولى التي أعقبت فتح الأندلس ولكن هذا العدد بدأ بالتناقص نتيجة لاعتناقهم الدين الإسلامي. أما الذين بقوا على ديانتهم، فقد عوملوا معاملة جيدة وتمتعوا بالحرية الدينية في إقامة الشعائر وكان لهم في كل مدينة رئيس يعرف بالقومس Comes. أو زعيم نصارى الذمة، وكان أول من تولى هذا المنصب بعد الفتح، هو أرطباس Ardabast ابن ملك القوط السابق غيطشة Witiza[28].

2 ـ اليهود:

لقد كان اليهود يشكلون أحد عناصر السكان في شبه الجزيرة الإيبيرية وكانوا يتركزون بالدرجة الأولى في المراكز الحضرية المتقدمة، مثل طليطلة Toledo وغرناطة Granada واليسانة Lucen وبيانة Baena وعلى طول ساحل البحر المتوسط، لا سيما طركونة Taragona[29]. ولقد عومل اليهود معاملة قاسية جداً، وضُيّق عليهم في العهد القوطي، مما أدى ببعضهم إلى الهجرة إلى شمال أفريقيا وجنوب فرنسا[30]. ولهذا فقد وقف اليهود موقفاً إيجابياً مع الفتح العربي الإسلامي للأندلس واشتركوا مع المسلمين في حماية المدن التي سيطروا عليها بعد الفتح[31].

(27) انظر، مؤنس، المرجع السابق، ص425 فما بعدها.

(28) ابن القوطية، ص38.

(29) انظر: الإحاطة (برواية ابن القوطية): 1/ 101، ابن حيان، المقتبس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، ص149، أخبار مجموعة، ص12 ـ 13، ابن عذاري: 2/ 12.

(30) E. Ashtor, The Jews of Muslim Spair, translated from the Hebrew by Aoron Klein and Jenny Machlowits Klein, Philadelphia, 1973, Vol. I. PP.II ff.
Ashtor, Op. Cit., Vol. I PP. 30 - 31.

(31) أخبار مجموعة، ص13 ـ 14، فتح الأندلس، ص8، ابن عذاري: 2/ 9، 10، 12، نفح الطيب (برواية أحمد الرازي): 1/ 261 ـ 264.

ولقي اليهود بعد ذلك معاملة جيدة جداً وتسامحاً كبيراً من قبل المسلمين، سواء في عصر الولاة أو في العصور الأخرى اللاحقة حتى سقوط الخلافة الأموية في الأندلس في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

ثانياً: العلاقات الاجتماعية بين عناصر السكان المختلفة

رأينا كيف أن المجتمع الأندلسي كان يتألف من عناصر متعددة، وبطبيعة الحال، اختلفت هذه العناصر اختلافاً كبيراً في مواقفها واتجاهاتها إزاء مختلف القضايا التي تواجه مجتمعاً كبيراً مثل المجتمع الأندلسي بسبب تباين الأصول التي انحدرت منها. فالعرب على سبيل المثال كانوا ينتمون إلى قبائل متعددة. وقد أرجع بعض الباحثين، كثيراً من أسباب الصراع، التي حدثت بينهم إلى عوامل تتعلق بأصولهم القبلية، أي مشكلة الصراع بين القيسية واليمنية(32). ولكن هذا السبب لا يقدم تفسيراً مقنعاً للأحداث، فالعصبية القبلية لم تكن بالتأكيد السبب الرئيسي في الصراع بين العرب في الأندلس، لأننا نرى بأن المستقرين الأوائل على الرغم من اختلاف أصولهم العشائرية شكلوا جبهة واحدة أمام القادمين الجدد من أهل الشام، ورفضوا قبولهم في أراضيهم، مما يدل على أن المصالح والامتيازات التي حصلوا عليها هي التي سببت الخلاف. وحتى أهل الشام، أي المستقرّون الذين وزعوا على كور الأندلس المجندة أيضاً انقسموا على أنفسهم، حينما كان الأمر يتعلق بالصراع على السلطة والنفوذ، بغض النظر عن أصولهم العشائرية.

أما البربر، فقد كان لهم موقف خاص، فالموالين منهم للعرب كانوا يؤيدون القبائل التي يوالونها، ويقفون معها ضد مناوئيها، وذلك لأن

---

(32) انظر رأي رينهارت دوزي Spanish Islam, PP. 119, 121, 126, 166, 149.

مصالح الاثنين كانت مشتركة. ونجد في أحيان كثيرة أن مجموعات بربرية معيَّنة تقف ضد مجموعات بربرية أخرى، لأنها كانت تلتزم بتأييد حلفائها من العرب(33).

ولكن بصورة عامة كان البربر يشكلون كتلة مستقلة تشعر أن لها مصالحها الخاصة بها. ويبدو أن بعض ولاة الأندلس لم يكونوا يحسنون معاملة البربر، مما أدى بهؤلاء إلى التمرد، لا سيما بعد أن تمرد إخوانهم في شمال أفريقيا على السلطة الأموية التي يمثلها والي أفريقية في القيروان. وقد اضطر عبد الملك بن قطن الفهري، والي الأندلس، أن يستعين بالجند الشامي بقيادة بلج بن بشر القشيري للقضاء على تمرد البربر في الأندلس. وقد خلقت هذه الظروف هوة كبيرة بين العرب والبربر، أثرت على علاقاتهم التي اتسمت بانعدام الثقة والحذر(34).

أما الموالي فقد تميزوا بمكانة جيدة في المجتمع، وكان لهم نفوذ وهيبة بين بقية السكان سواء العرب أو أهل البلاد. وقد تمتعوا بمنزلة اجتماعية كبيرة. فخالطوا كبار القادة من الشاميين والبلديين، فضلاً عن السكان المحليين، وأفراد الأسرة القوطية، التي كانت تحكم الأندلس سابقاً.

وقد تميز موالي بني أُميّة بشكل خاص عن بقية الموالي، وأصبحوا يشكلون كتلة متماسكة في الأندلس. وكانوا على الرغم من أنهم يضمون قبائل كاملة من البربر، مثل بني الخليع وبني وانسوس، يعتبرون في مركز اجتماعي ومعنوي لا يقل عن مركز العرب. وكان أهل البلاد يعاملونهم على هذا الأساس، فعلى سبيل المثال نجد أن أرطباس بن غيطشة ملك

(33) انظر: أخبار مجموعة: ص42، 43، 88، ابن عذاري: 2/ 55، فتح الأندلس 66.

(34) المصدر نفسه، ص40، فتح الأندلس، ص31 ـ 32، ابن عذاري: 2/ 31.

القوط السابق يهدي الزعيم العربي الصّميل بن حاتم الكلابي، وبعض سادة الموالي الشاميين عشر ضياع لكل منهم ويصفهم بالملوك ويعاملهم كأنداد للصميل بن حاتم وبقية القادة العرب، ومن هؤلاء: أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، ويوسف بن بخت[35].

وكان بعض ولاة الأندلس، لا سيما يوسف بن عبد الرحمن الفهري يعد هؤلاء الموالي من أتباعه ويسميهم بـ «موالينا» ويتودد إليهم[36]. وكان بقية الزعماء الآخرين من العرب على اتصال وثيق بهم أيضاً ويحاولون كسبهم إلى جانبهم، وأبرز مثال على هؤلاء الصميل بن حاتم الكلابي، الذي كان موضع ثقة الموالي حيث يستشيرونه في قضاياهم المهمة[37]. من هذا نلاحظ أن الفترة الأخيرة من عصر الولاة كانت فترة حاسمة في تاريخ هؤلاء الموالي وعلاقاتهم مع العرب، حيث بلغوا أرفع المنازل، كما كانوا في الوقت نفسه كتلة كبيرة متماسكة يحسب حسابها في تطورات الأحداث في شبه الجزيرة الإيبيرية. وقد أدرك عبد الرحمن بن معاوية هذا الأمر، فراسل من ملجئه في شمال أفريقيا هؤلاء الموالي، فأيدوا قضيته ونصروه لما توقّعوه من مكاسب، وزيادة في رفع الشأن بانتصار النظام الجديد[38].

وبالنسبة للعلاقات التي سادت بين المسلمين وأهل البلاد يمكن القول بأنها كانت علاقات جيدة جداً، لأن العرب والبربر حينما نزلوا إلى البلاد لم يقصدوا أن يعيشوا سادة مترفعين، بل استقروا مع أهل البلاد

---

(35) ابن القوطية، ص38 ـ 40.

(36) المصدر نفسه، ص21.

(37) أخبار مجموعة، ص62، ابن عذاري: 2/ 42 ـ 43، نفح الطيب (برواية ابن عبد الحكم) 3/ 30.

(38) المصدر نفسه: 3/ 30.

وعاشوا في سلام، دون أن يتدخلوا في حياتهم وطريقة معيشتهم، أو أن يغيروا في دينهم. ونلاحظ أن المسلمين اختلطوا مع أهل البلاد اختلاطاً كبيراً، لا سيما وأنهم جاءوا إلى الأندلس دون نساء، فاضطروا إلى الزواج من أهل البلاد وهكذا امتزجت دماء الفاتحين بدماء أهل البلاد، ونتج عن هذا جيل جديد هجين عُرف - كما أسلفنا - بالمولدين.

وكان أول من اتبع هذا الطريق، أي مصاهرة أهل البلاد، هو والي الأندلس الأول عبد العزيز بن موسى بن نصير، حيث تزوّج من أرملة لذريق ملك القوط التي كانت تدعى إيخلونا Egilona وأعقبه القادة العرب، ومنهم زياد بن النابغة التميمي، الذي تزوج هو الآخر من أميرة إسبانية[39]. وعيسى بن مزاحم الذي تزوج من سارة القوطية بنت المند بن غيطشة، الذي ينتسب إليها المؤرخ المسلم المعروف بابن القوطية[40].

ومن القادة البربر الذين تزوجوا من نساء أهل البلاد مُنُوسة Munuza حاكم منطقة شرطانية، حيث تزوج من ابنة الدوق أودو Eudo دوق أكيتانيا Acquitaine جنوب فرنسا، حيث كان على علاقات طيبة مع هذا الدوق في ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي[41].

هذه أمثلة عن بعض القادة البارزين من العرب والبربر، ولا شك فإن غالبية المسلمين في الأندلس قد حذوا حذوهم، وارتبطوا بعلاقات مصاهرة مع أهل البلاد. وقد أدى هذا بالتأكيد إلى زيادة انتشار الإسلام

(39) أخبار مجموعة، ص20، فتح الأندلس، ص21.

(40) أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز، المعروف بابن القوطية، ص6.

(41) Isidoro Pacense, or The Chronicle of 754 (ملحق رقم 2 لكتاب أخبار مجموعة، ص146 ـ 162).

فجر الأندلس، ص251 محمد عبد الله عنان، دولة الاسلام في الأندلس، القاهرة، 1969، ص87.

في الأندلس. فلم يكد عصر الولاة يأتي على نهايته حتى كانت الأندلس بلداً إسلامياً، استبحر فيه الدين، واستقرت قواعده، وتلك ظاهرة فريدة في بابها، كما يشير إلى ذلك الدكتور حسين مؤنس، لأن الفتح الإسلامي للأندلس لم يكن قد مر عليه نصف قرن[42].

وقد احترم المسلمون عهودهم مع أهل البلاد، لا سيما معاهدات الصلح التي عقدت مع بعض مناطق شبه الجزيرة الإيبيرية مثل منطقة مرسية في جنوب شرق إسبانيا وماردة Merida في الغرب. وكانت معاهدة الصلح التي عقدها عبد العزيز بن موسى مع تدمير Theodemir، من المعاهدات المتساهلة جداً التي تضمنت شروطاً مناسبة للصلح، وكانت تهدف منذ البداية إلى خلق نوع من التعاون مع أهل البلاد في إدارتها بعد الفتح، فقد اعترف العرب بالدوق تدمير حاكماً على سبعة مدن تقع ضمن منطقته، كما احتفظ بإدارته الداخلية لهذه المدن، مقابل دفع جزية سنوية قدرها دينار واحد مع كميات معلومة من المحاصيل العينية، لكل فرد من رعيته. وتعهد المسلمون بألا يقتلوا أو يَسبوا أو يجردوا أحداً من أهل البلاد من ممتلكاتهم، أو أن يفرقوا بين أولادهم ونسائهم، وأن يسمحوا لهم بممارسة شعائر دينهم كما تعهدوا أيضاً باحترام كنائسهم وعدم حرقها[43].

إن بنود هذه المعاهدة التي احترمها المسلمون تحدد بشكل واضح طبيعة العلاقات التي سادت بين الفريقين. وعلى الرغم من أننا لا نملك نصوصاً أخرى مشابهة لمثل هذه المعاهدة، إلا أنه من المرجح بأن المسلمين قد ساروا على نفس السياسة في مناطق إسبانيا الأخرى.

(42) قارن: فجر الأندلس، ص424.

(43) العذري، ص4 ـ 5، الحميري، ص62 ـ 63، 151 ـ 152.

فحينما أراد المسلمون أن يتخذوا مسجداً في إشبيلية، لم يحوِّلوا إحدى كنائسها الكثيرة إلى مسجد، بل اختار الوالي عبد العزيز بن موسى جزءاً قريباً من باب كنيسة ربينة أو رفينة Santa Ruffina وابتنى عليه مسجداً، وذلك لقربه من القصر الذي يسكن فيه، وظلت كنائس المدينة الأخرى دون أن يتعرض لها المسلمون(44).

ولنا في معاملة المسلمين لأهل وشقة Huesca خير دليل على نيتهم الطيبة إزاء أهل البلاد فقد حاصروا المدينة ولكنها أبت الاستسلام، فترك المسلمون المدينة وشأنها، ونزلوا بموضع منها يُعرف بالعسكر، وبنوا فيه المساكن، وغرسوا الكروم، ومارسوا الزراعة لمعيشتهم لمدة سبعة أعوام. فلما رأى أهل المدينة فعل المسلمين نزلوا إليهم مستأمنين لأنفسهم وأولادهم وأموالهم، فمنهم من دخل الإسلام فملك ماله ونفسه وحرمته، ومنهم من ظل على دينه فأدى الجزية(45).

وقد احترم المسلمون أيضاً الممتلكات الخاصة لأهل البلاد فلم يعتدوا عليها وكان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك لا سيما المتنفذين منهم، كالصميل بن حاتم، أو الموالي الشاميين. ولكننا نجد أن بعضاً من هؤلاء، كما يروي ابن القوطية(46)، يذهبون إلى أرطباس، ويطلبون منه أن يمنحهم جزءاً من ضياعه الكثيرة التي لم يمسها المسلمون، فيمنحهم عشرة ضياع لكل منهم، وفي الوقت نفسه يطلب إليه ميمون العابد، أحد الموالي الشاميين أن يعطيه إحدى ضياعه ليعتمرها بيده، ويؤدي إليه الحق عنها مناصفة، فلم يرض أرطباس بذلك بل وهب له ضيعة وقلعة أصبحتا له ولأعقابه. وهذا بطبيعة الحال يدل على المكانة التي كان يتمتع بها سادة

(44) ابن القوطية، ص11، ابن عذاري: 2/ 24 (برواية أحمد الرازي).
(45) العذري، 56 ـ 57، الحميري، ص195.
(46) تاريخ افتتاح الأندلس، ص38 ـ 40.

البلاد السابقين، وتواضع المسلمين، وتعاملهم الشريف مع أهل البلاد.

ثالثاً: التنظيم الاجتماعي لأهل الذمة في ظل الإسلام في الأندلس

قبل الكلام عن التنظيم الاجتماعي لأهل الذمة في ظل الإسلام، لا بدّ لنا من الإشارة، ولو بشكل موجز، إلى الأحوال الاجتماعية للسكان المحليين قبل الفتح، لقد كان القوط الغربيون الذين غزوا شبه الجزيرة الإيبيرية واستوطنوا فيها في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلادي يمثلون أقلية صغيرة فقط ضمن السكان، الذين كان معظمهم ينتمون إلى أصل إسباني روماني Hispano - Romans. وقد كوَّن القوط أرستقراطية حاكمة تتمثل في رجالهم البارزين وقادتهم الذين تحولوا إلى ملاَّك للأراضي[47] وهكذا تركزت الثروة بيد القلة من الناس، وكان هناك عدم مساواة كبيرة في البنية الطبقية[48]. فالمجتمع القوطي كان يتألف من ثلاث طبقات وهم كبار ملاك الأراضي والنبلاء، والعبيد، ثم الأغلبية الساحقة من السكان الذين يكوِّنون الطبقة العامة[49]. وكان هؤلاء بصورة عامة من الأحرار البسطاء الذين ينتمون إلى أصول قوطية ورومانية، عاشوا في المناطق المدنية والأرياف ونظراً للظروف الاقتصادية الصعبة، فقد اضطر الكثير من سكان الأرياف إلى تسليم ممتلكاتهم إلى النبلاء ورضوا بالعمل كمستأجرين لأراضيهم لقاء حماية النبلاء لهم. وقد أصبح هؤلاء بالتدريج مشدودين بالأرض حتى تحولوا أخيراً إلى ما يشبه الأقنان. وكان

(47) Thompson, The Goths in Spain, Oxford, 1969, P.133; King, Law and Society in the Visigothic Kingdom, Cambridge, 1972, P.206.

(48) Dozy, Op. Cit., P.226.

(49) فتح الأندلس، ص7، ابن الشباط، «صلة السمط وسمة المرط» تحقيق: أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، العدد، 14، 1967، 1968 ص107، الحميري، ص169 ـ Thompson, Op. Cit., 267;170.

عليهم أن يدفعوا جزءاً من إنتاجهم إلى النبلاء إضافة إلى تأدية خدمات شخصية أخرى، ودفع ضريبة الرؤوس أو الجزية[50].

وكانت أحوال العبيد سيئة جداً، لا سيما أولئك الذين يستخدمون للأغراض الزراعية، وعبيد الكنيسة، وكان عدد كبير من هؤلاء العبيد يجندون بالإكراه في الجيش، ولهذا كانوا يهربون للتخلص من عبوديتهم. وقد انتشرت في أواخر العهد القوطي ظاهرة العبيد الآبقين الذين يغادرون أماكنهم، ويختبئون في القرى والأرياف، مما أدى بالدولة إلى وضع قوانين مشددة لمن يفشل في مطاردة هؤلاء أو يتستر عليهم[51].

وكانت المسيحية هي ديانة الغالبية العظمى من السكان. ولكن الإسبان الرومان كانوا يعتنقون المذهب الكاثوليكي، بينما كان القوط الغربيون يدينون بالمذهب الأريوسي Arianism. ثم تحول هؤلاء إلى مذهب غالبية سكان البلاد في عهد الملك ريكاريد Reccared[52] (586 - 601م). وبالإضافة إلى المسيحيين كان هناك عدد لا بأس به من اليهود في شبه الجزيرة، وقد ألمحنا سابقاً إلى حالتهم الاجتماعية السيئة، واضطهادهم من قبل القوط الغربيين.

هذه لمحة موجزة فقط لحالة البلاد الاجتماعية قبل الإسلام. أما بعد الفتح فقد تغيرت الصورة بشكل سريع جداً، فقضى الإسلام على الظلم

---

(50) Ibid., P.117.

(51) قارن .Ibid., PP. 265 - 267

وانظر: طه: الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال أفريقيا والأندلس ص81 ـ 82.

(52) S. Isidore, History of the Goths, Vandals and Suevi, translated from the Latin by: G Donini and G.B. Ford, Leiden, 1970, P.25.

الحميري، ص56.

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1979: 4/ 560.

والاستغلال، وحمل الحرية والمساواة لجميع عناصر السكان، الذين تخلصوا من قيود الطبقة النبيلة وتحكمها في مصائرهم. وترك المسلمون لأهل البلاد حق اتباع قوانينهم والخضوع لقضائهم، والاستمرار في ممارسة شعائر دينهم. وكان أداء الجزية هو كل ما يفرض على النصارى واليهود، لقاء حمايتهم. أما من دخل منهم الإسلام، فقد أصبح واحداً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، وسقطت عنه الجزية. لهذا سارع العبيد، وبقية السكان الذين ينتمون إلى أصول اجتماعية مختلفة إلى اعتناق الإسلام.

أما الذين ظلوا على ديانتهم، فقد تركوا أحراراً ينظمون أمورهم على النحو الذين يرغبون فيه. وكان لهم نظامهم المدني الخاص المستند إلى القانون القوطي القديم، وقد استمر القائمون بأمر هذا القانون بالإشراف على كل ما يتصل بأمور الرعايا من أهل الذمة فكانوا يُعيِّنون لهم القضاة الذين يفصلون في مشاكلهم حسب النظام القوطي ويشرفون على كنائسهم ويتولون أمورها. بينما كان للمسلمين نظامهم الخاص المستند إلى تعاليم الشريعة الإسلامية. وهكذا وجد في الأندلس نظامان إداريان في آن واحد، الأول للمسلمين والثاني للنصارى[53].

وقد سمح المسلمون للنصارى في كل ناحية من الأندلس باختيار رئيس منهم يدعى بالقومس، أو زعيم نصارى الذمة، وهو مسؤول عن كل ما يتصل بشؤون رعاياه. وكان أول قومس هو أرطباس، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. وقد احتفظ المسلمون بحق تعيين القومس الأعلى أي قومس الأندلس ولكنهم اشترطوا أن ينتخب النصارى في كل ناحية قومسهم الخاص بهم وكان يعاون القمامسة موظفون آخرون أصغر منهم ينوبون

(53) انظر: حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص447.

عنهم في القرى الداخلة ضمن حدود ناحيتهم(54).

وإلى جانب القومس، كانت هناك مناصب أخرى تولاها رجال من أهل الذمة لخدمة بني جنسهم، بموافقة وإقرار المسلمين، مثل قاضي العجم، وصاحب المدينة، أو حارسها، ومستخرج خراج أهل الذمة، الذي كان يعمل إلى جانب عامل الخراج المسلم والأمين، الذي كان على رأس كل نقابة من نقابات العمال المختلفة، والعريف الذي تميز بمهارته في حقل من حقول الصناعة، وما يزال هذا المصطلح الأخير el alarife يطلق على رؤساء البنائين في إسبانيا إلى اليوم(55).

وبالنسبة للزراع من أهل الذمة، فقد تحسنت أحوالهم كثيراً وذلك بإلغاء المسلمين للنظام القوطي الذي يجعل الزراع أشبه ما يكونون بالرقيق، فكان ذلك عاملاً في ازدهار الزراعة، وفي تحسين أحوال الزراع الذين تمتعوا بالحرية والاستقلال(56).

واستمر النصارى من أهل الذمة في العمل بقوانين الكنيسة الإسبانية القديمة ولم يتدخل المسلمون في تنظيماتهم. بل إنهم لم ينقلوا كرسي المطرانية الكبرى من طليطلة إلى العاصمة قرطبة، فتركوه في طليطلة حرصاً على مشاعر النصارى، ولكن مجامع كنيسة طليطلة عقدت في نرطبة، لتكون على مقربة من العاصمة(57). وقد كانت مطرانية طليطلة نابعة لكنيسة روما، فقطع العرب هذه العلاقة. وجعلوا للنصرانية في الأندلس كياناً مستقلاً. وقد أبقى المسلمون على كل المؤسسات المسيحية

---

(54) انظر: المرجع السابق، ص461، نقلاً عن:
Simonet, Historia de los Mozarabes de España, Madrid, 1903, P.108.

(55) انظر: مؤنس المرجع السابق، ص462 ـ 464.

(56) قارن، المرجع السابق، ص 465، عنان، المرجع السابق: 1/ 63 ـ 64.

(57) انظر، مؤنس، ص495، نقلاً عن: Simonet, Op. Cit., PP.123 - 124.

دون أن يمسوها بأذى، كالأديرة والبيع الصغيرة والمصلَّيات العامة والخاصة، كما احتفظ رجال الدين بملابسهم وأزيائهم[58]. وظلت الكنائس تؤدي وظائفها الاجتماعية إلى جانب وظائفها الدينية، فتعقد فيها مراسيم الزواج، ويعمَّد فيها المواليد، وتسجل فيها المبايعات والعقود.

أما اليهود، فقد كانت لهم قوانينهم الخاصة بهم، وقضاتهم الذين يفصلون في مشاكلهم، شأنهم في ذلك شأن النصارى، ولم يتدخل المسلمون في شؤونهم، ولا في بيعهم التي يقيمون فيها صلواتهم. ويبدو أنهم عاشوا ضمن قصبات المدن، أي الأماكن المحصنة منها، بعد الفتح الإسلامي حينما ساعدوا الحاميات الإسلامية في حراسة المدن التي افتتحت، فكان من الطبيعي أن يتجمعوا في جزء معين من قصبة كل مدينة، حيث أصبح هذا الجزء يعرف بحارة اليهود، وهو ما عُرف فيما بعد في إسبانيا النصرانية باسم اليودرية أو الخودرية Juderia[59]. والواقع أن معلوماتنا قليلة عن أحوال الجماعات اليهودية في العصور الإسلامية الأولى في الأندلس لا سيما عصر الولاة، ولكن من الطبيعي أن تكون أحوالهم أفضل بكثير مما كانت عليه أيام القهر والاضطهاد على يد القوط الغربيين.

ومما لا شك فيه أنه كانت لهم حياة اجتماعية منظمة تضاهي تلك التي تمتع بها النصارى لتسامح المسلمين وعدم تمييزهم بين أهل الذمة من مختلف عناصر السكان. فعاش الجميع عيشة حرة محتفظين باستقلالهم ولغتهم، وعاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم في ظل الحكم العربي الإسلامي الذي جاء ليقضي على كثير من الشرور الاجتماعية التي سادت في هذا البلد منذ قرون عديدة.

---

(58) المرجع السابق، ص50، نقلاً عن: Simonet., Op. Cit., P.127

(59) مؤنس، ص525.

الأنـدلس
من خلال كتاب صورة الأرض
لابن حوقل

نشر في مجلة المؤرخ العربي التي يصدرها اتحاد المؤرخين العرب.
العدد 23 بغداد/1983

وصفت الأندلس من قبل العديد من الكتَّاب والجغرافيين والرحالة، ولكن الفصل الذي كتبه ابن حوقل (توفي بعد سنة 367هـ/977م) عن هذه البلاد يحمل خصوصية معيَّنة. ذلك أنه نظر إليها بعين تختلف عن عين غيره تلك هي عين الناقد المتميز، الذي لم ينسَ ميوله ومذهبه الفاطمي المخالف لحكام الأندلس وأهلها ومذهبها المالكي حين تكلم عن أحوالها. ومن هنا، فإن استعراض ما كتبه ابن حوقل عن الأندلس، وتحليل دوافعه، وتبيان مدى صحة ما أورده عنها، يمكن أن يفيد إلى درجة كبيرة في التعرف على أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية

في ظل الخلافة الأموية. وهذا هو أحد الأهداف التي يهدف هذا البحث للوصول إليها. أما الهدف الآخر فهو التعرف على ابن حوقل نفسه، وغرضه من الكتابة الجغرافية بشكل عام، والسر في إغفال العديد من الجغرافيين وكتّاب السير القدماء الحديث عنه والإمساك عن ترجمة حياته.

والحق أننا لا نكاد نجد ترجمة وافية لمحمد بن علي بن حوقل النصيبي أو ذكر لكتابه في المصادر القديمة، مثل **الفهرست** لابن النديم **وكشف الظنون** لحاجي خليفة. وحتى ياقوت الحموي، الذي كان مطلعاً على كتاب ابن حوقل، ونقل عنه قرابة أربع وعشرين مادة في كتابه **معجم البلدان**، لم يخصّه بكلمة واحدة حين تحدث عن مدينتي نصيبين والموصل، وكذلك لم يورد له ترجمة في كتابه الآخر **إرشاد الأديب، أو معجم الأدباء** وتُستثنى من هذا الكلام، إشارات ياقوت المتكررة في أثناء نقله عن ابن حوقل، إلى أنه كان تاجراً موصلياً[1]. فما هو السر في هذا الإغفال؟ أيكون في كثرة جولاته وعدم استقراره في مكان واحد قرابة ثلاثين عاماً من الرحلات، حتى أصبح لا يعرف بشكل جيد من قبل المختصين بتدوين التراجم؟ أم كان لآرائه وميوله الواضحة إلى الفاطميين أثر في تحاشي ياقوت وغيره ذكره مفصلاً، أو الترجمة له ترجمة وافية؟ الحق أننا لا يمكن أن نجزم بصحة أي من هذين الأمرين لعدم توفر الأدلة. وعلى أي حال، فإن ما ذكره ابن حوقل عن نفسه فيه ما يشبع، إلى حد ما، رغبة المتطلع إلى معرفة حياته واهتماماته. وكانت هذه الشذرات من الأخبار التي وردت في كتابه **المسالك والممالك**، أو **صورة الأرض**، هي التي اعتمد عليها معظم الكُتّاب المحدثين حين تحدثوا عن

(1) معجم البلدان، الطبعة الأوروبية بعناية: ادوارد وستنفلد، لايبزك، 1866: 1/ 20، 375، 543، 3/ 409، 59.

هذا الجغرافي العربي[2].

وُلد ابن حوقل في مدينة نصيبين في الجزيرة، ومن المحتمل أنه قضى معظم حياته الأولى في هذه المنطقة قبل أن يغادرها إلى بغداد. ولهذا فهو يلقب بالنصيبي، والموصلي، والبغدادي. وقد بدأ رحلته الشهيرة من بغداد في اليوم السابع من رمضان عام 331هـ/ الخامس عشر من أيار 943[3]. فجاب معظم العالم الإسلامي المعروف آنذاك، مثل مصر، وشمال أفريقيا وأطراف الصحراء الكبرى، والأندلس، وصقلية والجزيرة، والعراق وإيران، وخوارزم، وما وراء النهر، وأرمينية، وأذربيجان. ولكن ما الذي دفع ابن حوقل للقيام بهذه الرحلات الطويلة؟ هل كان ذلك بدافع الشوق للأسفار وحب الاطلاع على البلدان، أم بدافع الرغبة في تأليف كتاب جغرافي يقوم على الملاحظة والتعرف المباشر على أحوال البلدان والشعوب. والحق أن الباحث يمكن أن يجد كلاً من هذين الدافعين في كلام ابن حوقل نفسه، هذا فضلاً عن أسباب أخرى يذكرها في أثناء حديثه عن أسفاره، مثل الحصول على الرزق والقيام بالفعاليات التجارية، وكذلك الابتعاد عن الجور والشدائد التي تواصلت على أهل

(2) انظر على سبيل المثال:

اغناطيوس يولبانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، 1963: 1/ 200؛ خير الدين الزركلي، الأعلام ط3، بيروت، 1969: 6/ 344، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، 1960: 11/ 5، نفيس أحمد، جهود المسلمين في الجغرافية، ترجمة: فتحي عثمان، القاهرة، سلسلة الألف كتاب، ص54، دائرة المعارف الإسلامية، ط1، الترجمة العربية مادة: «ابن حوقل»: 1/ 145 ـ 146، Ensyclopaedia of Islam, new edition, «Ibn Hawkal».

علي محسن مال الله، أدب الرحلات عند العرب في المشرق، بغداد، 1978، ص108 ـ 122، شاكر خصباك، كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي، بغداد، 1979، ص56 ـ 57.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص10.

المشرق بسبب جنوح حكامه إلى الظلم والطغيان، فيقول في دوافع تأليفه لكتاب **صورة الأرض**:

«وكان مما حضني على تأليفه وحثني على تصنيفه، وجذبني إلى رسمه أني لم أزل في حالة الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك في السير والحقائق، وتباينهم في المذاهب والطرائق. . .

وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ في المسالك كتاباً مقنعاً، وما رأيت فيها رسماً متبعاً، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب، واستنطاقي فيه وجوهاً من القول والخطاب. وأعانني عليه تواصل السفر، وانزعاجي عن وطني مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر، والشهوة لبلوغ الوطن، بجور السلطان وكلب الزمان، وتواصل الشدائد على أهل المشرق والعدوان، واستئناس سلاطينه بالجور بعد العدل والطغيان، وكثرة الجوائح والنوائب، وتعاقب الكلف والمصائب، واختلال النعم وقحط الدِّيم»[4].

ويقول في مكان آخر:

«وكان أكثر ما حداني على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة، أني كنت في حال الحداثة شغفاً بأخبار البلدان والوقوف على حال الأمصار، كثير الاستعلام والاستخبار لمسافرة النواحي ووكلاء التجار وقراءة الكتب المؤلفة فيها، وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقاً وأخاله بما أسأله عنه خبيراً عالماً فأجد عند إعادة الخبر الذي اعتقد فيه صدقه، وقد حفظت نسقه وتأملت طرقه ووصفه أكثر ذلك باطلاً، وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلاً، ثم أعاوده الخبر الذي ألْتمسه منه والذكر ليسمع الذي استوصفته وأطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد رؤية، وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية فتتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات، وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحسه في نفسي بالقوة

(4) المصدر نفسه، ص10.

على الأسفار وركوب الأخطار ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الأمصار وتجاور الأقاليم والأصقاع..»[5].

ويبدو من هذا أن ابن حوقل لا يضع حداً فاصلاً بين أسباب تأليفه لكتاب **صورة الأرض**، وبين قيامه بالرحلات ويظهر أن حبه للتعرف على الحقائق بشكل مباشر، وعدم اقتناعه بالكتب المتيسرة في ذلك الوقت، وقلة ثقته بروايات الرواة، امتزج مع رغبته في ترك الأوطان لتفشي الجور والفساد، وحبه للأسفار والمغامرات، وما يصاحب ذلك من مزاولة للتجارة وكسب الرزق. ويمكن أن يكون للعامل الأخير دور كبير في اتجاهه إلى زيارة البلدان. ولقد كان هذا الأمر معروفاً عنه حتى لقبه ياقوت كما أسلفنا، في أكثر من مرة بلقب «التاجر الموصلي»[6].

كما يمكن ملاحظة اهتمامه بالفعاليات التجارية من خلال وصفه لهذه الفعاليات التي يذكرها ـ غالباً بالأرقام ـ عن الأسعار والمنتجات والشؤون الاقتصادية بشكل عام. فالتجارة إذا هي الدافع الأساس في رحلات ابن حوقل. ونظراً لشغفه بأخبار البلدان، فقد كان يجمع في أثناء رحلاته معلومات وفيرة هذا فضلاً عن قراءته لكتب من سبقوه من الجغرافيين من أمثال ابن خرداذبة[7]، والجيهاني[8]، وقدامة بن

(5) المصدر نفسه، ص283 ـ 284.

(6) معجم البلدان: 1/ 320، 375، 543، 3/ 409، 4/ 59.

(7) هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، ظهر كتابه المسالك والممالك، في حدود سنة 222هـ/ 846م، وقد اعتمد في بيان حدود الأرض ومسالكها على بطليموس، انظر ص3 من كتابه، نشر دي غويه، ليدن 1889.

(8) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني من بلدة جيهان بخراسان على شاطىء نهر جيحون، توفي في أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. وله كتاب يسمى (كتاب المسالك في معرفة الممالك)، وقد مات قبل أن يتمه، فاختصر وكتب من جديد. انظر: تعليق الأستاذ خدابخش مترجم كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز إلى الإنكليزية (الترجمة العربية) للأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، 1967: 20/ 17 ـ 18.

جعفر[9]، واتصاله بالأصطخري[10] الذي طلب منه مراجعة كتبه وخرائطه. فتولدت لديه فكرة إعادة كتابة موضوع المسالك والممالك للأصطخري بعد إضافة تجاربه الخاصة إليه[11].

وكتاب **المسالك والممالك** الذي ألفه الأصطخري في حدود 320هـ/951م يعد نسخة موسعة من كتاب **صور الأقاليم أو كتاب الأشكال** لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي[12]. فهو إذاً الأساس الذي أقام عليه ابن حوقل كتابه **صورة الأرض**[13] والتشابه بين كتاب الأصطخري وكتاب ابن حوقل واضح جداً، لا سيما في الفصول الأولى التي يبلغ التشابه فيها إلى درجة أن ابن حوقل ينقل عن الأصطخري عبارات لم يكن يصعب عليه أن يجد ما يؤدي معناها لولا ذلك الالتزام[14]. ولكن ليس معنى هذا أن ابن حوقل لم يقدم أية إضافات للمعرفة الجغرافية، فإن رحلاته العديدة ومشاهداته للأقاليم والبلدان، أفادته في التعرف على حياة الشعوب،

---

(9) توفي عام 337هـ/922م، وقد وصف مملكة الإسلام وما جاورها في كتابه المسمى (كتاب الخراج وصنعة الكتابة)، نشر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، بعناية: دي غويه، ليدن، 1889.

(10) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الاصطخري، عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، انظر: نفيس أحمد، جهود المسلمين في الجغرافية، ص53 ـ 54.

(11) ابن حوقل، صورة الأرض، ص284.

(12) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقلة إلى العربية، السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، دار المعارف بمصر، 1975: 4/ 246 ـ 247، وعن البلخي، انظر: ياقوت، معجم الأدباء، بيروت، دار المستشرق 3/ 64 ـ 68، نفيس أحمد، المرجع السابق ص52 ـ 53.

(13) بروكلمان، المرجع السابق: 4/ 248.

(14) قارن: الفصول الأولى من كتاب الأصطخري، المسالك والممالك، تحقيق: د. محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة، 1961. وانظر: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد، 1976، ص218.

والاطلاع على عاداتها وأخلاقها، فضمَّن ذلك كله في كتابه. يضاف إلى ذلك الحس التجاري الذي امتاز به، مما دفعه إلى متابعة الشؤون الاقتصادية للبلدان التي يمر بها، فرسم في كتابه مخططاً حقيقياً واضحاً للإنتاج في العالم الإسلامي، وهو الجغرافي العربي الوحيد في عصره الذي أولى هذا الأمر مثل ذلك الاهتمام المتميز فكان كتابه بحق يمثل الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[15].

ولنرجع الآن إلى موضوع اهتمامنا الأول لنرى ما كتبه ابن حوقل عن الأندلس التي زارها في سنة 337هـ/ 948م، وعاش فيها فترة من الزمن في عهد الخليفة عبد الرحمن بن محمد، الملقب بالناصر لدين الله (300 ـ 350هـ/ 912 ـ 961م). وأول ما يجابهنا في حديث هذا الجغرافي، هو كثرة المعلومات عن الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لهذا البلد. وعلى الرغم من أن ابن حوقل لا ينفي الجانب الإيجابي للحضارة الأندلسية لكنه يحاول أن يقدم صورة سلبية عن شجاعة أهل الأندلس، ويتهجم عليهم وعلى نظامهم الحربي والإداري، فيقول:

> «... ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صِغَر أحلام أهلها وضِعَة نفوسهم ونقص عقولهم، وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها...»[16].

---

(15) قارن: Ensyclopaedia of Islam, new edition, "Ibn Hawkal" آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: 2/ 10.

(16) صورة الأرض، ص104 ـ 105.

ويقول في مكان آخر:

«وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها، وإن شجعت أنفسهم ومرنوا بالقتال فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة، وما رأيت ولا رأى غيري بها إنساناً قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين ولا يستطيعون ذلك، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم. وهم يفرسون على الأعراء من الخيل وما أطبقت قط جريدة عبد الرحمن بن محمد ولا من سبقه من آله وآبائه على خمسة آلاف فارس ممن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه، لأنه مكفي المؤونة بأهل الثغور عن أهل جزيرته ما ينوبه من كيد العدو ومن يجاوره من الروم ولا عدو عليه وقلما يكترث بهم. وربما طرقه في بعض الأحايين مراكب الروس والترك البجناكية وقوم في جملتهم من الصقالبة والبلغار، فينكوا في أعماله وربما انصرفوا خاسرين خائبين...»[17].

وقبل مناقشة دوافع ابن حوقل في كتابة هذه النصوص البالغة الأهمية، يستحسن دراسة مدى صحتها، وموافقتها لواقع الحال في الأندلس في ذلك العصر. فمن الواضح أن كلامه فيه تحيز كبير ومجانبة صريحة للواقع، وسوف نكتفي بمناقشة مسألة واحدة فقط وردت في هذين النصّين ثم نترك المؤرخ والجغرافي الأندلسي الشهير، علي بن سعيد (ت 685هـ/ 1268م) ليتولى الرد على ما جاء فيهما من اتهامات لأهل الأندلس.

يذكر ابن حوقل أن عدد الفرسان المسجلين في قوائم الدولة وسجلاتها في عهد عبد الرحمن الناصر أو من سبقه من آبائه الأمراء الأمويين، لم يزد على خمسة آلاف فارس ممن يقبض أرزاقه من ديوان الدولة. وهذا خطأ صريح وقع فيه ابن حوقل عن قصد أو دون قصد، لأننا نمتلك بياناً واضحاً وصريحاً عن عدد الفرسان المستنفرين للقتال في

(17) المصدر نفسه: ص108 ـ 109.

الصوائف المجردة إلى جليقية في الشمال الغربي من إسبانيا، في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238 ـ 273هـ/ 852 ـ 886م). وقد أورد هذا البيان المؤرخ الأندلسي الشهير ابن حيان، فذكر ما تقدمه بعض كور الأندلس من الفرسان الذين وصل عددهم إلى ستة وعشرين ألفاً وثلاثة عشر فارساً، عدا قرطبة، علماً أن البيان ناقص لم يرد فيه ذكر أسماء العديد من الكور الأخرى في الأندلس[18] وكذلك فإن ما ذكره ابن الخطيب[19]، عن تنظيمات الجند في الأندلس، وكيفية خروجهم للجهاد، ومقدار أعطياتهم، يتناقض مع المعلومات التي جاء بها ابن حوقل. ولا شك أن أقوال ابن حيان وابن الخطيب وهما المؤرخان العالمان بتاريخ الأندلس وأخبارها، أولى بالتصديق والأخذ بنظر الاعتبار.

وقد تنبه أهل الأندلس إلى خطورة كلام ابن حوقل، لا سيما اتهامه إياهم بنقص العقول، وصغر الأحلام، وضعة النفوس، والبعد عن الشجاعة والفروسية، فانبرى ابن سعيد الأندلسي للرد على بعض ما جاء في كلام ابن حوقل، وتفنيد آرائه المتعصبة على أهل الأندلس، فيقول: «لم أرَ بداً من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى، ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة، وليت شعري إذا سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم من داخلها وخارجها...»[20].

(18) رواية ابن حيان في البيان المغرب، لابن عذاري، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948 أعادت نشره دار الثقافة بيروت: 2/ 109.

(19) الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان القاهرة، 1973: 1/ 104.

(20) انظر: المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968: 1/ 212.

ثم يقارن ابن سعيد بين حال الأندلس والحال في المشرق الإسلامي في أيام ابن حوقل، حيث كانت بلاد الشام والجزيرة تتعرض إلى هجمات الصليبيين من الروم البيزنطيين، وكيف أن هؤلاء دخلوا مدينة حلب، وهي محاطة ببلاد المسلمين الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا من أجلها شيئاً، بينما كانت الأندلس في ذلك الوقت قوية عزيزة تقف شامخة أمام أعدائها بفضل قوة أهلها وشجاعتهم على العكس من البلاد التي تركها ابن حوقل وراء ظهره[21].

وعلى الرغم من مبالغة ابن سعيد في تصوير تخاذل المسلمين في المشرق، لكنه على حق في تحمسه بالرد على اتهامات ابن حوقل، لأن في كلام الأخير الكثير من الافتراء والمجانبة للواقع، فما هي إذا الدوافع التي تكمن وراء اتهامات ابن حوقل وتحامله على أهل الأندلس وحكامها؟

إن الرأي الشائع بشأن هذا الأمر، هو أن ابن حوقل كان عيناً للفاطميين وأنه دخل الأندلس ليستطلع أحوالها وليدرسها لمصلحة مواليه، الفاطميين، وذلك حينما كانوا يفكرون في غزو هذه البلاد. وكان أول من نادى بهذا الرأي المستشرق الهولندي رينهارت دوزي R. Dozy[22] ثم تبعه المؤرخون والكتاب المحدثون في تبني هذه الفكرة والتوسع في توضيحها وشرحها استناداً إلى ما جاء في طيات كتاب ابن حوقل[23]. ففسروا اهتمامه بتسجيل دخل الدولة ومواردها الاقتصادية وتعداد خيراتها ووصفه لطرقها ومسالكها، وأحوالها العسكرية، وتهجمه على أهلها ووصفهم بالضعف، والجبن، والعجز، عن الدفاع عن بلادهم، على أنه محاولة

---

(21) المصدر نفسه: 1/ 212.

(22) Histoire des Musulmans D'Espagne, ed: Levi - Provencal, Leyde, 1932, vol. II P.125.

(23) انظر: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي: 1/ 204.

لإقناع الفاطميين بضرورة غزو الأندلس[24]. ويبدو أن القائلين بهذا الرأي قد غاب عنهم أن ابن حوقل تحدث عن معظم المناطق التي زارها بهذا التفصيل مقدماً معلومات خاصة بتسجيل دخل الدول، ووجوه الأموال المجباة فيها[25]. وكذلك ذكر الموارد الاقتصادية، ووصف الطرق والمسالك والأحوال العسكرية لمعظم أنحاء العالم الإسلامي المعروف آنذاك. فالأندلس إذا لم تكن الوحيدة التي خصها ابن حوقل بهذا الوصف المركز، حتى نعدُّ ما ذكره عنها على أنه تقرير تجسسي رفعه إلى مواليه الفاطميين. لقد كان ابن حوقل، كما أسلفنا، تاجراً يهتم بشؤون الاقتصاد والأموال أينما حل، لا فرق عنده في ذلك بين المغرب والأندلس، أو بين العراق والجزيرة، أو بين صقلية وأذربيجان. ولم يدخل الأندلس مستتراً بالتجارة كما ذكر أحد المؤرخين المحدثين[26]. لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك، فالأندلس كانت مفتوحة لكل من أراد دخولها، والرحلات بين المشرق والمغرب كانت شائعة وأكثر من أن تحصى.

وليس معنى هذا الكلام أن الفاطميين لم يرسلوا دعاة إلى الأندلس، ولكن من غير المحتمل أن ما ذكره ابن حوقل عن الأندلس يمكن أن يتخذ دليلاً على أنه كان داعية يعمل لحسابهم، لا سيما وإننا لم نجد في أي مصدر قديم ما ينص على مثل هذه الصفة لابن حوقل، في حين تكثر

---

(24) انظر: محمود علي مكي، (التشيع في الأندلس)، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، مجلة 2، العدد 1 ـ 2، 1954، ص115، وانظر أيضاً: أحمد مختار العبادي، (سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد 5، العدد 1 ـ 2، 1957، ص205، حيث آراء محمود علي مكي نفسها، ويشير إلى ابن حوقل على أنه جاسوس فاطمي. وراجع أيضاً كتابه: في التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت، 1972، ص391 ـ 392.

(25) انظر على سبيل المثال حديثه عن وجوه الأموال المجباة في البحرين والسواحل إلى عمان واليمن، صورة الأرض، ص31 ـ 33، وكذلك عن المغرب، ص94.

(26) محمود علي مكي، المرجع السابق، ص115.

الإشارات إلى العديد من الدعاة الحقيقيين، كإبراهيم بن محمد الشيباني المعروف بأبي اليسر الرياضي، الذي يشير إليه ابن عذاري على أنه كان من وجوه دعاة أبي عبد الله الشيعي، وأنه تولى ديوان الكتابة لعبيد الله المهدي، الخليفة الفاطمي الأول(27). وقد دخل هذا الرجل الأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط(28). ومن الدعاة الآخرين الذين دخلوا الأندلس، أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي، الذي دخلها في عهد الأمير عبد الله بن محمد (275 ـ 300هـ/ 888 ـ 912م)(29). وقد نص ابن الفرضي صراحة على أن دخول هذا الرجل إلى الأندلس كان بقصد التجسس(30). وقد كان هذا الأخير من الأعوان المخلصين للفاطميين، وتولى لهم مناصب مرموقة مثل ديوان الكتابة، والبريد، وباشر سلطات واسعة ونفوذاً كبيراً في عهد عبيد الله المهدي، وابنه القائم(31).

لم يكن ابن حوقل إذاً داعية للفاطميين أرسل بقصد التجسس على الأندلس لكنه كان دون شك موالياً لهم، ومؤيداً لسياستهم ومذهبهم. وهذا واضح من تعاطفه الذي يجاهر به في كتابه للإمام الفاطمي(32). لقد كان الأمويون في الأندلس على عداء سياسي ومذهبي مع الفاطميين، إضافة إلى تنافس الطرفين في السيطرة على المغرب الأقصى. ولهذا فمن الطبيعي أن يلتزم ابن حوقل جانب مواليه الفاطميين وأن ينظر إلى الأندلس

(27) البيان المغرب: 1/ 152 ـ 153، 159، وقارن: مكي، المرجع السابق، ص12.

(28) ابن عذاري، البيان المغرب، 1/ 162 ـ 163، وانظر: أخبار مجموعة، مجهول المؤلف، نشره وترجمه إلى الإسبانية لافوينتي القنطرة، مدريد، 1868، ص146.

(29) ابن عذاري: 1/ 163.

(30) تاريخ علماء الأندلس، القاهرة، 1966، القسم الأول، ص61، ترجمة: رسم (201).

(31) انظر: ابن عذاري: 1/ 163، 169.

(32) انظر على سبيل المثال، صورة الأرض، ص 73، 74، 80، 105.

وأهلها وحكامها تلك النظرة المتحيزة التي أسلفنا ذكرها. بل إنه ليذهب إلى أبعد من ذلك في موالاته وتأييده للفاطميين حين يشير إلى الحمدانيين، فيصف سياستهم إزاء أهالي الموصل ونصيبين بالظلم والعدوان وينعت أحد أمرائهم بـ «اللعين لا رحمه الله»[33] على الرغم من أن الحمدانيين كانوا أيضاً من دعاة العلويين لكنهم من الناحية السياسية منافسين للفاطميين، ومصالحهم مرتبطة مع الخلافة العباسية. وهذا هو الذي جعل ابن حوقل ينظر إلى كل من الحمدانيين والأمويين في الأندلس بمنظار واحد، فيعدُّهما سواء في الظلم والبغي والآثام وكسب المال الحرام. ويعقد بينهما مقارنة طريفة في كثرة الأموال التي تجمعت لديهما، وفي الطريقة التي انتهت بها هذه الثروة وتبددت، فيقول عن أموال الأندلس الوفيرة في عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر (300 ـ 366هـ/ 961 ـ 976م):

«... ولم يكن لهذا المال في وقته في بلد الإسلام شبه إلا ما كان في يد الغضنفر أبي تغلب بن الحسن بن عبد الله بن حمدان، فإنه كان مما يتعامله خاصتهم بالجزيرة والعراق ومقداره يزيد على ذلك حتى قيل إنه كان خمسين ألف ألف دينار، وأدال الله منه فأخرجه عن يده ومحقه وبدّده، وكذلك عادة الله في كل ما كسب من حرام واجتمع بالبغي والظلم والآثام. وصورة ما بالأندلس من المال الذي قدَّمت ذكره صورة ما للشقي بن الشقي، وقد استحوذ عليه أبو عامر بن أبي عامر صاحب السكة بالأندلس وقتنا هذا، فهو يلذ تفريقه وشقي به من جمعه وباء بإثمه من لم يحظ به»[34].

إن التحامل الواضح في كلام ابن حوقل على أهل الأندلس وحكامها يجب ألا يمنعنا من ملاحظة بقية ما أورده من معلومات عن هذه البلاد.

(33) المصدر نفسه، ص191، 194، 195، 198.

(34) المصدر نفسه، ص107 ـ 108.

فإذا ما تركنا ملاحظاته المتحيزة، نجد فيما ذكره عن شبه الجزيرة الإيبيرية الكثير من الإيجابيات التي تناقض الصورة التي أراد رسمها عن الأندلس. فهناك وصف تفصيلي لجوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عصر الخلافة الأموية بالأندلس، يشير بالتأكيد إلى المدى الذي وصلته البلاد من الرقي والتقدم. فهو يعترف أن بيت المال كان عامراً بصورة لا يمكن مقارنتها في المشرق إلا بالحمدانيين في حلب. فضمان دار الضرب في عهد عبد الرحمن الثالث كان مئتي ألف دينار في كل سنة، وكان مجموع الأموال في بيت المال إلى سنة أربعين وثلاثمائة قرابة عشرين مليون دينار، عدا ما كان في خزائنه من المتاع والحلي وغيرها من المقتنيات الثمينة. أما في عهد ابنه الحكم المستنصر، فقد تضاعف هذا المبلغ وأصبح أربعين مليون دينار[35].

وبالنسبة لحالة الناس المعاشية ومستوى الأسعار، يذكر أن الرخص كان سائداً في البلاد، حتى إن فواكههم مع طيبتها كانت كالمباحة التي لا ثمن لها. وأن الأهالي كانوا في سعة من العيش والتنعم، وتملك العقارات، يستوي في ذلك خاصتهم وعامتهم من أصحاب المهن والصنائع. ولكنه يحاول أن يجد تعليلاً لهذا الأمر، فيقول إن ذلك كان «لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم، ويسار ملكهم بقلّة كلفه ولوازمه وسقوط شغله بشيء يحذره وحال تخيفه، إذ لا رقبة عليه لأحد من أهل جزيرته ولا خشية له من عدوّ ينصب لهلكته، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله»[36].

لقد وفق ابن حوقل في ناحية واحدة من هذا التعليل، وذلك أن

(35) المصدر نفسه، ص104، 107.

(36) المصدر نفسه، ص104.

عظم مرافق البلد وكثرة جباياته، ووفرة خزائنه وأمواله كانت من أسباب رفاه الناس وارتفاع مستواهم المعاشي. أما ما قاله عن عدم انشغال أمير الأندلس بوجود أعداء داخليين أو خارجيين، فأمر مخالف للواقع يناقضه كلام ابن حوقل نفسه حين يقول: «وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدن وهم على دين النصرانية روم، ربما عصوا في بعض الأوقات ولجأ بعضهم إلى حصن فطال جهادهم لأنهم في غاية العتوّ والتمرد، وإذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم إلا باستئصالهم، وذلك شيء يصعب ويطول»[37] والحق أن عبد الرحمن الناصر قضى شطراً من حكمه في مكافحة المتمردين والقضاء عليهم من أجل إعادة توحيد الأندلس التي كادت أن تتمزق نتيجة تفشي الفتن وكثرة الخارجين على السلطة[38]. أما أهم أعداء الأندلس الخارجيين في عهد عبد الرحمن الناصر فمعروفون، وهم الممالك الإسبانية التي كانت تجاور الأندلس من جهة الشمال. وقد أشار إليهم ابن حوقل نفسه في مكان آخر حينما تحدث عن قلة عدد فرسان الأندلس[39] ولا يخفى على أي مطّلع على تاريخ الأندلس ضراوة الصراع الذي دار بين مسلمي الأندلس وهذه الممالك النصرانية في مختلف العهود التي مرت بها البلاد، ومنها بطبيعة الحال

(37) المصدر نفسه، ص106.

(38) للاطلاع على مزيد من المعلومات بشأن هؤلاء الخارجين على السلطة، ومحاولة عبد الرحمن الناصر إخضاعهم، انظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، أعده للنشر جاينجوس ونشره وترجمه إلى الإسبانية خليان رايبيرا، مدريد، 1926، ص114 ـ 115، ابن حيان، المقتبس، ج5، نشره: ب شالميتا وآخرون، مدريد، 1979، ص32 فما بعدها، العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، ص12، 13، 14، 15، 39، 40، 43 فما بعدها، أخبار مجموعة، ص153 ـ 154، ابن عذاري: 2/ 160 فما بعدها.

(39) صورة الأرض: ص109.

عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله[40].

ومما يؤيد ازدهار الأندلس في عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ما أشار إليه ابن حوقل من عظمة العاصمة قرطبة التي:

«ليس بجميع المغرب لها شبيه، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق وهي فخمة واسعة الحال بحسن الجدة وكثرة المال والتصرف في وجوه التنعم بجيد الثياب، والكسي من لين الكتان وجيد الخز والقز والمتعة بفاره المركوب والمأكول والمشروب»[41].

ويبدو أن أهل قرطبة كانوا يكثرون من ركوب الحيوانات الفارهة، وقلَّ ما كان يذهب أحدهم إلى السوق إلا راكباً على دابة فارهة، ويستثنى من ذلك أهل الصنائع والأرذال. وكانوا يتفاخرون بهذه الحيوانات، لا سيما البغال الممتازة، التي كانت تجلب إلى الأندلس من جزيرة ميورقة[42].

ويرسم ابن حوقل صورة زاهية لمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر سنة 325هـ/ 936م إلى شمال الغربي من قرطبة. فقد اختط فيها الأسواق. وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمنتزهات. وشجع عامة الناس في الأندلس على اتخاذها مقراً لسكناهم، وذلك عن طريق إعلانه في جميع البلدان التابعة له باستعداده لتقديم مساعدة مالية قدرها أربعمائة درهم لكل من ينوي أن يبني داراً في مدينة الزهراء، «فتسارع الناس إلى العمارة وتكاثفت الأبنية وتزايدت فيها الرغبة، وكادت الأبنية أن تتصل بين قرطبة والزهراء»[43].

(40) عن حروب الناصر مع الممالك النصرانية انظر: ابن حيان، المصدر السابق، ص127 ـ 189، 379، 432 فما بعدها، ابن عذاري: 2/ 169، 170، 172، 175 فما بعدها، 185، 189، 217.

(41) صورة الأرض، ص107، 108.

(42) المصدر نفسه، ص109 ـ 110.

(43) المصدر نفسه، ص107.

وقد استمر العمل في بنائها، وإكمال صروحها العظيمة ومرافقها الفخمة بقية عهد الناصر، ومعظم عهد ابنه الحكم المستنصر، أي زهاء أربعين عاماً، فأصبحت قبلة الأندلس، وعاصمة الخلافة الأموية. لكن هذه المدينة العظيمة لم تستمر في التألق، بل خبا نورها وانتهى دورها السياسي بانتهاء عهد الحكم المستنصر، حيث تحول عنها محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) إلى مدينة جديدة تسمى الزاهرة، بناها إلى الشرق من قرطبة. ثم عفا على الزهراء الزمن بعد ذلك، لا سيما بعد قيام الفتنة وانهيار الدولة العامرية في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، فهدمت صروحها ونهبت ذخائرها وتحفها، وغمرها الخراب والنسيان[44].

ولم يقتصر الازدهار في عهد الخلافة الأموية على قرطبة والزهراء حسب، بل إن مدن الأندلس جميعها، على حد قول ابن حوقل، كانت على درجة كبيرة من الرفاه والرخاء تشتهر بالغلات والتجارات والعمارات والأسواق والحمامات، والخانات، والمساجد الحسنة، ولا توجد أية مدينة غير معمورة في الأندلس، بل إن هذه المدن والأقاليم التابعة لها، كانت تزخر بالضياع والماشية والمزروعات التي تعتمد على ماء المطر أو على الري المنظم الذي كان في غاية الكمال.

وأما المدن الصغيرة والقرى التي تتبعها فكانت أيضاً آهلة بالسكان، وبها أسواق وحمامات ومتاجر وفنادق. وإن دل هذا على شيء إنما يدل على قوة الحركة التجارية والرخاء الاقتصادي في البلد في عهد

(44) عن أطلال مدينة الزهراء، انظر: محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، القاهرة، 1961، ص35 ـ 44.

الأمويين[45]. ويشير إلى ذلك أيضاً كلام ابن حوقل عن المدن الأندلسية التي تقع على السواحل، مثل الجزيرة الخضراء والمرية وبلنسية وطرطوشة وغيرها حيث يقول: «وجميع ما ذكرته من المدن على البحر فمدن كبار عامرة مشحونة بالمرافق التي يفتخر بها أهل النواحي في بلادهم ومنابرهم، ولم تزل الأندلس في أيدي بني مروان إلى هذه الغاية»[46].

ومن الناحية الإدارية فإن هذه المدن ترتبط جميعاً بالعاصمة، ويديرها الولاة والحكام المعيَّنون من قبل الخليفة. كما أشار ابن حوقل أيضاً إلى وجود القضاة وإلى صنف آخر من الموظفين الذين أسماهم بـ«المخلفين على رفع الأخبار» ويقال لأحدهم «مخلف»[47]. وعلى الرغم من عدم تفضيله لمهمة هؤلاء، فإنهم كانوا يمثلون جهاز الأمن أو الاستخبارات الذي تعتمد عليه الدولة. وربما كان ارتباط «المخلف» بالخليفة مباشراً لتزويده بتقارير عن الأوضاع في المنطقة التي يعمل فيها. وهذا الأمر شبيه بما كان يجري في الدولة العباسية في المشرق، حيث كان رجل الاستخبارات الذي يسمى بصاحب الخبر يرتبط مباشرة بالخليفة ومنصبه مستقل عن منصب صاحب الشرطة[48].

ولن نتطرق في هذا البحث إلى إشارات ابن حوقل العابرة بشأن التقسيمات الإدارية للأندلس إلى كور، لأن كلامه في هذا المجال عام، وغير دقيق ولا يمكن التعويل عليه[49].

(45) صورة الأرض، ص111.

(46) المصدر نفسه، ص105.

(47) المصدر نفسه، ص111.

(48) انظر: عبد الواحد ذنون طه، جهاز الأمن والشرطة السرية في العصر العباسي، مجلة الشرطة، العدد 30، بغداد، 1975، ص56 ـ 60.

(49) قارن: حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، 1959، ص558.

ولكنه من الناحية الأخرى قدم لنا معلومات قيمة عن طرق التجارة الرئيسة التي كانت تلتقي عند قرطبة، وكذلك عن التبادل التجاري بين الأندلس وبقية البلاد الإسلامية، ذاكراً أهم المنتوجات التي تشتهر بها البلاد، والتي تعد مصدراً مهماً للتجارة. ومن جملة هذه المنتجات الملابس المطرزة المتعددة الأنواع التي تحمل إلى مصر وأقاصي خراسان وغيرها من البلاد(50). وكذلك الأصواف وما يصنع من أقمشة ومفروشات لا سيما اللبود التي هي من محاسن الفرش، حيث لا يضاهي أهل الأندلس في أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الأرض وكانت قيمة بعض هذه اللبود الفاخرة تصل إلى خمسين أو ستين ديناراً. واشتهر أهل الأندلس أيضاً بالأصباغ التي تستخرج من حشائش معينة في البلد، فكانوا يتفننون في صبغ الأصواف، واللبود المغربية الثمينة والحرير، وغيره من الأقمشة الأخرى. وقد اكتسبت الملابس المصنوعة من الكتان شهرة كبيرة في الأندلس وخارجها لا سيما تلك الأردية التي تعمل في مدينة بجانة، فتحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها(51). أما المنتجات الزراعية فكانت أكثر من أن تحصى، وكذلك الماشية لكثرة المراعي وقلة الآفات. وقد أسلفنا الحديث عن البغال المجلوبة من جزيرة ميورقة، والتي يفضل أهل قرطبة امتطاءها. ويذكر ابن حوقل أنه رأى غير بغل منها بيع بخمسمائة دينار، أما ما يبلغ سعره المائة والمائتين فأكثر من أن يحصى. وليس ذلك لأنها أزيد على البغال الموصوفة بحسن السير وسرعة المشي فقط بل جمعت مع ذلك عظم الخلق وحسن المشية إلى اختلاف الألوان الصافية والشعور الدهنية المشرقة الصحة على مر الأيام، مع الصبر على الكد والعسف(52).

---

(50) صورة الأرض، ص105.

(51) المصدر نفسه، ص109.

(52) المصدر نفسه، ص110.

وأخيراً فقد ذكر لنا ابن حوقل صورة واضحة جداً عن تجارة الرقيق وعلاقتها بالأندلس فهو يعد هذا البلد مصدراً لمعظم الرقيق من الجواري والغلمان والخدم والصقالبة الذين كانوا يباعون إلى عرب الأندلس من قبل بعض القبائل الجرمانية التي دأبت على سبي واسترقاق الشعوب السلافية الساكنة فيما بين بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدرياتي غرباً. وكان للتجار اليهود في ألمانيا وجنوبي فرنسا دور كبير في هذه العملية حيث يقومون بإخصاء الفتيان من الصقالبة قبل توريدهم إلى الأندلس[53]. ويشير ابن حوقل إلى مصدر آخر للرقيق الصقلبي في الأندلس، حيث كانوا يجلبون من سواحل البحر الأسود ومن لُمبَارِديا وكَلابِرْيا في إيطاليا، ومن قطلونية وجليقية في شمال إسبانيا عن طريق الغارات التي يقوم بها القراصنة من الأندلسيين الذين يهاجمون سواحل المناطق المذكورة[54]. وتعد هذه المعلومات على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تقدم تفصيلات قيمة عن إحدى الشرائح التي أصبح لها وجود بارز في المجتمع القرطبي، ولعبت دوراً مهماً في أحداث الأندلس، لا سيما بعد سقوط الخلافة الأموية.

(53) المصدر نفسه، ص105 ـ 106، وللمزيد من المعلومات عن دور التجار اليهود في أوروبا في جلب الرقيق إلى العالم الإسلامي، انظر: آدم متز، المرجع السابق: 1/300 ـ 301.

(54) صورة الأرض، ص106، وعن أصل الصقالبة ودورهم في الأندلس انظر: أحمد مختار العبادي، الصقالبة في إسبانيا وعلاقاتهم بحركة الشعوبية: مدريد، 1953.

إشبيلية في التراث العربي
دراسة في نشأة المدينة وفتحها وتوزيع القبائل العربية والبربرية فيها في العهد الأموي

نشر في مجلة المؤرخ العربي العدد 17، بغداد ـ 1981

يهدف هذا البحث بالدرجة الأولى إلى اعتماد المصادر العربية الأولية في دراسة إحدى كبريات مدن الأندلس الإسلامية، وهي إشبيلية Sevilla فيتناول جغرافيتها السياسية قُبيل الفتح العربي الإسلامي، وآراء واعتقادات المؤرخين والجغرافيين العرب في نشأة هذه المدينة وأقاليمها وظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وفي هذه المحاولة أيضاً دراسة مركزة عن فتح المسلمين للمدينة والظروف التي أحاطت بهذا الفتح، والعوامل التي أدت إلى إنجاحه ضمن الإطار العام لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية. كما توضح هذه الدراسة أيضاً دور المدينة في أوائل عصر الوُلاة، وتحاول أن تقدم صورة قريبة لواقع توزيع القبائل العربية

والبربرية، التي استقرت في المدينة وأطرافها أثناء الفتح الإسلامي وفيما بعد خلال فترة عصر الولاة.

يتفق معظم من كتب عن إشبيلية من المؤرخين والجغرافيين العرب، على أنها كانت مدينة قديمة أزلية، وأنها تعود بجذورها التاريخية إلى عصور سحيقة، ولكنهم يختلفون في اسم من بناها. فيذكر أحمد بن محمد الرازي في جغرافيته عن وصف الأندلس أنها بنيت في عهد ملك اسمه (Hercule) وأنها سمّيت باسم (Hispalis) أشبالي[1]. بينما يروي البكري، والحميري، أنها بنيت في عهد (يوليوش القيصر Julius Caesar وأن (أشبالي Hispalis) تعني (الأرض المنبسطة)[2]، أو (المدينة المنبسطة)[3]. وقد أُعجب (يوليوش القيصر) بموقع المدينة وانبساط أرضها، وطيب هوائها، وجبلها المعروف بالشرف، فردم على النهر الأكبر مكاناً وأقام فيه المدينة، وأحاطها بأسوار من صخر، وبنى في وسطها محلتين كبيرتين متقنتي البناء تعرفان بالأخوين، «وجعلها أم قواعد

(1) الرازي، أحمد بن محمد، وصف الأندلس، نشرها بالفرنسية ليفي بروفنسال تحت عنوان: Al - Razi, Ahmad, "La Description de l'Espagne d'Ahmad al - Razi", ed. Levi - Perovencal, Al - Andalus, Vol. XVII, 1953, P.94.

(2) البكري، أبو عبيد، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1968، ص107، الحميري، محمد بن عبد الله، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، نشر، ليفي بروفنسال، القاهرة، 1937، ص18.

(3) مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 85ج ص53، انظر أيضاً: العذري، أحمد بن عمر، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، ص65، وعن Hispalis؛ انظر أيضاً، ص171، وفي الحقيقة لا يعرف بالضبط فيما إذا كان الاسم Hispalis إيبيريا قديماً، أو فينيقيا، أو مشتقاً من مملكة Tartessus الأسطورية التي ظهرت في نهاية العهد البرونزي، قارن:

Encyclopedia Britannica, Vol. XIV, 15 th edition, 1974, p.580.

الأندلس، واشتق لها اسماً من اسمه ومن اسم رومية فسماها رومية يوليوش»[4]. ويورد المقرّي روايات أخرى عن بناء المدينة، فبالإضافة إلى رواية (يوليوش القيصر)، يذكر أن المدينة بنيت من قبل أحد ملوك عجم رومة، أشبان بن طيطش، الذي باسمه كانت قد سميت الأندلس إشبانية. وكان إشبانية اسماً خالصاً لإشبيلية التي كان يسكنها اشبان هذا. ثم غلب الاسم بعده على كل الأندلس[5]. ويوضح ابن عذاري هذا الأمر فيقول بأن الإشبانية هم من عجم رومة، وبهم سميت إشبيلية، فبنوها وسكنوها[6]. لكن المقري يعود فيذكر رواية أخرى ينسبها إلى كل من ابن حيان والرازي، والحجاري، تشير إلى أن مدينة إشبيلية بنيت في عهد ثاني قياصرة الروم اكتبيان Octavian المعروف باسم أوكتافيوس، فهو الذي أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس، فبنيت في عهده قرطبة Cordoba وإشبيلية وماردة Marida وسرقسطة Zargoza[7].

وبغض النظر عن هذه الروايات التي يقدمها الكتّاب العرب، فإننا نعلم بأن تاريخ المدينة يعود إلى ما قبل الرومان، وأغلب الظن أنها ربما كانت موجودة منذ أواخر العصر البرونزي، حيث ظهرت في نفس الموقع مملكة تدعى Tartessus، اشتهرت بالزراعة وتربية المواشي، واستخراج المعادن. واستمرت المدينة في الوجود في العهد القرطاجي، وكذلك في

(4) البكري، المصدر السابق، ص108، الحميري، ص19، المقّري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968، جـ1، ص157.

(5) نفس المصدر، جـ1، ص134، وانظر أيضاً: ذكر بلاد الأندلس: ص75.

(6) ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد، البيان المغرب، نشر، كولان وليفي بروفنسال ليدن، 1948، جـ2 ص2، وانظر أيضاً: الحميري، ص19.

(7) نفح الطيب، جـ1، ص481، والقيصر Octavianus وهو المعروف بقيصر أغسطس Augustus، أول أباطرة الرومان وليس الثاني كما يذكر المقّري، توفي سنة 14 ميلادية.

عهد الرومان الذين انتصروا على القرطاجيين في الحرب البونية الثانية عام 206 ق.م وفرضوا سيطرتهم على إسبانيا[8].

ومهما يكن من أمر بناء المدينة، فلقد عرف العرب أهميتها التاريخية، وكونها كانت مقراً للملك قبل غلبة القوط الغربيين على الأندلس، وأن من مضى من ملوك الأعاجم كانوا يتداولون بسكناهم أربع مدن أندلسية، وهي إشبيلية وقرطبة وماردة وطليطلة Toledo، ويقسمون أزمانهم فيها بحسب فصول السنة[9]. وأن مدينة إشبيلية كانت معظَّمة عند العجم أي الرومان، وقد أنجبت رجالاً تولوا القيادة العظمى والمملكة بمدينة روما[10]. مثال ذلك الأمبراطور أدريان Adrian والأمبراطور تراجان Trajan اللذان كانا من طالقة Italica القريبة من إشبيلية[11]. ويضيف الرازي أن سكان إشبيلية الأوائل كانت لهم معرفة جيدة عن العالم، ويشتهرون بالتنجيم، ومعرفة حوادث المستقبل[12]. وعلى الرغم من استقرار ملوك القوط الغربيين في طليطلة بعد سيطرتهم على البلاد، ظلت إشبيلية موطناً للعلماء والكتاب ورجال الدين المسيحيين[13].

أما بالنسبة للوضع الإداري للمدينة، فلقد ذكر لنا الجغرافيون العرب معلومات كثيرة يستند معظمها إلى ما كان سائداً في العصر الروماني. فالبكري على سبيل المثال يذكر التقسيم الإداري الروماني الأخير الذي تم في عهد دقلديانوس Diocletian فيسميه بـ (قسمة قسطنطين)، وهو يطابق

(8) قارن. Encyclopedia Britannica, Vol. xiv, 15th edition, P.5890.

(9) الحميري، ص20، نفح الطيب، جـ1، ص157، وانظر أيضاً: مجهول، أخبار مجموعة، نشر لافوينتي القنطرة، مدريد 1867، ص16.

(10) الحميري، ص19.

(11) العذري، ص97، الحميري، ص20.

(12) AL - Razi Op. Cit., P.94.

(13) ابن عذاري، جـ2، ص14، نفح الطيب، جـ1، ص269.

التنظيم الكنسي في إسبانيا، حيث تحتل إشبيلية، وناربونة Narbonne وغاليسية Galicia وطركونة Tarragona، وطليطلة، وماردة، مراكز الأسقفيات الدينية، إضافة إلى كونها في الوقت نفسه مراكز الإدارة المدنية للولايات[14]. وقد أدرك العرب أهمية المدن في العصر الروماني حيث كانت المدينة نواة للتقسيم الإداري والسياسي الروماني[15]، فلكل مدينة مناطق وأقاليم تتبعها إدارياً مع عدد من المدن الصغيرة الأخرى. والمدينة مع أحوازها وأقاليمها تشكل وحدة إدارية ومالية مستقلة. وهكذا برزت إشبيلية في كتابات الجغرافيين العرب - وحالها في هذا حال بقية المدن الرئيسة الأخرى - على أنها كورة يتبعها عدد من الأقاليم، منها إقليم المدينة، إقليم ألبة، إقليم السهل، إقليم البصل، إقليم الشعراء، إقليم طالقة، إقليم الشرف، إقليم الوادي، إقليم طشانة، إقليم الفحص، إقليم قرطشانة، وإقليم المنستير[16] وتمتد أحواز كورة إشبيلية ثلاثين ميلاً إلى الغرب حيث تختلط بأحواز كورة لبلة Niebla كما تمتد خمسين ميلاً إلى الشمال، وأربعين ميلاً إلى الجنوب والجنوب الشرقي حيث إقليم الفحص أما من ناحية الشرق فأحوازها تصل إلى أربعين ميلاً، حيث تختلط مع أحواز قرطبة التي تبعد عنها ما يقارب التسعين ميلاً[17].

---

(14) البكري، المصدر السابق، ص ص59 - 64.

(15) قارن: Manule Torres y Ramon Prieto Bances, in Historia de España, ed: Menendez Pidal, Madrid, 1955, Vol. II, P.379.

(16) البكري، المصدر السابق، ص114 - 115، ابن غالب، محمد بن أيوب، كتاب فرحة الأنفس، تحقيق: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، جـ1، قسم2، القاهرة، 1955 - 1956 ص ص292 - 293، العذري، ص109 وانظر أيضاً: ، ترجمة: ليفي بروفنسال الفرنسية الملحقة بكتاب الروض المعطار للحميري، ص251.

(17) العذري، ص109، ابن غالب، ص292 - 293 وانظر: AL - Razi, Op. Cit., P.94 ياقوت، شهاب الدين، معجم البلدان، بيروت، 1957، جـ1، ص195، الحميري ص18.

وتتفاوت أقاليم كورة إشبيلية في مساحاتها، فمنها ما يحتوي على عدد قليل من القرى، ومنها ما يضم مساحات وقرى عديدة. ولقد أسهب المؤرخون والجغرافيون العرب في وصف بعض هذه الأقاليم، وبشكل خاص إقليم الشرف Aljarafe، الذي يقع على بعد ثلاثة أميال غربي إشبيلية وسمي بالشرف لأنه مشرف على مدينة إشبيلية وكثيراً ما كان يطلق عليه اسم جبل الشرف، ويمتد أربعين ميلاً في مثلها من الجنوب إلى الشمال وهو جبل شريف البقعة، كريم التربة، دائم الخضرة، لا تكاد الشمس تنفذ فيه لالتفاف أشجاره، واشتباك غصونها. وتكثر أشجار الزيتون في هذا الإقليم الخصب ذي التراب الأحمر، فالسائر فيه لا يمشي إلا في ظل أشجار الزيتون التي تكوِّن المورد الرئيسي لسكانه. والزيت الناتج من هذه الأشجار، يعد من أفضل الزيوت، فهو مبارك عند اعتصاره، لا يتغير له لون ولا طعم مهما طال به الزمن وبعدت به المسافة. وكانت السفن تنقل هذا الزيت من ميناء إشبيلية على نهر الوادي الكبير إلى معظم موانىء البحر المتوسط وإلى المشرق فهو يكون عماد تجارة إشبيلية في مختلف العصور. وإضافة إلى الزيتون توجد هناك أشجار التين ومعظم الفواكه الأخرى التي تجعل من هذا الاقليم مكاناً ممتازاً للاستقرار، مأهولاً بالسكان. ولقد ذكر الحميري وجود ما يقارب الثمانية آلاف قرية في الشرف(18). وعلى الرغم من احتمال المبالغة في هذا العدد، خاصة أن المقّري يذكر مائتين وعشرين قرية فقط(19) لكن هذا يدل حتماً على أهمية منطقة الشرف الاقتصادية، وكثرة قراه الزراعية، بحيث أصبح في العهد

(18) الروض المعطار، ص19، 20، 101 ـ 102.

(19) نفح الطيب، جـ1، ص ص158 ـ 159، وعن جبل الشرف: انظر أيضاً AL - Razi, Op. Cit., P.93. العذري، ص ص95 ـ 96، البكري، المصدر السابق، ص114، ابن غالب، ص292 ياقوت، جـ1، ص195.

الإسلامي من أكثر المناطق كثافة بالسكان.

وإذا ما تركنا جبل الشرف جانباً، فإن إشبيلية تشتهر بمنتجات زراعية عديدة، فهناك التين الجيد، والعسل الممتاز الذي لا يترمل، ولا يتبدل بمرور الوقت، ويمتاز القطن الذي يزرع في أرض إشبيلية بالجودة وهي تنفرد بهذا المحصول عن بقية المناطق فينعم منها كل بلاد الأندلس، ويتجهز به التجار إلى شمال أفريقيا وغيرها من البلاد[20] وكل ما يزرع في منطقة إشبيلية ينمو بصورة جيدة، وبشكل خاص الحبوب. ولقد حازت هذه المنطقة كل مميزات البر والبحر، وفضلاً عما ذكرناه فيما سلف عن الزراعة، تشكل تربية الحيوانات مورداً هاماً للدخل، فمراعي كورة إشبيلية، كما يقول أحمد الرازي تكفي قطعان إسبانيا مجتمعة. وفي مناطقها الساحلية، وسهولها الفيضية يزرع قصب السكر بكميات كبيرة[21]، وبشكل خاص جنوبي المدينة في بساتين عرفت في العهد الإسلامي بجنات المصلّى[22]. وموقع المدينة على نهر الوادي الكبير هيأ لها مركزاً ممتازاً، فبفضل المد الذي يصعد في النهر لمسافة اثنين وسبعين ميلاً، أمكن للسفن الكبيرة أن تدخل من مصب النهر إلى ميناء المدينة الذي يعتبر من أفضل موانىء الأندلس. والوادي الكبير يضاهي دجلة والفرات والنيل، تسير فيه القوارب للنزهة والصيد تحت ظلال الأشجار ما يقارب أربعة وعشرين ميلاً وفيه أنواع لا تحصى من السمك[23]. وعلى مقربة من مصب النهر، وجانبه، توجد جزر كثيرة يحيط بها الماء، تكون دائمة

(20) العذري، ص96؛ AL - Razi, Op. Cit., P.93 الحميري، ص21.

(21) AL - Razi, Op. Cit., PP.93 - 94. انظر أيضاً العذري، ص 96.

(22) الحميري، ص21.

(23) ياقوت، جـ1، ص195. AL - Razi, Op. Cit., P.93 نفح الطيب، جـ1 ص ص157، 208، جـ3، ص212.

الخضرة والكلأ لنداوتها ورطوبة أرضها، فهي جيدة الإنتاج، وافرة الألبان، وبعضها قريب من البحر[24].

إن هذا النشاط التجاري والزراعي الذي يذكره الجغرافيون العرب، ما هو إلا امتداد لما كان سائداً في العهود الرومانية والقوطية. ولقد كان سكان شمال أفريقيا، وبشكل خاص البربر المواجهون للشواطىء الإسبانية على علم تام بهذا، بل كانت علاقاتهم التجارية وثيقة مع الموانىء الإسبانية عامة، ومنها إشبيلية بطبيعة الحال، كما عرفوا أيضاً طبيعة الوضع الاجتماعي، والإدارة السياسية الضعيفة التي كانت تسود في كل شبه الجزيرة الإيبيرية تحت ظل القوط الغربيين. ووضعية إشبيلية هنا لا تختلف عن وضعية بقية المدن والمناطق الأخرى، فلقد استمر القوط في نفس النظام الاجتماعي الذي كان سائداً في عهد الرومان، فالثروات كانت محصورة بيد القلة من الناس والمجتمع مقسم إلى طبقات ثلاث، وهي طبقة الملاك والنبلاء والطبقة العامة وطبقة العبيد[25]. وكانت الديانة المسيحية هي الغالبة على السكان، حيث أضحت الكنيسة ذات نفوذ كبير في البلاد، خاصة بعد أن وحَّدها ريكاريد Reccared (586 ـ 601م)، الذي اعتنق المذهب الكاثوليكي، فأصبح مذهب الدولة الرسمي في عهد القوط الغربيين منذ سنة 587م. وغدت مجالس الكنيسة التي تعقد في طليطلة ذات نفوذ وقوة سياسية ودينية كبيرة، ولكن سلطة الملك كانت كبيرة على

(24) الحميري، ص21.

(25) مجهول، فتح الأندلس، نشر، دون خواكين دي كونثاليث، الجزائر، 1889، ص7 ابن الشباط، محمد، صلة السمط وسمة المرط، تحقيق: أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، 1967 ـ 1968 جـ14، ص107، الحميري ص ص169 ـ 170، قارن أيضاً:

Thompson, The Goths ine Spain, Oxford, 1969, P.267.

هذه المجالس، حيث إن اجتماعاتها وقراراتها كانت لا تتم إلا حسب إرادته(26).

ولقد شكل اليهود طبقة أخرى من طبقات المجتمع في إسبانيا قبل الفتح حيث كانوا ينتشرون في المناطق المتقدمة من البلاد، وبشكل خاص في العاصمة طليطلة، وفي منطقة غرناطة Greneda، واليسانة Lucena، وبيانة Baena، وعلى سواحل البحر المتوسط، خاصة في منطقة طركونة(27). وفي إشبيلية أيضاً عاشت جالية يهودية كان لها دور بارز في التعاون مع العرب الفاتحين للمدينة(28). ولكن أحوال هؤلاء اليهود في كل المدن والمناطق التي كانوا يعيشون فيها، كانت سيئة للغاية، بسبب الاضطهاد الذي مارسه القوط الغربيون ضدهم(29). ولهذا فليس من الغريب أن نجدهم يرحبون بالعرب الفاتحين، ويتعاونون معهم في سبيل القضاء على الحكم القوطي في شبه الجزيرة الإيبيرية.

إن هذه الأوضاع كانت بطبيعة الحال أحد العوامل المشجعة للعرب

---

(26) Cf. Ibid, PP.281 - 82.

(27) عن تواجد اليهود في هذه المناطق، انظر: ابن حيان، حيان بن خلف، المقتبس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1965، ص149، أخبار مجموعة، ص ص12 - 16؛ الإدريسي، أبو عبد الله محمد، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر، دوزي ودي غويه، ليدن، 1866، ص191، ابن عذاري، جـ2 ص12، ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة 1964، جـ1، ص105، ذكر بلاد الأندلس، ص60، الحميري، ص134، نفح الطيب، جـ1 ص ص263 - 264.

(28) أخبار مجموعة، ص16، نفح الطيب، جـ1، ص269.

(29) عن اضطهاد القوط لليهود في إسبانيا انظر: Thompson, Op. Cit., PP.53, I. I, III, 160, 166, 236, 246 - 247, S. Katz, The jews in the Visigothic and Frankish Kingdoms of Spain and Gaul, New York, 1970, PP.116, 124; E. Ashtor, The Jews of Muslem Spain, translated from the Hebrew by Jenny Machlowits Klein and Aaron Klein, Philadelphia. 1973, Vol. I, PP.30 - 31.

والمسلمين على وضع خطة فتح إسبانيا موضع التنفيذ. فلقد كان القائد المحنك طارق بن زياد، في الجانب الآخر من المضيق في طنجة، على رأس حامية كبيرة من البربر الذين اعتنقوا الإسلام، بعد أن أخضع موسى ابن نصير معظم الشمال الأفريقي إلى سيطرة الدولة الأموية، وكانت نوازع الإيمان في صدور البربر المتحمسين للدين الجديد عاملاً آخر في حث طارق على العبور إلى إسبانيا، خاصة أن هؤلاء البربر، كما ذكرنا آنفاً، وكانوا على اطلاع سابق ومعرفة بخيرات شبه الجزيرة وأوضاعها. وهكذا كانت بدايات الفتح والعبور، ثم كانت المعركة الفاصلة بين طارق بن زياد ولذريق Roderic آخر ملوك القوط، في سهول كورة شذونة Sidonia في سنة 92هـ/ 711م.

يروي المقري نقلاً عن الرازي، بأن طارق بن زياد، بعد أن فتح شذونة عنوة، سار منها إلى مورور Moron de la Frontera ثم إلى قرمونة Carmona ومنها «مال إلى إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية»[30] ويضيف المؤلف المجهول لفتح الأندلس إلى هذه الرواية، أن طارقاً شرط على أهل إشبيلية خراب غربي القصر، ثم سار إلى إستجة Ecija[31]. ولكن بقية المصادر العربية تجمع على أن إشبيلية لم تفتح إلا من قبل موسى بن نصير، الذي عبر إلى إسبانيا بعد نحو عام من عبور طارق، وجاء مكمِّلاً للفتح الذي بدأ به طارق. وقد عسكر موسى بجيشه، الذي كان يربو على ثمانية عشر ألف مقاتل غالبيتهم من العرب، بالقرب من مدينة الجزيرة، الخضراء Algeciras، حيث عقد مؤتمراً حربياً مع قواده الذين بحثوا معه خطة سير الحملة واتجاهها. وقرر الجميع أن أفضل الخطط هي الاتجاه

(30) الرازي في نفح الطيب، جـ1، ص260.

(31) فتح الأندلس، ص7.

صوب منطقة إشبيلية، وغربي البلاد التي لم يتم فتحها بعد من قبل طارق ابن زياد[32]. فتقدم موسى نحو شذونة، ومنها إلى مدينة قرمونة الحصينة التي لم يفلح في فتحها إلا بعد استخدام حيلة حربية محنكة[33]. وبعدها سار موسى إلى مدينة إشبيلية، فضرب عليها الحصار، ولا نعرف بالضبط ظروف هذا الحصار أو مدته، إلا أن المصادر تذكر أنه استغرق شهوراً، تمكّن بعدها موسى من دخول المدينة عنوة، حيث هربت حاميتها القوطية إلى مدينة باجة Beja، التي تقع حالياً في جنوبي البرتغال[34]. ولا تتوفر لدينا أيضاً معلومات عن المدة التي قضاها موسى في المدينة. ولكن يبدو أنه لم يبق فيها فترة كافية، حيث ترك فيها حامية إسلامية تقوم، بالتعاون مع اليهود الموجودين في المدينة، بمهمة الحفاظ على الأمن والدفاع عن إشبيلية[35]. ثم غادرها إلى لقنت Fuente de Cantos ومنها إلى ماردة Merida التي كان عليه أن يحاصرها لفترة طويلة، وأن يناجز حاميتها في عدة مواقع قبل أن يتمكن من دخولها صلحاً[36].

ولكن الأمور في منطقة غربي الأندلس لم تكن تسير كما يرام بالنسبة إلى موسى بن نصير، فلقد تجمعت الفلول القوطية الهاربة من إشبيلية وغيرها من المدن المفتوحة في الغرب، في مدينتي لبلة Niebla وباجة. واستغلت هذه الفلول انشغال موسى بن نصير بحصار ماردة عام

(32) فتح الأندلس، ص13، الرسالة الشريفة، وهي جزء من كتاب رحلة الوزير، لمحمد بن عبد الوهاب الغساني، نشرت ملحقاً لكتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية، ص ص197 ـ 198، انظر أيضاً: الغساني، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، مخطوط المكتبة الوطنية في مدريد رقم (5304)، ص9.

(33) أخبار مجموعة، ص16.

(34) نفس المصدر ص16، ابن عذاري، ج2، ص14، نفح الطيب، ج1، ص269.

(35) أخبار مجموعة، ص16، نفح الطيب، ج1، ص269.

(36) أخبار مجموعة، ص ص16 ـ 18.

94هـ/ 713م، فهاجمت إشبيلية، واستطاعت بمساعدة سكانها، أن تقتل ما يقرب من ثمانين رجلاً من حامية المسلمين وأن تلجئ الباقين إلى الفرار. وحينما وصل المنهزمون إلى موسى أرسل ابنه عبد العزيز لإعادة فتح المدينة، ففتحها وأعادها إلى السيطرة الإسلامية، ثم طارد فلول القوط إلى مدينة لبلة غربي إشبيلية، التي سقطت بيده أيضاً، فرجع إلى إشبيلية وأقام بها[37]، بينما واصل والده زحفه والاتصال بجيش طارق بالقرب من طليطلة، حيث توجّها من هناك لاتمام فتح المناطق الشمالية الشرقية، والشمالية الغربية من شبه الجزيرة الإيبيرية.

ولما استدعي الخليفة الوليد بن عبد الملك كُلاً من موسى بن نصير، وطارق بن زياد إلى دمشق سنة 95هـ/ 714م، عاد موسى بن نصير من الشمال إلى إشبيلية بعد أن أكمل فتح معظم شبه الجزيرة الإيبيرية، باستثناء بعض المناطق في الشمال الغربي، ثم عين ابنه عبد العزيز حاكماً على الأندلس. وأصبحت إشبيلية مقراً لإمارته بسبب قربها من البحر ومن مضيق جبل طارق وجعلها قاعدة بحرية للمسلمين في الأندلس[38]. وترك موسى مع ابنه بعض القادة الكبار مع عشائرهم لمساعدته في إدارة شؤون البلاد، ومن هؤلاء: حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وهو أحد أحفاد عقبة ابن نافع، وزياد بن النابغة التميمي، وزياد بن عذرة البلوي[39].

وتوزعت بقية العشائر العربية التي جاءت مع موسى بن نصير في أنحاء شبه الجزيرة الإيبيرية على طول خطوط الفتح، وكذلك عشائر البربر

---

(37) نفس المصدر، ص18، ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، بيروت، 1965 ـ 1966، جـ4، ص ص564 ـ 565 ابن عذاري، جـ2، ص15 نفح الطيب، جـ1، ص271.

(38) أخبار مجموعة، ص19، نفح الطيب (رواية ابن حيان) جـ1، ص276، الرسالة الشريفة، ص210.

(39) أخبار مجموعة، ص20 فتح الأندلس، ص17، ابن عذاري، جـ2، ص ص23 ـ 24.

التي رافقت طارق بن زياد. وهؤلاء هم طلائع الفتح المسلمة الأولى التي فتحت الأندلس ثم سكنتها، ويطلق عليهم (البلديون) أي إنهم أصحاب البلد وفاتحوه. وهم يختلفون عن الطالعة الثانية المسماة بطالعة بلج بن بشر، الذين عرفوا بالشاميين، فقد دخلوا واستقروا في البلاد بحدود سنة 125هـ/ 742م كما سنرى فيما بعد.

ويعدُّ الفهريون من قريش من أشهر أعيان البلديين الذين استقروا في إشبيلية، فبالرغم من رجوع بعض قادتهم إلى شمال أفريقية بعد مقتل عبد العزيز بن موسى، مثل حبيب بن أبي عبيدة الفهري(40). بقي عدد آخر منهم في البلاد. ومن أبناء هؤلاء، عبد الله بن الأشعث، الذي سكن إشبيلية في ربض سمي على اسمه «ربض عبد الله بن الأشعث القرشي». وقد تولى هذا قضاء المدينة في عهد الأمير هشام بن معاوية سنة 173هـ/ 789م واستمر إلى عهد الحكم بن هشام حيث عزل سنة 182هـ/ 798م(41). ومن أعيان قريش أيضاً، بنو زهرة، الذين ينتمون إلى عبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، الصحابي الجليل، حيث كانوا بإشبيلية أعياناً متميزين(42). وظل نسلهم شهيراً بالفضل والعلم في المدينة إلى وقت متأخر(43).

ومن القبائل العربية التي سكنت مدينة إشبيلية أيضاً، مذحج وجذام

---

(40) انظر: الحميدي، أحمد بن محمد، جذوة المقتبس، القاهرة، 1966، ص199.

(41) ابن حيان، المقتبس، نشر، ملشور أنطونية، باريس، 1937، ص ص68، 75، ابن الأبار، محمد بن عبد الله، التكملة لكتاب الصلة، نشر، عزت العطار، القاهرة 1955 ـ 1956، ج2، ص774، الأنصاري، أبو عبد الله محمد، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1964، السفر الرابع، ص184.

(42) ابن غالب، في نفح الطيب، جـ1 ص290.

(43) الأنصاري، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق: محمد بن شريفة، بيروت ص ص290 ـ 291، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1965، ص ص162 ـ 164، 248 ـ 249، القسم الثاني ص670، وانظر =

من اليمن[44]. والبلويون من قضاعة بزعامة زياد بن عذرة البلوي، الذي شارك في قتل عبد العزيز بن موسى[45]. وذكر أحمد الرازي في كتابه المفقود **الاستيعاب** أن جماعة من قبيلة غافق اليمنية سكنت أيضاً في المدينة، وهم ينتمون إلى زيد بن منخل الغافقي، وكانوا من الفرسان البلديين الذين لهم شرف قديم وتصرف في خدمة الدولة، وقد انتقل هؤلاء فيما بعد إلى طليطلة، ثم قرطبة وغرناطة[46]. واشتهر من غافق أيضاً، بنو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، والي الأندلس الشهير، الذين سكنوا في قرية تدعى مرنانة الغافقيين من شرق إشبيلية، على نهر الوادي الكبير[47]. وكان لقبيلة خولان اليمنية حي خاص في المدينة، يسمى بالخولانيين، سكنه رجال القبيلة الأوائل الذين دخلوا زمن الفتح[48]. كما نزل البعض الآخر من أفراد هذه القبيلة في قلعة مشهورة تقع بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية، وتسمى بقلعة خولان[49].

ومن القبائل اليمنية الأخرى التي استوطنت إشبيلية وأقاليمها، قبيلة

= أيضاً، ابن الفرضي عبد الله بن محمد، تاريخ علماء الأندلس، القاهرة، 1966، القسم الأول ص290.

(44) ابن حزم، علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1962 ص ص412، 421، ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن محمد، صلة الصلة، تحقيق: ليفي بروفنسال، الرباط، 1938، ص ص100 ـ 101، 135، 136.

(45) ابن عذاري، جـ2، ص2، نفح الطيب، جـ1، ص297.

(46) ابن الخطيب، لسان الدين محمد، الإحاطة في أخبار غرناطة (رواية الرازي)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973، جـ2، ص133.

(47) ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر، تاريخ افتتاح الأندلس، نشر، خوليان رايبيرا، مدريد، 1926، ص ص13، 76، جمهرة الأنساب، ص329، المقتبس، تحقيق: محمود علي مكي، بيروت، 1973، ص141. وقد ورد اسم هذه القرية بأشكال ثلاثة فهي مرنانة عند ابن القوطية، ومرنيانة عند ابن حزم، ومرجانة عند ابن حيان.

(48) الأنصاري، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول ص487.

(49) نفح الطيب، جـ1، ص295.

معافر، التي نزلت في مكان جنوبي المدينة يدعى قرية كنتش معافر(50). ويبدو أن هذه القبيلة قد دخلت الأندلس بعد زمن الفتح فأعطيت هذه المنطقة التي تعتبر من أملاك أو من أخماس الخلافة، لسكناها. ويدل على ذلك أن كلمة كنتش، ما هي إلا تحريف للكلمة اللاتينية Quintus (بالإسبانية Quinto)، والتي تعني الخمس(51) ومن الجدير بالذكر أن سياسة توزيع أراضي الأخماس على القبائل العربية الداخلة بعد الفتح، اتُبعت منذ زمن الوالي السمح بن مالك الخولاني (100 ـ 102هـ/ 718 ـ 720م) وذلك لمواجهة رفض البلديين المستمر لإعطاء أراضيهم أو أجزاء منها لإسكان الوافدين الجدد إلى الأندلس(52).

واستقر في قرية قريبة من إشبيلية تدعى شوش الأنصار جماعات من الأنصار يعودون إلى كل من الأوس والخزرج(53). ويبدو أن هؤلاء استفادوا من منطقتهم هذه لأنها كانت غنية بمناجم الملح، ويدل على ذلك أن كلمة شوش مشتقة من اللاتينية Salsus (Salso بالقشتالية القديمة) والتي تعني الملح، وقد كان في هذا المكان أيضاً وادٍ يطلق عليه اسم نهر شوش أو وادي شوش(54).

ويعتبر عدد القبائل البربرية التي استقرت في مدينة إشبيلية في أعقاب

(50) ابن القوطية؛ ص64، وانظر أيضاً: الزبيدي، محمد الحسن، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1954، ص333، وابن الفرضي، القسم الأول، ص18 حيث ورد ذكر أحد هذه القبيلة من أهل إشبيلية.

(51) F.J. Simonet, Glosario de voces Ibericas y Latinas usandas entre los mozarabes, Amsterdam, 1967, reprint of Madrid edition, 1888, PP.474 - 475.

(52) انظر: Abdulwahid. D. Taha, The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain, unpuplished ph. D. thesiss, University of Exeter, 1978, 197, 206.

(53) جمهرة الأنساب، ص ص343، 364 ـ 365.

(54) Simonet, Op. Cit., P.586.

=

الفتح ضئيلاً إذا ما قورن بالعرب. ومعظم المصادر المتوفرة لدينا تشير إلى استيطان البربر في أطراف المدينة وفي أماكن بعيدة عنها. فقد كان هناك تجمع كبير للبربر في غرب وشمال المدينة، وبشكل خاص في أحوازها العربية التي تختلط مع أحواز كورة لبلة وكان لهؤلاء دور كبير في تأييد القبائل اليمانية العربية في صراعها مع عبد الرحمن الداخل (138 ـ 172هـ/ 756 ـ 788)[55] واشتهر من زعماء هؤلاء البربر عدي بن موسى الزناتي، الذي ثار مع حيوة بن ملامس في إشبيلية سنة (154 ـ 156هـ/ 770 ـ 771م)[56]. ومن بربر زناتة أيضاً، بنو الليث، الذين سكنوا حصن شذفيلة Siete Filla من أقاليم إشبيلية، الذي كان يعد معقلاً للبربر[57].

وكذلك بنو الخروبي، الذين أقاموا في لقنت، إلى الشمال من إشبيلية[58] وأغلب الظن أن هؤلاء البربر هم الذين تخلفوا في هذه المنطقة بعد أن مر بها موسى بن نصير في طريقه إلى ماردة، أو أنهم من أولئك الذين تدفقوا على الأندلس من شمال أفريقيا بعد سماعهم بخبر انتصار جيش طارق بن زياد على ملك القوط. وإلى الشرق من إشبيلية كان هناك تجمع آخر للبربر، فقد اشتهرت قرمونة بالعديد من البربر البرانس، الذين شكلوا في المدينة قوة كبرى استمرت خلال عهد الإمارة، وبشكل خاص

= انظر أيضاً: أخبار مجموعة؛ ص110، المقتبس، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، ص129؛ P. Madoz, Diccionario geografica - estadistico - historico de España Y sus posesiones de Ultramar, Madrid, 1848 - 1850 Vol. VIII P. 601.

(55) أخبار مجموعة، ص108؛ ابن عذاري، جـ2 ص ص51، 53.

(56) العذري، ص101.

(57) نفس المصدر، ص ص106، 176، جمهرة الأنساب؛ ص499؛ مجهول، مفاخر البربر، نشر، ليفي بروفنسال، الرباط، 1937، ص79، الإدريسي، المصدر السابق ص207.

(58) جمهرة الأنساب؛ ص499، مفاخر البربر، ص79.

في عهد الأمير عبد الله بن محمد (275 ـ 300هـ/ 888 ـ 921م)[59]. وفي أستجة وباديتها. سكنت قبائل أخرى من صنهاجة وغيرها[60]. كما استوطنت في مرشانة Marchena من كورة إشبيلية، وتقع بين قرمونة وأستجة، جماعات من هوارة، منهم بنو جهور المرشانيون[61] أما أشونة Osuna، التي تبعد نحواً من ستة وثمانين كيلو متراً شرقي إشبيلية، فكانت مقراً لبني طاهر بن مناع، وبني عبد الوهاب، من قبائل صنهاجة[62]، كما كانت هذه المدينة أيضاً موطناً لبني طريف من مصمودة[63]. وسكنت جماعات من قبيلة مغيلة البربرية في قرية سميت باسمها (قرية مغيلة)، تقع ضمن عمل قلعة ورد التابعة لإشبيلية[64].

وإلى الجنوب الشرقي من المدينة، عاشت مجموعات أخرى من البربر في مورور Moron de la Frontera، وهم من البتر والبرانس من مختلف القبائل[65]، وبخاصة من هوارة، حيث برز من هؤلاء أبو موسى الهواري، الذي كان فقيهاً وعالماً في أوائل عصر الإمارة[66]. أما أشهر قادة البربر في مورور، فهو إبراهيم بن شجرة البرنسي، الذي كان عاملاً

(59) المقتبس، نشر، انطوانية، ص ص68، 70؛ وانظر أيضاً: العذري، ص103، الإدريسي، ص206.

(60) ابن الفرضي، القسم الأول، ص ص136، 191 ـ 192، 339؛ ابن عذاري، جـ2، ص70.

(61) جمهرة الأنساب، ص500.

(62) نفس المصدر، ص502؛ انظر أيضاً، مفاخر البربر، ص78.

(63) نفس المصدر، ص80؛ جمهرة الأنساب، ص500.

(64) المغرب في حلي المغرب، جـ1، ص313؛ انظر أيضاً: الحميدي، جذوة المقتبس، ص392.

(65) انظر: ابن القوطية، ص ص27 ـ 28، 67، المقتبس، نشر، انطوانية، ص68.

(66) الزبيدي، المصدر السابق، ص ص275 ـ 276؛ ابن الأبّار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، 1963، جـ1، ص42؛ وانظر أيضاً: أخبار مجموعة، ص120؛ ابن الفرضي، القسم الأول، ص ص257 ـ 258، 288.

على مورور في أواخر عهد الولاة، وأيد عبد الرحمن الداخل وبايعه حين قدومه إلى الأندلس وتأسيسه للإمارة الأموية فيها[67].

ظلت إشبيلية محتفظة بمركزها عاصمة للبلاد طيلة عهد عبد العزيز ابن موسى (95 ـ 98هـ/ 713 ـ 717م). ولكن عبد العزيز حاول التقرب من أهل البلاد الأصليين وكسب جانبهم، وتزوج من أرملة لذريق، مما أثار مخاوف قادة الجند العرب وحلفائهم البربر، الذين اعتقدوا بأن هذا التساهل ربما سيؤثر في امتيازاتهم الجديدة، وسيطرتهم على الأراضي، فأخذوا يطلقون الشائعات حول تصرفاته الشخصية، واحتمال تنصره، واستقلاله بالبلاد، ثم دبروا قتله معلنين أنهم إنما فعلوا ذلك باسم الخليفة سليمان بن عبد الملك في دمشق[68]. بعد مقتل عبد العزيز، اختار الجند أيوب بن حبيب اللخمي، ابن أخت موسى بن نصير، أميراً عليهم، ثم نقلوا مقر العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة[69].

وبهذا ابتعدت إشبيلية عن مركز الأحداث في البلاد إلى أن دخلت موجة جديدة من العرب إلى الأندلس. وكان هؤلاء قد جاءوا من بلاد الشام ضمن جيش كبير أرسله الخليفة عبد الملك بن مروان للقضاء على تمرد البربر في شمال أفريقيا. ولكن الهزيمة لحقت بهذا الجيش (124هـ/ 741م)، واستطاع أحد قادته بلج بن بشر القشيري، أن ينهزم بجزء منه إلى

(67) أخبار مجموعة، ص78؛ فتح الأندلس، ص53؛ ابن الأثير، جـ5، ص494؛ ابن عذاري، ج2، ص47.

(68) عن ظروف مقتل عبد العزيز بن موسى، انظر: أخبار مجموعة، ص20، فتح الأندلس، ص ص21 ـ 22؛ ابن القوطية، ص11؛ ابن الأثير، جـ5، ص22؛ ابن عذاري، جـ2، ص24.

(69) أخبار مجموعة، ص21؛ ابن الأثير، جـ5، ص489؛ ابن عذاري، جـ2، ص225؛ نفح الطيب، جـ3، ص14. (وفي هذين المصدرين الأخيرين أيضاً رواية أخرى تقول بأن نقل العاصمة تم في عهد الوالي التالي، أي الحر بن عبد الرحمن الثقفي، انظر أيضاً: فتح الأندلس، ص23).

مدينة سبتة Ceuta، ومنها حاول أن يدخل الأندلس، وبعد ممانعة قوية اضطر الوالي عبد الملك بن قطن الفهري، زعيم البلديين في الأندلس إلى إدخال هؤلاء القبائل الشامية الذين كان يقدر عددهم بنحو عشرة آلاف رجل وذلك لمساعدة أهل الأندلس في القضاء على تمرد مماثل للبربر في الأندلس نفسها. ولكن بعد القضاء على التمرد، رفض الشاميون مغادرة البلاد وحدثت حرب أهلية راح ضحيتها كل من عبد الملك بن قطن، وبلج بن بشر، الذي تولى ولاية الأندلس لفترة قصيرة. ولم تنته هذه الحروب الأهلية بين البلديين والشاميين إلا بدخول الوالي الحسام بن ضرار الكلبي، الملقب بأبي الخطار (125 ـ 127هـ/ 742 ـ 744م) إلى الأندلس ممثلاً للخلافة الأموية فيها. وقد حاول هذا أن يوفق بين البلديين الذين كانوا يرفضون بإصرار التنازل عن بعض امتيازاتهم وأراضيهم لصالح القادمين الجدد، وبين الشاميين الذين امتنعوا عن مغادرة البلاد. ويبدو أن الخلافة الأموية كانت تريد بقاء هؤلاء في الأندلس للدفاع عنها، فعمل أبو الخطار على إسكان الشاميين في مناطق خارج قرطبة وأقطعهم ثلثي أراضي سكان البلاد الأصليين من أهل الذمة وهكذا استقر الشاميون في هذه الأراضي بزعامة قادتهم، معتمدين على خيراتها الموفورة، مقابل الالتزام بخدمة البلاد والدفاع عنها وقت الحاجة(70).

أما طريقة استقرارهم في هذه المناطق، فكانت مشابهة لتجمعات جندهم الأصلية في بلاد الشام، فسكن جند دمشق في البيرة Elvira، وجند حمص في إشبيلية، وجند الأردن في رية Reyio، (محافظة مالقة Malaga)، وجند فلسطين في شذونة، وجند قنسرين في جيان jaen وجند مصر في باجة وبعضهم في تدمير (محافظة مرسية Murcia)، وقد سميت

(70) الإحاطة في أخبار غرناطة، (رواية ابن حيان)، جـ1، ص ص102 ـ 103.

هذه المناطق بالكور المجندة، وأعطيت الأسماء نفسها لمراكز الجند الأصلية في بلاد الشام[71]. وفيما تبقى من هذا البحث محاولة لبيان توزيع أهم قبائل جند حمص على كورة إشبيلية.

تحتل القبائل اليمنية موقع الصدارة في جند حمص، ومع هذا فهناك إشارات في مصادرنا العربية إلى سكنى بعض القيسيين أيضاً في منطقة الشرف غربي إشبيلية[72]. فقد ذكر ابن حزم جماعات من غطفان نزلوا في قرية قرشانة من الشرف[73]. كما أورد أيضاً معلومات عن استقرار فرع من بني مرة في إشبيلية نفسها، وهم بنو عرف بن مرة بن ديسم[74]. وكذلك بنو سلول الذين استوطنوا في نواحي لبلة غربي إشبيلية[75]. ولدينا اسم شخص من قبيلة ثقيف القيسية، ذكره ابن حيان على أنه من جند حمص، وهو تمام ابن علقمة الثقفي[76] الذي دخل الأندلس في طالعة بلج بن بشر ثم لعب دوراً هاماً في تأييد قضية عبد الرحمن الداخل، وقاتل معه، ثم ولي له ولأبنائه من بعده، الحجابة والقيادة، وتوفي سنة 196هـ/ 811م[77].

أما أشهر القبائل اليمنية في جند حمص، فهي لخم، وحضرموت

(71) ابن القوطية، ص20؛ أخبار مجموعة، ص46؛ ابن الأثير، جـ5، ص491؛ الحلة السيراء، جـ1، ص ص61 ـ 63؛ ابن عذاري، جـ2، ص33؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، جـ1، ص ص102 ـ 104؛ نفح الطيب، جـ1، ص237.

(72) الأنصاري، المصدر السابق، السفر الرابع، ص ص174 ـ 175.

(73) جمهرة الأنساب، ص249.

(74) نفس المصدر، ص ص254 ـ 255؛ انظر أيضاً: ابن القوطية، ص105؛ الخشني، محمد ابن حارث، قضاة قرطبة وعلماء أفريقية، نشر، عزت العطار، القاهرة، 1952 ص ص70 ـ 71.

(75) جمهرة الأنساب، ص272.

(76) المقتبس، تحقيق: محمود علي مكي، ص179.

(77) ابن القوطية، ص24؛ أخبار مجموعة، ص ص74 ـ 82، 103 ـ 104؛ الحلة السيراء، جـ1، ص143؛ ابن عذاري، جـ2، ص ص45، 48، 63، 73.

ويحصب، وحمير، وكلاع، ثم قبائل كلب التي تعود إلى قضاعة. وعلى الرغم من أن موررور، وما حولها جنوب شرقي إشبيلية، كانت الموطن الرئيس للكلبيين[78]، فإن قسماً كبيراً من هؤلاء سكنوا في منطقة إشبيلية ولبلة أيضاً، حيث كانوا هناك بقيادة عبد الرحمن بن نعيم الكلبي، الذي كان له دور كبير في دعم وتأييد أبي الخطار الكلبي، والي الأندلس[79].

ومن زعماء الكلبيين أيضاً، ملهب الكلبي الذي برز في جند حمص خلال عهد عبد الرحمن الداخل[80]، وكذلك عنبسة بن سحيم الذي دخل الأندلس والياً عليها من قبل حاكم شمال أفريقيا في سنة 103هـ/ 721م[81] وعند دخول أبي الخطار الكلبي إلى الأندلس عام 125هـ/ 742م، رافقته جماعات من كلب، استقر قسم منهم في إشبيلية نفسها[82] وفي قرية مجاورة في منطقة الشرف تسمى طليطلة[83].

ومن قبائل حمير في جند حمص، بنو هوزون، الذين سكنوا في إشبيلية وفي قريتين تعرفان باسمهما في منطقة الشرف[84]، وكذلك بنو حراز، الذين استوطنوا لبلة[85]. والألهانيون الذين دخلوا الأندلس بزعامة عمران بن منير، واستقروا في إشبيلية نفسها حيث برز منهم فيما بعد يحيى

(78) العذري، ص101؛ ابن الأبّار؛ التكملة، جـ1، ص311.
(79) أخبار مجموعة، ص58؛ ابن عذاري، جـ2، ص35؛ نفح الطيب، جـ3، ص24.
(80) أخبار مجموعة، ص107.
(81) ابن القوطية، ص13؛ أخبار مجموعة، ص24؛ فتح الأندلس، ص26؛ ابن عذاري، جـ2، ص27.
(82) جمهرة الأنساب، ص457.
(83) ابن الأبّار، التكملة، جـ1، ص ص116 ـ 117؛ الأنصاري، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ص86 ـ 87.
(84) جمهرة الأنساب، ص434؛ ابن غالب في نفح الطيب، جـ1، ص292.
(85) جمهرة الأنساب، ص435.

بن معمر بن عمران الألهاني الذي ولي قضاء قرطبة في عهد عبد الرحمن الثاني (206 ـ 238هـ/ 822 ـ 852م) وكانت حارته في طرف إشبيلية تعرف بحارة مغرانة[86]. ويذكر ابن حزم أسرتين يمنيتين تنتسبان إلى كهلان بن سبأ سكنتا في إشبيلية وهما بنو يريم، وبنو بشتغير[87]، ولكن الاسم الأخير يشير إلى أن هؤلاء ربما كانوا من البربر وليسوا من أصل عربي.

ويبدو أن عدداً لا بأس به من الكلاعيين قد دخلوا الأندلس ضمن جند حمص لأن المصادر تشير إلى اثنين من قادة هؤلاء، وهما سالم بن معاوية الكلاعي، وعبد الواحد بن سويد الكلاعي، اللذان ثارا في منطقة لبلة وإشبيلية في عهد عبد الرحمن الداخل[88]. ولكن تجمعات قبائل يحصب كانت حتماً أكبر بكثير من هؤلاء، حيث كان يترأس اليحصبيين أبو الصباح يحيى بن يحيى اليحصبي، الذي يعتبر شيخ اليمانية في منطقة غربي الأندلس وكان مسكنه في قرية مورة من شرف إشبيلية[89]. وفي أواخر عهد الولاة كان أبو الصباح الزعيم والحاكم الفعلي لإشبيلية وقد بايع عبد الرحمن الداخل وأيده حين مروره بإشبيلية، وكان هو وجميع العشائر اليمنية التي تتبعه في الغرب السبب الكبير في نجاح عبد الرحمن في تولي إمارة الأندلس سنة (138هـ/ 755 ـ 756م)[90]. وبعدها عين أبو

---

(86) نفس المصدر، ص433؛ الخشني، قضاة قرطبة، ص ص70 ـ 71؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص379؛ ابن الفرضي، القسم الثاني، ص178؛ المقتبس، تحقيق: مكي، ص54؛ النباهي، أبو الحسن بن عبد الله، تاريخ قضاة الأندلس، (المرقبة العليا)، نشر ليفي بروفنسال، بيروت (بدون تاريخ)، ص ص44 ـ 45.

(87) جمهرة الأنساب، ص392.

(88) أخبار مجموعة، ص105؛ العذري، ص101.

(89) ابن القوطية، ص ص21 ـ 22.

(90) نفس المصدر، ص22؛ أخبار مجموعة، ص84؛ فتح الأندلس، ص53؛ نفح الطيب، ج3، ص33.

الصباح والياً على إشبيلية، لكن سياسة الأمير الأموي عبد الرحمن التي كانت ترمي إلى الحد من سلطة رؤساء العشائر العربية، جوبهت بالمقاومة من قبل أبي الصباح وبقية زعماء اليمنيين، الذين ثاروا تباعاً وفي بقاع مختلفة من غربي الأندلس، ومن هؤلاء اليحصبيين الذين كانوا قادة في جند حمص في لبلة، عبد الغافر اليماني اليحصبي(91).

وتشكل العشائر التي تنتمي إلى حضرموت نسبة كبيرة من جند حمص في منطقة إشبيلية وأطرافها. فهم في هذه الكورة على حد تعبير أحمد الرازي، أكثر من أن يحصوا في كتابه **الاستيعاب**(92). والحقيقة أن أكثر سكان منطقة الشرف غربي إشبيلية كانوا من حضرموت(93). وقد برز من قادتهم حيوة بن ملامس الحضرمي، الذي ثار على عبد الرحمن الداخل(94)، وخالد بن عثمان بن هاني، المعروف بخلدون، الذي نزل في قرمونة زمن فتح، ثم انتقلت ذريته إلى إشبيلية، وبرزوا فيها خاصة في عهد الأمير عبد الله بن محمد. وإلى هذه الأسرة ينتسب ابن خلدون المؤرخ والفيلسوف العربي الشهير(95). ومن حضرموت أيضاً، بنو عصفور

(91) عن ثورات هؤلاء اليمانيين وموقفهم من عبد الرحمن الداخل انظر: أخبار مجموعة ص ص105 ـ 107 ـ 108؛ العذري، ص ص101 ـ 111، فتح الأندلس، ص ص63 ـ 65؛ ابن الأثير، جـ5، ص ص588 ـ 589؛ ابن عذاري، جـ2، ص ص51، 53 ـ 54، نفح الطيب، جـ3، ص48.

(92) ابن الأبّار، التكملة، (رواية أحمد الرازي) جـ1، ص283.

(93) المقتبس، نشر، انطوانية، ص69.

(94) العذري، ص101؛ أخبار مجموعة، ص ص107 ـ 108، فتح الأندلس، ص ص65 ـ 66؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص198؛ الحلة السيراء، جـ1، ص36؛ ابن عذاري جـ2، ص51؛ ابن الأبّار، التكملة، جـ1، ص ص282 ـ 283.

(95) جمهرة الأنساب، ص460؛ ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب التعريف بابن خلدون، منشور مع كتاب العبر، جـ7، (بيروت، 1956 ـ 1961)، ص ص795 ـ 796، 798؛ انظر أيضاً: ابن القوطية، ص105، المقتبس، نشر انطوانية، ص69.

في إشبيلية[96]، والقاضي معاوية بن صالح الحضرمي من حمص، الذي دخل الأندلس عام 125هـ/ 742م، وسكن مالقة ثم إشبيلية، وتولى القضاء لعبد الرحمن الداخل[97].

ويعد اللخميون من أهم القوى اليمنية في إشبيلية من حيث تأثيرهم المستمر على المنطقة، وعلى مقدرات المدينة طيلة العهد الأموي، وتشير المصادر إلى جماعات كثيرة منهم سكنت في إشبيلية، مثل آل النمارة[98]، وكذلك إلى أفراد دخلوا أثناء الفتح من أمثال، حارث بن عمر اللخمي[99]، وسماعة اللخمي[100]، وثوابة بن عدي اللخمي، الذي كان له منزل آخر في قرية في الشرف تدعى آش. ويذكر ابن حزم بأن أحد أبناء ثوابة، عمر، سكن في قرية أخرى يقال لها لبص، تقع في إقليم البصل التابع لإشبيلية[101]. ومن تجمعات لخم القبلية الأخرى التي سكنت بالقرب من إشبيلية، بنو بحر، وهم فخذ من لخم، استقروا في قرية البحريين شرقي إشبيلية[102]، ويطلق على هذه القرية أيضاً اسم «بلة نوبة البحريين» ويبدو أن هذا المصطلح ما هو إلا تحريف للكلمتين اللاتينيتين Villa و Nova اللتان تعنيان القرية، أو المدينة الجديدة، مما يدل على أن بني بحر هؤلاء جاءوا مؤخراً إلى البلاد وسكنوا بعد الفتح، ربما في عهد

(96) جمهرة الأنساب، ص ص460 ـ 461.

(97) ابن القوطية، ص34؛ الخشني، قضاة قرطبة، ص ص30 ـ 35؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص339، ابن الفرضي، القسم الثاني، ص ص138 ـ 140؛ ابن عذاري، ج2، ص48، النباهي، المصدر السابق، ص43.

(98) جمهرة الأنساب، ص424.

(99) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف، كتاب الصلة، القاهرة، 1966، م2، ص512.

(100) ابن الأبّار، التكملة، ج2، ص891؛ الأنصاري، المصدر السابق، السفر الخامس، القسم الثاني، ص686.

(101) جمهرة الأنساب، ص423.

(102) نفس المصدر، ص445.

الولاة، ويطلق على هذه القرية الآن اسم Bernes، وهي تقع في منطقة طشانة Tocina قرب إشبيلية(103).

ومن زعماء لخم المتنفذين الذين استقروا في مدينة إشبيلية، سعيد، أو الأسعد بن لوذان، الذي تزوج ابنه، عمير، من سارة القوطية، ابنة الموند Olmond أكبر أولاد غيطشة Witiza ملك القوط، فأصبح حبيب بن عمير، وهو ثمرة هذا الزواج، الجد الأعلى لكثير من الأسر اللخمية المتنفذة في إشبيلية وقرمونة، مثل: بني حجاج، وبني سعيد، وبني مسلمة، وبني حجز الجُرز(104). وقد لعب هؤلاء، وخاصة بني حجاج، وبني مسلمة، دوراً كبيراً في إشبيلية وقرمونة، واستطاعوا أن يسيطروا عليها أثناء الفتنة في عهد الأمير عبد الله بن محمد(105).

ويعد بنو عباد من أهم اللخميين في المنطقة، فقد استطاعوا بقيادة القاضي محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد، أن يستقلوا بإشبيلية، ويشكلوا فيها دولة دامت نحواً من سبعين عاماً (414 ـ 484هـ/ 1023 ـ 1091م). ويعود أصل بني عباد إلى جدهم الأعلى عطاف بن نعيم، الذي دخل هو وعشيرته الأندلس مع بلج بن بشر القشيري، وسكن ضمن جند حمص في قرية يامين، في منطقة طشانة، على نهر الوادي الكبير في

---

(103) ابن القوطية، ص26؛ وقارن R. Dozy, Spanish Islam, English translation from Histoire Musulmans d'Espange, by F.G. stokes, London, 1913, P.187, Simonet, Op. Cit, P.566; A.D. Taha. Op. Cit, P.192, 234.

(104) ابن القوطية (رواية عبد الملك بن حبيب)، ص6؛ جمهرة الأنساب، ص ص424 ـ 425؛ المقتبس، نشر، أنطونية، ص131، العذري، ص103.

(105) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأسرة ودورها في إشبيلية، انظر: ابن القوطية، ص ص83، 105، 109، 112، 113؛ جمهرة الأنساب، ص ص424 ـ 425، المقتبس، نشر، أنطونية، ص ص11، 71؛ العذري، ص ص103 ـ 104. الحلة السيراء، جـ2، ص376؛ ابن عذاري، جـ2، ص146، ابن خلدون، المصدر السابق، ص799؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، جـ2، ص444 ـ 445، ومخطوطة المكتبة الوطنية في مدريد، رقم 4891، ص79.

الشمال الشرقي من إشبيلية[106]. واستطاع أحفاده وذريته الذين انتقلوا إلى المدينة فيما بعد، أن، يتقدموا ويحتلوا مناصب رفيعة في الإدارة والقضاء طيلة الحكم الأموي، ونجح عميدهم، كما ذكر أعلاه، أن يستقل بالمدينة بعد انهيار الخلافة الأموية، وأن يؤسس فيها دولة بني عباد الشهيرة.

(106) انظر: جمهرة الأنساب، ص424؛ الحلة السيراء، جـ2، ص ص34 ـ 35؛ ابن عذاري (رواية ابن حيان)، جـ3، نشر ليفي بروفنسال، باريس، 1930، ص ص193 ـ 195؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، جـ2، ص ص108 ـ 109، ابن خلدون، العبر جـ4، ص237. ويذكر بعض المؤرخين، أن نسب بني عباد يرجع إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة، قارن: الحلة السيراء، جـ2، ص35، نفح الطيب، جـ1، ص296.

قيام الممالك الإسبانية
وعلاقاتها مع العرب في الأندلس

نُشر في مجلة أوراق التي يصدرها المعهد الإسباني العربي
للثقافة في مدريد، العدد 5 ـ 6/82 ـ 1983

تمهيد:

أتم المسلمون فتح معظم أجزاء شبه الجزيرة الإيبيرية في العقد الأخير من القرن الأول الهجري، حتى وصلوا إلى المناطق الشمالية والشمالية الغربية، وأوغلوا في الجبال الصخرية المفضية إلى سواحل كنتبرية المطلة على المحيط الأطلسي. لكنهم لم يفرضوا سلطانهم على هذه المناطق بشكل فعال، لا سيما الركن الشمالي الغربي، المسمى بإقليم اشتوريش Asturias في جليقية Galicia وذلك لوعورة هذه المنطقة، وقساوة مناخها. وقد استغلت بعض فلول القوط المنهزمة هذه الظروف، فلجأت إلى هذه الجبال واختفت فيها تنتظر الفرصة المواتية للتجمع والاستعداد لمقاومة الفتح العربي للأندلس. أما المسلمون، فقد استهونوا أمر هذه

الأماكن، وقلة عدد القوط الملتجئين إليها، فتركوهم وشأنهم، وانصرفوا إلى شؤونهم الداخلية، مما هيأ لهذه الأعداد القليلة الجو لتكوّن لنفسها كياناً قوياً يستطيع مع الأيام أن يناهض المسلمين في الأندلس، وينقلب من الدفاع إلى الهجوم. وفي هذا البحث محاولة للتعرف على كيفية نشوء هذه الممالك الإسبانية، وطبيعة العلاقات التي سادت بينها وبين المسلمين في الأندلس، وهل اقتصرت تلك العلاقات على الحروب والنزاع فقط؟ أم تعدتها إلى نواح أخرى، كالعلاقات الدبلوماسية والمصاهرات، والتأثير الحضاري المتبادل بين الطرفين، الذي ظل أثره في كلا الشعبين لقرون عديدة.

قيام الممالك الإسبانية

لقد كان تجمع فلول القوط المنهزمين في جبهتين، الأولى في هضاب كانتبرية، أي في نافار وبسكونية في الشرق، والثانية في هضاب اشتوريش في الغرب. وقد تمركزت الجماعة الأولى تحت لواء زعيم يدعى الدوق بطْرُة أو بتروس Pedro، الذي ينتمي إلى أحد الأصول الملكية، وكان من قادة الجيش في عهد الملكين القوطيين غيطشة ولذريق. ولكن الإمارة التي أنشأها هذا الزعيم كانت قليلة الخطر والأهمية وذلك لوقوعها في الطرف الغربي من جبال البرت Pyrenese في سهول نافار وبسكونية، ولهذا فقد كانت عرضة لاقتحام القوات الإسلامية في أثناء ذهابها إلى جنوب فرنسا وإيابها منها[1]. أما أمارة جليقية، أو مملكة اشتوريش، فقد كانت أعظم خطراً من إمارة كانتبرية، لأنها تقع في جبال وعرة بعيدة عن طريق الغزوات إلى فرنسا. وقد اعتصم فيها مجموعة من

(1) انظر: محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، 1969، ص208، 220 خليل إبراهيم السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، بغداد، 1976، ص101 فما بعدها.

فلول القوط، والتجأوا إلى مغارة تدعى كُوفادُونكا Covadonga التي تقع في سلسلة جبال كانتبرية المنيعة، في أعلى قممها، التي يطلق عليها الإسبان اسم قمم أوروبا Picos de Europa بينما يسميها المؤرخون المسلمون بالصخرة، ويجعلونها في جليقية(2). أما القائد الذي التفت حوله هذه الفلول، فيدعى بلايو Pelayo أو بلاجيوس Pelagius وتعزفه الرواية العربية باسم بلاي، وهو شخصية يحيط بأصلها الغموض، لكنه على الأرجح ينتمي إلى أصل قوطي نبيل. وتقول بعض الروايات إنه كان ابناً للدوق فافيلا، دوق كنتبرية(3)، وإنه كان الساعد الأيمن للملك لذريق. وقد وقع بلاي أسيراً بأيدي المسلمين، وسجن في قرطبة، لكنه تمكن من الفرار في زمن الحر بن عبد الرحمن الثقفي سنة 98هـ/ 718م واتجه إلى منطقة اشتوريش في الشمال الغربي من البلاد(4). وأخذ ينتقل في هذه المنطقة حتى استقر به المقام في قرية كانجادي أونيس Cangas، حيث التف حوله نفر من القوط الهاربين من المسلمين، ومن الإيبيريين والرومان المقيمين في هذه المنطقة فأخذ يحرضهم على الوثوب بالمسلمين، ويعيب عليهم الاستسلام والتراجع(5). وقد لوحق بلاي من قبل منوسة، القائد البربري المسلم في منطقة الاشتوريش، لكن بلاي تمكن من الإفلات منه والاختفاء في الجبال المنيعة، خاصة في منطقة الصخرة الآنف ذكرها.

(2) انظر: أخبار مجموعة، مجهول المؤلف، نشره وترجمه إلى الإسبانية، لافوينتي القنطرة، مدريد، 1867، ابن عذاري، البيان المغرب، نشر: كولان وليفي بروفنسال، ليدن، 1948، جـ2، ص29.

(3) انظر: ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، 1956 ـ 1961، جـ4، ص386؛ وراجع: حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، 1959، ص318 فما بعدها؛ وكذلك بحثه (بلاي وميلاد اشتريس)، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، مجلد 11 جـ1، القاهرة، 1949.

(4) المقَّري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968، جـ4 ص350.

(5) المصدر نفسه، جـ3 ص17؛ وانظر: مؤنس، فجر الأندلس، ص334.

وقد استهون المسلمون أمر هذه الشرذمة الصغيرة، وانصرفوا إلى شؤونهم الداخلية، وانشغلوا بعوامل الفرقة والخلاف، لا سيما بعد تمرد البربر في الأندلس، فاستغل النصارى هذه الفرصة، وشرعوا بالتحرك والانحدار نحو الجنوب والاستيلاء على المناطق التي تركها البربر. وعندما تنبه المسلمون إلى هذا الأمر، الذي بدأ يشكل خطراً عظيماً على وجودهم في شبه الجزيرة حاول بعض ولاتهم أن يتصدوا لهذه الإمارة فأرسلوا إليها بعض الحملات التي لم تستطع القضاء عليها نظراً لوعورة المنطقة. وتشير بعض الروايات اللاتينية إلى أن بلاي وجماعته، حققوا نصراً باهراً على المسلمين سنة 104هـ/ 722م حينما أرسل الوالي عنبسة بن سحيم حملة لسحق العصاة بقيادة قائد عربي اسمه علقمة اللخمي[6].

لقد بالغت المصادر اللاتينية في تصوير هذه الحادثة وشوهت تفاصيلها فجعلتها شيئاً أشبه بالفتح المبين الذي تم بإرادة وتدبير القوى الإلهية[7]. وقد زاد مؤرخو الإسبان هذا النصر تقديراً وإجلالاً فجعلوه بداية لصراعهم من أجل إخراج المسلمين من الأندلس. ولكن على الرغم من هذا، فإن حولية لاتينية معاصرة، هي حولية عام 754م، لا تذكر شيئاً عن هذه المعركة. وهذا يعكس التأثير الحقيقي الذي تركته هذه الحادثة في الأندلس، حيث لا بد أنها عدت مناوشة صغيرة أو حادثة ثانوية بين مجموعتين من الأفراد. وهذه الحادثة لوحدها لم تكن تعني شيئاً لو لم يعقبها من الأمور التي زادت في قيمتها وأهميتها، وبشكل خاص اختلاف المسلمين وانقسامهم على أنفسهم في الأندلس، مما مهد السبيل لبلاي

(6) انظر: المقَّري (برواية عيسى بن أحمد الرازي) جـ4 ص350 ـ 351.

The Chronicle of Alfonso III ed. Monuel Gomez - Moreno Boletin de la Real Acadimia de Historia 100, Madrid, 1932 PP.614 - 615.

(7) Ibid., P.614

وأنصاره بالقوة والانتشار إلى المناطق التي كانت بيد المسلمين.

وهناك خلاف بين المؤرخين القدامى والمحدثين بشأن التاريخ الصحيح لهذه المعركة، التي أصبحت تسمى بمعركة كوفادونجا، فمنهم من يجعلها في عهد عنبسة بن سحيم، ومنهم من يجعلها في عهد عقبة بن الحجاج السلولي، والأرجح أنها حدثت في عهد الأول(8).

وقد هاجم عقبة منطقة جليقية وحاول افتتاحها، لكنه لم يفلح في القضاء النهائي على بلاي وبعض أنصاره الذين اعتصموا بالصخرة الشهيرة Picos de Europa وكان هؤلاء من القلة وصغر الشأن بحيث احتقرهم المسلمون وتركوهم وانصرفوا استخفافاً بهم(9). وكان إغفال أمر هؤلاء المقاومين من أعظم الأخطاء التي ارتكبها العرب في الأندلس. فقد قويت معنوية بلاي وجماعته بانسحاب المسلمين، فانضم إليه العديد من الأنصار، الذين اختاروه ملكاً عليهم، فكان هذا إيذاناً بميلاد مملكة اشتوريش المسيحية وقد وجد بلاي الفرصة سانحة لتوطيد أمره وسلطانه في هذه المناطق الجبلية التي هجرها المسلمون منذ تمرد البربر. وأخذ يغير على المناطق الإسلامية المتاخمة، لا سيما بعد أن انشغل المسلمون بالفتنة بين أبي الخطار والصميل بن حاتم الكلابي، فقوي مركزه، وثبتت أقدام المملكة الجديدة.

استمر بلاي في حكم مملكة اشتوريش إلى وفاته في عام 119هـ/

---

(8) لمزيد من التفاصيل والآراء المختلفة بشأن معركة كوفادونجا وبلاي راجع: مؤنس، فجر الأندلس، ص318 - 342، Sanchez - Albornoz, "Otra vez Guadalete Y Govadonga" Cuadernos de Historia de España I - II 1944, PP.68 - 114.
عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، بغداد - ميلانو، 1982، ص34 - 341.

(9) أخبار مجموعة، ص28، ابن عذاري، جـ2 ص29.

737م، ثم ورثه ابنه فافيلا، الذي دام حكمه سنتين فقط، حيث قتله دب تعرض له في الصيد[10]. وكان الدوق بتروس، دوق كنتبرية، قد توفي في ذلك الحين أيضاً، فورثه ابنه أذفونش (الفونس الأول) الملقب بالكاثوليكي. وقد توطدت أواصر التحالف بين إمارة كانتبرية ومملكة اشتوريش وذلك بتزوج الفونسو من ابنة لبلاي تدعى أرمسندا Ermesinda[11]. ثم اختار أهل جليقية الفونسو ملكاً عليهم، فقام على أثر ذلك اتحاد بين الإمارتين وقامت منهما حكومة مسيحية واحدة هي مملكة ليون النصرانية، أو مملكة جليقية، كما تسميها الرواية الإسلامية.

ويعد الفونسو الأول المؤسس الحقيقي لإسبانيا النصرانية، فقد وسَّعها، وقواها، وأزاح عنها خطر المسلمين إلى حين. فحكم في ظروف مؤاتية (121 ـ 140هـ/ 739 ـ 757م)، لأن الخلافات الداخلية كانت قد شغلت المسلمين عنها لسنوات طويلة. فانتهز الفونسو فرصة تمرد البربر ونزوحهم من المناطق التي كانوا قد سيطروا عليها في اشتوريش وكنتبرية وجليقية، وكذلك هجرة العديد من العرب الذين كانوا يستقرون في هذه النواحي، وهلاكهم نتيجة للفتنة التي وقعت بينهم وبين البربر، يضاف إلى ذلك فقد حل القحط بالأندلس سنة 133هـ/ 750م واستمر لعدة سنوات وكان تأثيره شديداً على المناطق الشمالية، فجلا كثير من المسلمين عن هذه الأنحاء مخلفين منطقة واسعة تفصل بين جليقية وأراضي المسلمين. فاجتاح النصارى هذه المناطق، وقتلوا من بها من المسلمين وأخرجوا البقية عن جليقية كلها، وعن استورقة وغيرها من المناطق حتى نهر دويرة

(10) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثاني، الأندلس، نشر: ليفي بروفنسال، بيروت 1956، ص323.

(11) المصدر نفسه، ص223، وانظر أيضاً: مؤنس، المرجع السابق، ص344.

Duero[12]. وهكذا خسر المسلمون مراكز هامة مثل ليون Leon وسمورة Zamoraa وشلمنقة sala - manca وشقوبية Segovia، وأبلة Avila وغيرها، وكلها أماكن بذلت الجيوش العربية الفاتحة الكثير من الجهد والعناء في فتحها، وقد أصبحت حدود الأندلس الإسلامية، عند وفاة الفونسو الأول في مستهل تأسيس الإمارة الأموية، تمتد من سواحل المحيط الأطلسي مارة بقلمرية وقورية وطلبيرة وطليطلة ووادي الحجارة وتطيلة ثم تنتهي عند بنبلونة. أما حدود الإمارة النصرانية فكانت تضم اشتوريش، وسانت أنديرSantander، وأجزاء من برغش Burgos، وليون وجليقية. أي إن إمارة جليقية سيطرت على نحو ربع شبه الجزيرة الإيبيرية، أما المناطق التي كانت تقع بين هذين الخطين المذكورين، فكانت مسرحاً للخلاف والمنازعات والحروب الدائمة بين العرب والإسبان[13].

لقد عمل كل من الفونسو الأول، وأخيه فرويلا، الذي عينه حاكماً على مقاطعة كانتبرية، على توسيع هذه المملكة المسيحية، ومناهضة المسلمين في الجنوب، فكانا يغيران على الأراضي الإسلامية المجاورة خاصة في عهد يوسف الفهري الذي كان مشغولاً بالمشاكل والثورات الداخلية. فاستولى الفونسو على مدينة لك Lugo الحصينة، كما عبر نهر دويرة أكثر من مرة، وعاث في أراضي المسلمين. واستمر الوضع على هذه الشاكلة حتى وفاة فرويلا، سنة 146هـ/ 764م، وأخيه الفونسو في العام التالي أي 147هـ/ 765م. وقد خلف الفونسو ابنه فرويلا الأول، الذي سار على نفس المنوال في غزو الأراضي الإسلامية، مستغلاً انشغال عبد

(12) انظر: أخبار مجموعة، ص38، 63، مؤنس، المرجع السابق، ص345 فما بعدها.

(13) The Cambridge Medieval History, Vol. III, P.410.

وانظر أيضاً: مؤنس، المرجع السابق، ص349 - 350.

الرحمن الأول بالثورات الخطيرة التي جابهته في أوائل حكمه[14]. وتوالى الملوك والأمراء على حكم مملكة جليقية بقسميها الشرقي والغربي، ونخص بالذكر منهم غرسيه بن الفونسو الثالث (297 ـ 301هـ/ 910 ـ 914م) الذي نقل العاصمة من مدينة أوفيدو Oviedo إلى مدينة ليون، لتوسط موقعها بين جليقية وأشتوريش. ويدل هذا الإجراء على مدى القوة التي وصلت إليها هذه المملكة، حيث تركت المناطق الجبلية، ونزلت إلى السهول لمواجهة المسلمين. ومنذ هذا الوقت سميت هذه المملكة الإسبانية النصرانية باسم مملكة ليون، بعد أن كانت تسمى مملكة اشتوريش وجليقية.

وقامت إلى جانب مملكة ليون إمارة أو مملكة نصرانية أخرى، هي مملكة نافار أو نبارة، في منطقة الجنوب الغربي من جبال البرت Pyrenees في بلاد الباسك أو البشكنس الجبلية. وكانت هذه الإمارة في أول أمرها تخضع إلى سلطة بعض النبلاء التابعين للفرنج أو لأمراء من كانتبرية واشتوريش الذين اتخذوا مدينة بنبلونة عاصمة لهم. ولم يستطع أمراء جليقية رغم الغزوات العديدة التي شنوها على هذه الإمارة، أن يضموها إلى مملكتهم النصرانية، وذلك لتفاني البشكنس في الدفاع عن استقلالهم. ومن زعماء هذه الإمارة غرسيه انيجز Garcia Iniguez، الذي يسميه ابن حزم[15] بملك البشاكسة، والذي كان على صلة طيبة ببني قسي المولدين، سادة الثغر الأعلى فقد ارتبط معهم برباط التحالف والمصاهرة، وحارب مع زعيمهم موسى بن موسى بن فرتون ضد أردونيو الأول، ملك جليقية، في معركة البلدة Albelda سنة 248هـ/ 862م[16]. وخلف غرسيه ابنه فرتون

(14) انظر: عنان، المرجع السابق، جـ1، ص214 ـ 215.

(15) جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، 1962، ص502.

(16) المصدر نفسه، ص502 وانظر أيضاً: عنان، المرجع السابق، جـ1، ص298، 362 =

الذي قضى فترة طويلة أسيراً في قرطبة[17]، لكنه عزل عن الحكم بعد أن تغلب عليه شانجة غرسيه الأول Sancho Garcia I (293 ـ 314هـ/ 905 ـ 926م) الذي كان أول من تلقب بلقب ملك من أمراء نافار، ويعد المؤسس الحقيقي لهذه المملكة[18].

وبالإضافة إلى مملكتي ليون ونافار، قامت مملكة نصرانية أخرى في شمال إسبانيا، وذلك في الأراضي التي كانت تقع بين مملكة ليون في الغرب، ومملكة نافار في الشرق. وكانت هذه المناطق تسمى «بردوليا» ثم سميت فيما بعد باسم قشتالة Castilla، لكثرة الحصون التي كانت تقوم بها. وأصل هذه الحصون والقلاع يعود إلى جهود مملكة ليون التي أقامتها وأحاطت نفسها بها للحماية من هجمات المسلمين. وقد عرفت هذه الحصون في المصادر العربية باسم القلاع، كما سميت أيضاً نسبة إلى ولاية ألبة Alava باسم ألبة والقلاع. وكان سكان هذه المناطق من البشكنس وأهل ألبة يحكمون من قبل أمراء تابعين لمملكة ليون، لكنهم كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال الذاتي ليتمكنوا من محاربة المسلمين[19]. أما عاصمة المنطقة فكانت يومئذ في مدينة برغش Burgos. وقد حاول هؤلاء الأمراء المحليّون جهدهم للمحافظة على هذا الاستقلال الذاتي، بل والتحرر من سلطة مملكة ليون. وقد سنحت لهم هذه الفرصة حينما اتحدت معظم القلاع في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بزعامة الكونت فرنان كونثالث Fernan Gonzalez، أو فرّان غنْصالس، كما

= عبد الرحمن الحجي، أندلسيات، المجموعة الثانية، بيروت، 1969، ص53، خليل السامرائي، الثغر الأعلى الأندلسي، ص340.

(17) ابن عذاري، ج2، ص97.

(18) عنان، المرجع السابق، ج1، ص363.

(19) انظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ الأندلس والمغرب، الاسكندرية، بدون تاريخ ص78.

يسميه ابن الخطيب[20]، وكان كونثالث زعيماً قوياً ضد خصومه ملوك ليون، فأعلن الحرب على راميرو الثاني ملك ليون. وعلى الرغم من هزيمته وأسره من قبل هذا الملك، ظل أنصاره من سكان القلاع مخلصين لزعيمهم المأسور، واستمروا في الثورة مما اضطر راميرو الثاني إلى إطلاق سراحه. فعمل كونثالث على توطيد مركزه وتوحيد كل قشتالة تحت لوائه. وقد استطاع أن يحقق هذه الغاية، ويجعل الملك وراثياً في أبنائه في إمارة قشتالة المستقلة عن مملكة ليون. ثم أخذت هذه الإمارة تتسع شيئاً فشيئاً على حساب أراضي المسلمين والمسيحيين على السواء، حتى سيطرت على كل إسبانيا، وصارت لغتها القشتالية هي اللغة الإسبانية الرسمية في البلاد[21].

لقد كانت العلاقات بين هذه الإمارات النصرانية الثلاث، وغيرها من الإمارات الصغيرة الأخرى مثل إمارة برشلونة التي كونت نواة لإمارة قطالونية Catalonia فيما بعد والتي دمجت في مملكة أراغون Aragon عام 532هـ/ 1137م، تتذبذب بين السلم والحرب حسب مصالح واهتمامات حكامها ومطامعهم فحينما تكون هناك منفعة مشتركة للجميع يحصل التقارب بين الإمارات لمواجهة المسلمين في الأندلس. ولكن تضارب المصالح، والنزاع على السلطة بين أفراد الأسر الحاكمة أو ثورات النبلاء، ومحاولاتهم للاستقلال كانت تدفع هؤلاء الأمراء المسيحيين لطلب العون من الأمراء الأمويين في قرطبة. يضاف إلى ذلك، فإن سوء الأحوال الداخلية، كثيراً ما كان يفرض على حكام الإمارات النصرانية عقد السلم والمهادنة مع المسلمين. لكنهم إذا ما شعروا بالقوة، أو بانشغال المسلمين

(20) أعمال الأعلام، ص325.

(21) العبادي، المرجع السابق، ص78.

في مشكلة داخلية، لا يترددون في نقض عهودهم، وغزو الأراضي الإسلامية[22]. ويمكن القول إجمالاً إن علاقات هذه الإمارات مع الدولة العربية الإسلامية، ومواطنيها كانت تشمل إلى جانب الحروب، وما يعقبها من مآسي ونكبات بالنسبة إلى الطرفين، أموراً أخرى تبرز في أوقات السلم والصفاء، كالمراسلات الدبلوماسية، وعلاقات المصاهرة، وانتقال التأثير الحضاري المشترك بين هذه الإمارات المسيحية، وسكان الأندلس المسلمين.

العلاقات بين الأندلس والممالك الإسبانية

1 ـ العلاقات الحربية:

سادت العلاقات الحربية بصورة عامة بين الأندلس والإمارات النصرانية في الشمال. وكانت الحملات العسكرية العربية تزداد كثافة باتجاه الشمال كلما كانت الأحوال الداخلية مستقرة، والأوضاع هادئة في الأندلس، فيتفرغ الأمراء لمكافحة الخطر الخارجي المتمثل بالإمارات المسيحية. وكذلك الحال بالنسبة لهذه الإمارات، فكانت تشن الهجوم على الأراضي الإسلامية في الفترات التي تشعر فيها بقوتها، وضعف المسلمين. من ذلك مثلاً ما حدث في عهد فرويلا الأول الذي استغل انشغال الأمير عبد الرحمن الأول بالقضاء على تمرد العلاء بن مغيث، فأغار على الأراضي الإسلامية وعبر نهر دويرة، وغزا لك وشلمنقة، وشقوبية، وأبلة وسمورة وغيرها[23]. وكان لا بد لعبد الرحمن الأول أن يتخذ إجراءات كفيلة برد الخطر الإسباني، فجرد، رغم انشغاله بالفتن الداخلية، حملة تأديبية يقودها مولاه بدر إلى الشمال. وبشكل خاص إلى منطقتي ألبة

---

(22) انظر: عبد الرحمن الحجي، أندلسيات، (2)، ص54 ـ 56.

(23) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1965 ـ 1966، جـ1 ص330.

والقلاع، وهي الأراضي الواقعة بين بلاد الباسك وجبال كانتبرية على ضفاف نهر الأبرة شرقي مملكة جليقية. وقد حققت هذه الحملة نجاحاً ملحوظاً، وأرغمت سكان هذه المناطق على دفع الجزية للمسلمين[24].

والظاهر أن حملة بدر هذه كانت ذات أثر كبير على طبيعة العلاقات التي سادت فيما بعد بين عبد الرحمن الأول وإمارة جليقية. فلقد أوقفت النشاط التوسعي لهذه الإمارة على حساب الأراضي الإسلامية، يضاف إلى ذلك فقد خيم السلام على المنطقة في عهد الملوك الذين عاصروا عبد الرحمن، والذين كانوا بمثابة أتباع للحكم الأموي ويدفعون الجزية إلى قرطبة. وقد بلغ نفوذ العرب حداً كبيراً في التدخل بشؤون هذه الإمارة، حتى إنهم كانوا يتدخلون في الخلافات التي كانت تنشب بين الأمراء النصارى للوصول إلى العرش، فيساعدون الموالين منهم على التغلب على مناوئيهم. ويدين أحد هؤلاء الأمراء وهو مورقاط (مورجاتو Mauregato)، إلى العرب بوصوله إلى الحكم ومما يذكر أن هذا الحاكم الأخير كان من أصل عربي من جهة الأم، وقد بالغ في التقرب إلى المسلمين، والتودد إليهم[25].

ولكن العلاقات الحربية سرعان ما عادت إلى وضعها الأول بعد وفاة مورجاتو سنة 173هـ/ 789م، وتولي بَرْمُود أو برمودة Vermudo[26] الذي عزل بعد نحو سنتين، ثم حكم بدلاً منه الفونسو الثاني الذي يسميه العرب بإذْفُونش (175 ـ 227هـ/ 791 ـ 842م). ففي هذه الحقبة التي تولى فيها

(24) ابن عذاري، جـ2، ص54، وانظر؛ عنان، المرجع السابق، جـ1، ص216.

(25) انظر: المرجع السابق، جـ1، ص219، أحمد بدر، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، دمشق، 1972، ص100، إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا، بيروت، 1978 ص199.

(26) Livermore, The origins of spain and portugal, london. 1971 PP.340 - 357.

الأندلس هشام بن عبد الرحمن، وابنه الحكم، وحفيده عبد الرحمن بن الحكم، اشتدت الاشتباكات والغزوات بين الجانبين. فقد سيّر المسلمون حملات في كل صيف تقريباً في عهد هشام، وحققوا انتصارات كبيرة على إمارة جليقية. وكان على رأس هذه الحملات المتجهة إلى الشمال قواد معروفون ساهموا في إقامة الدولة الأموية في الأندلس، منهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ويوسف بن بخت، الذي أنزل بالملك برمود هزيمة ساحقة، واضطره إلى الفرار بنفسه إلى معاقله بعد أن تكبد جيشه عدداً كبيراً من القتلى[27]، ومن القادة الآخرين، عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الذي قاد صائفة سنة 179هـ/ 795م حتى انتهى إلى مدينة استرقة داخل جليقية، بل إنه وصل مدينة أوفيدو، العاصمة السابقة للإمارة النصرانية، وهزم الفونسو الثاني الذي كاد يقع أسيراً في يديه لولا فراره إلى إحدى القلاع البعيدة في الشمال[28].

وقد استغل الفونسو الثاني انشغال الحكم الأول ببعض الفتن الداخلية، خاصة تمرد ماردة، فهاجم الأراضي الإسلامية وتوغل فيها، حيث عبر نهر دويرة، وسار حتى قلمرية وأشبونة في البرتغال الحالية، وعاث في تلك المنطقة وخربها، فرد الحكم بأن سار بنفسه سنة 194هـ/ 810م وغزا بلاد الأعداء واستعاد المدن المغتصبة. ثم باشر في إرسال الحملات إلى الشمال، ومنها حملة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث سنة 200هـ/ 816م إلى جليقية التي أنزلت ضربة قوية بأهالي المنطقة في وادي آرون Arun[29].

---

(27) ابن عذاري، جـ2، ص63 ـ 64.

(28) المصدر نفسه، جـ2، ص64 ـ 65.

(29) المصدر نفسه، جـ2، ص73، 75، انظر: بيضون، المرجع السابق، ص235 ـ 236.

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم، الذي تميز بهدوء نسبي للأحوال الداخلية في الأندلس، استمرت الحملات الصائفة إلى الشمال، وقلما كانت تمر سنة دون جهاد للأعداء، بل إن عبد الرحمن الثاني شارك بنفسه في بعض هذه الحملات، خاصة سنة 225هـ/ 840م حيث غزا جليقية وفتح الكثير من حصونها. كما قام بنفسه أيضاً بقيادة حملة تأديبية لحاكم تطيلة، موسى بن موسى بن فرتون، الذي تحالف مع الباسك، فأخضع أتباعه في تطيلة وتقدم إلى بنبلونة عاصمة الباسك، التي التجأ إليها موسى فأخضعها وفرض على أهلها وعلى موسى الصلح[30].

وهكذا استمرت الحملات إلى الشمال، واستمر النزاع بين القوتين المختلفتين في شبه الجزيرة لكن الموقف الحربي تطور في أواخر عهد الإمارة الأموية، فبالإضافة إلى استمرار الحملات، قام كل من الجانبين بإعمار وتحصين خط دفاعه تجاه الجانب الآخر، فبدأت إمارة جليقية بإعمار استرقة وليون وإماية، وبرغش، وبقية المناطق جنوباً إلى نهر دويرة. أما المسلمين فحصنوا روافد نهر تاجة الشمالية وروافد نهر الإبرة، كما بنى الأمير محمد بن عبد الرحمن مدينة مجريط (Madrid مدريد الحالية) وطلمنكة Talamanca، وأسكن بني تجيب مدينة قلعة أيوب وحصّنها لهم، وبنى لهم حصن دروقة لمواجهة الخطر الإسباني في الشمال[31].

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن العلاقات الحربية في عصر الإمارة تميزت بطابع روحي خاص فالمسلمين يعدون حملاتهم على الممالك

(30) ابن عذاري، جـ2، ص85، 86 ـ 87.

(31) انظر: الحميري، «صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار» نشره وترجمه إلى الفرنسية: ليفي بروفنسال، القاهرة ـ ليدن، 1937، وانظر أيضاً: أحمد بدر، المرجع السابق، ص217، 218.

النصرانية جهاداً في سبيل الله، بينما كان نصارى الشمال يعززون من مقاوتهم للمسلمين بتأجيج الروح الصليبية. وكان لقبر القديس يعقوب، (سانتياجو) في مدينة شَنْت ياقُب Santiago de Compostela تأثير كبير في إثارة الروح المعنوية عند الإسبان. ولم تكن الحملات التي يشنها هؤلاء في حقيقتها سوى حرب صليبية يقود فيها سانتياجو جحافل الإسبان ضد أعدائهم على مر القرون[32].

2 ـ العلاقات الدبلوماسية والمصاهرات:

تخللت حقب الحروب الطويلة بين الأندلس والإمارات النصرانية في الشمال سنوات عديدة تميزت بعقد هدنات أعطت للجانبين فرصاً كثيرة للاتصال والتعرف والاقتباس. وكانت هناك اتصالات دبلوماسية بين الطرفين وإن كانت هذه الاتصالات لا تبدو واضحة جداً في هذا العهد، لأن بعض الإمارات النصرانية كانت ما تزال في طور النمو والتكوين. لكن العهد التالي، أي عهد الخلافة، تميز بنضج هذه العلاقات، وتبادل الوفود والسفارات بين الجانبين على نطاق واسع. ومع هذا، فهناك ما يشير إلى وجود علاقات من هذا القبيل في عهد الإمارة، وإن كانت قليلة جداً. ففي عهد عبد الرحمن الأول تم عقد أمان وسلام بين هذا العاهل الأندلسي وبين جيرانه نصارى قشتالة، وهذا هو نص كتاب الأمان: «بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة، ومن تبعهم من سائر البلدان: كتاب أمان وسلام وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا

(32) دورثي لودر، إسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة: طارق فودة، القاهرة، 1965، ص61، وانظر: أحمد مختار العبادي، «صور لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس»، مجلة البيئة، الرباط، 1962 ـ 1963، ص92، خليل السامرائي الثغر الأعلى الأندلسي، ص105.

على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة، ومثلها من الرماح، في كل عام إلى خمس سنين، كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعين ومائة (حزيران 759م)»[33].

وفي الحقيقة لا توجد لدينا تفصيلات عن هذه المعاهدة ولا الظروف التي عقدت فيها. ولكن يبدو من تاريخها أنها عقدت في أيام فرويلا الأول. ويرتاب بعض المؤرخين المحدثين في صحة الأرقام التي وردت فيها لضخامتها بالنسبة لموارد الإمارة النصرانية في ذلك الوقت المبكر، كما يشكون أيضاً في الوثيقة ذاتها، وإن كان لا يوجد لديهم حجة حاسمة لترجيح إنكارها[34]. بل على العكس، فقد كان عبد الرحمن الأول قوياً في تلك الحقبة، مما جعل فرويلا عاجزاً عن مواجهته والتصدي له، لذلك يحتمل أنه لجأ إلى الموافقة على عقد مثل هذه المعاهدة. ولقد رأينا فيما سلف أن العلاقة بين إمارة جليقية، والدولة الأموية في عهد عبد الرحمن الأول، تميزت بالهدوء والسلام بعد حملة بدر إلى الشمال وأن أمراء النصارى الذين تولوا الحكم خلال الفترة الباقية من حكمه، تميزوا بسياستهم التقربية والموالية لحكومة قرطبة.

ولا توجد علاقات ودية ذات أهمية في عهد بقية الأمراء الأمويين باستثناء عبد الرحمن الثاني أو الأوسط، الذي وصلت الدولة العربية في الأندلس في عهده إلى مكانة سامية، وأصبحت مركزاً للنشاط الدبلوماسي

---

(33) M. Casiri, Bebiotheca Arabico - Hispana Escurialensis Madrid, 1770, Vol. II, P.104. وقد نقل الغزيري هذا النص عن مخطوطة الإحاطة لابن الخطيب في الأسكوريال، انظر: عنان، المرجع السابق، ص199.

(34) المرجع نفسه، ص199، هامش رقم (1)، عبد الرحمن الحجي، أندلسيات (2)، ص65 ـ 66 والمراجع التي يشير إليها في الهوامش.

والسفارات في المغرب الإسلامي. وقد وصلت هذه العلاقات الدبلوماسية أوجها مع الأمبراطورية البيزنطية[35]. أما بالنسبة للعلاقات مع النصارى، فلم تكن بتلك القوة، وكانت بعض معاهدات الصلح تفرض بعد الانتصارات التي يحققها المسلمون على جليقية وبقية المناطق الأخرى، من ذلك مثلاً الصلح الذي فرضه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث على الجلالقة، بعد أن غزاهم سنة 208هـ/ 823م بغزوته المعروفة بغزاة ألبة والقلاع[36]، والتي كانت رداً على هجومهم على مدينة سالم في الثغر الأعلى. وكان من بنود هذا الصلح إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين، ودفع جزية كبيرة، وتسليم بعض زعماء المنطقة إلى المسلمين ليكونوا رهائنَ، ضماناً لعدم اعتدائهم في المستقبل[37]. وقد حدثت بعض الاتفاقات بين إمارة نافار وعبد الرحمن الأوسط. وكانت هذه الإمارة قد بدأت بالتحرر من سيطرة الافرنج وتدخلهم في شؤونها، مما جعلها تتوجه إلى المسلمين لطلب العون والإسناد. ولهذا السبب فقد جاءت سفارة نافارية إلى بلاط عبد الرحمن الأوسط في قرطبة، وعقدت معاهدة بين الطرفين، تعهد المسلمون بموجبها بحماية نافار من أي اعتداء خارجي، مقابل مساعدة النافاريين للمسلمين فيما إذا أرادوا عبور جبال البرت إلى فرنسا[38]. ولكن لم تكن هذه المعاهدات تُحترم كثيراً من قبل أمراء النصارى، بل كانت تنقض في معظم الأحيان، خاصة إذا ما شعروا بقوتهم وضعف المسلمين.

---

(35) انظر: ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة: السيد محمود = عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، 1956، ص95 فما بعدها، العبادي، المرجع السابق، ص151 ـ 154.

(36) ابن عذاري، جـ2، ص81 ـ 82.

(37) انظر: المقَّري، جـ1 ص344 ـ 345، عنان، المرجع السابق، جـ1 ص256، أندلسيات (2)، ص70 ـ 71.

(38) المرجع نفسه، ص72.

وبالنسبة للمصاهرات بين العرب في الأندلس والإسبان، فقد كانت شائعة سواء في داخل الأندلس ذاتها أو مع الإمارات النصرانية في الشمال. وكان الحكام يشجعون هذه المصاهرات، بل إن بعضهم قد تزوج من نساء إسبانيات، مثل عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي تزوج من أرملة لذريق آخر ملوك القوط. ومن حكام المسيحيين الذين شجعوا هذا الاتجاه مورجاتو المتوفى سنة 173هـ/ 789م، الذي استقل في جليقية، وبالغ في التودد إلى المسلمين، وشجع بحماس زواج الفتيات المسيحيات من المسلمين وكان هذا الحاكم، نفسه ابناً لألفونسو الأول من أم عربية، ولكن دعوته لم تلاق النجاح المطلوب بسبب بغض النصارى المتعصبين ورجال الدين له[39].

وقد قامت علاقات مصاهرة قوية بين بعض الأسر المتنفذة في منطقة الثغر الأعلى، مثل بني قسي المولدين، وبين حكام نافار في الشمال[40]. ويبدو أن مثل هذه الأسر المولدة قد أرادت تقوية نفوذها بالزواج، هذا فضلاً عن عامل الجوار والقرب الذي يربط بين الطرفين. وكانت علاقات المصاهرة هذه من القوة بحيث كان بنو قسي يقفون أحياناً مع أصهارهم النافاريين بوجه حكومة قرطبة، أو الحكام المسيحيين الآخرين[41].

ومن المصاهرات الطريفة التي حدثت في هذا العهد، زواج الأمير عبد الله بن محمد من إحدى الأميرات النافاريات، وهي ونقة Iniga ابنة فرتون بن غرسيه Fortun Garces المعروف بالأنقر، الذي أسره الأمير

(39) انظر: عنان، المرجع السابق، جـ1، ص219، أندلسيات، (2) ص81.

(40) انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص502 ـ 503، خليل السامرائي، المرجع السابق ص340.

(41) انظر: العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، ص31 فما بعدها.

محمد بن عبد الرحمن، وسجنه في قرطبة لمدة عشرين سنة(42). وكانت ونقة هذه قد تزوجت قبل ذلك من أمير نافاري، هو أزنار بن شانجة Aznar Sanchez وأنجبت منه ابنة، هي طوطة Toda، التي ستصبح ملكة نافار، وتعاصر عبد الرحمن الثالث وتفد عليه في سفارة سنة 347هـ/ 958م ساعية إلى عقد معاهدة سلم وصداقة مع قرطبة(43) أما ثمرة زواج الأميرة ونقة الثاني من الأمير عبد الله، فكان ابناً، وهو الأمير محمد والد عبد الرحمن الثالث. وبذلك تكون الملكة طوطة عمة الخليفة عبد الرحمن الناصر، لأنها أخت محمد والد الناصر من أمه ونقة(44). وتدل هذه المصاهرة على مدى العلاقات المتشابكة التي قامت بين المسلمين في الأندلس وجيرانهم نصارى الشمال، مما كان له أثر بارز في احتكاك الشعبين واختلاطهم، وانتقال مظاهر الحضارة فيما بينهم.

3 ـ العلاقات الحضارية:

لقد كان تداخل المسلمين والمسيحيين مستمراً في إسبانيا في عصر الإمارة والعصور الإسلامية الأخرى اللاحقة، سواء كان ذلك داخل الأندلس ذاتها أم في خارجها مع الإمارات الشمالية. ولم يقتصر هذا التداخل والاحتكاك على فترات السلم فقط، بل شمل فترات الحروب أيضاً. فعندما يتصل شعبان أحدهما بالآخر، فإن الشعب ذو الحضارة الأرقى هو الذي يؤثر على الآخر. وهكذا كانت الحالة بالنسبة للعرب في إسبانيا، فلقد انتقلت حضارتهم إلى النصارى في الأندلس وفي الإمارات الشمالية بطرق شتى، منها الزيارات المتبادلة التي كانت تتم بين الطرفين

(42) ابن عذاري، جـ2 ص97.

(43) المقَّري، جـ1 ص366.

(44) انظر أندلسيات (1)، ص83 ـ 85.

بقصد الاطلاع أو المتاجرة، ومنها بواسطة العبيد الذين كانوا يهربون من الشمال لضمان حرياتهم، وعندما يعودون إلى بلادهم كانوا يجلبون معهم كثيراً من العادات ومظاهر الحضارة بل إن بعضهم كان يعود وهو يحمل أسماء عربية أيضاً(45).

وكان لوقوع المناطق الإسلامية بيد الإمارات النصرانية أثر كبير في الاتصال والاحتكاك بين الطرفين فعندما كانت تقع إحدى هذه المناطق بأيدي المسيحيين لم يكن ذلك يعني توقف وجود المسلمين فيها، بل على العكس كان الكثير منهم يبقون في هذه المناطق محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ويمارسون طقوسهم الدينية، ومن هؤلاء العديد من أصحاب الحرف والمثقفين الذين لعبوا دوراً هاماً في نقل العلوم والفلسفة الإسلامية إلى النصارى في الشمال، ومنها إلى أوروبا. وكان ملوك وأمراء هذه الإمارات النصرانية يضطرون إلى الاحتفاظ بهؤلاء المسلمين بسبب أهميتهم الاقتصادية للبلاد. وهؤلاء المسلمين الذين استمروا في البقاء في أماكنهم بعد سيطرة النصارى عليها عرفوا اسم المُدجَّنين Mudejares. وكان موقفهم شبيه بموقف أهل الذمة تحت ظل الحكم العربي الإسلامي. وكانوا كما أسلفنا، أحراراً في اتباع عقيدتهم الإسلامية، وممارسة حرفهم وتجارتهم، وعليهم مقابل ذلك دفع ضريبة الرأس أو الجزية. لقد كان وجود هؤلاء المدجنين ظاهرة تاريخية مهمة جداً في حياة إسبانيا النصرانية، أدت إلى خلق بنية اقتصادية وحضارة مادية وعلمية مشتركة بين المسيحيين والمسلمين، بلغت أوجها في العهود التي أعقبت عهد الإمارة، وبشكل خاص في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد/ السابع والثامن للهجرة(46). ومن الجدير بالذكر أن المستعربين وهم نصارى الإسبان الذين

(45) The Cambridge Medieval History, Vol. III. P.437.

(46) W. M. Watt, A History of Islamic spain, Islamic Surveys 4, Edinburgh, 1967, P.150.

عاشوا مع العرب في الأندلس، ساهموا أيضاً في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى إسبانيا النصرانية، لأن هؤلاء المستعربين بحكم معرفتهم للغتين العربية والإسبانية القديمة كانوا ينتقلون بحرية من الأراضي الإسلامية إلى الإمارات النصرانية وهكذا انتقلت العلوم والفلسفة وكثير من مظاهر الحياة العامة الإسلامية إلى الشمال.

وبالإضافة إلى انتقال هذه التأثيرات، فقد انتقلت أيضاً كثير من التنظيمات القانونية والحربية من الأندلس إلى إسبانيا النصرانية. وهذا يوضح لماذا اضطر المسيحيون إلى الإبقاء على التنظيمات القائمة في المناطق المسكونة بالمسلمين والتي أعادوا السيطرة عليها. بينما وضعوا أنظمة أخرى لتنظيم الحياة لرعاياهم في هذه المناطق(47).

ومن التأثيرات الأخرى التي تبودلت بين الطرفين، التأثيرات اللغوية، فلقد كانت المصطلحات العربية شائعة في كل من ليون وقشتالة ونافار، وبقية المناطق الأخرى في الشمال، كما دخل في اللغة الرومانسية Romance وهي اللغة الإسبانية القديمة الناتجة من اللهجة اللاتينية - الآيبيرية، التي كانت في طور التكوين في ذلك الوقت، الكثير من الكلمات والمصطلحات العربية، وكان هناك العديد من العرب الذين يفهمون هذه اللغة ويتكلمون بها، وبشكل خاص في مناطق الثغور والحدود. ويوجد في مصادرنا العربية إشارات واضحة تدل على أن الأمراء والقضاة وكبار القوم والشعراء كانوا يتكلمون هذه اللغة الإسبانية القديمة أو الرومانسية إلى جانب اللغة العربية. وذلك على كل مستويات المجتمع وحتى في قصور الأمراء الأندلسيين(48). وفي الوقت نفسه كان هناك العديد من المسيحيين الذين لهم إلمامٌ ومعرفة باللغة العربية.

---

(47) The Cambridge Medieval History, Vol. III, PP.437 - 438.

(48) انظر: ابن عذاري، جـ2، ص227، العبادي، المرجع السابق، ص172.

ويبدو الأثر العميق الذي مارسته الثقافة العربية الأندلسية على السكان المسيحيين في كل شبه الجزيرة الآيبيرية من ملاحظة الاستعارات اللغوية التي أخذتها اللغة الإسبانية من اللغة العربية. فلقد وجدت اللغة الإسبانية نفسها كما يقول المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال[49] «مُضطرة طيلة مرحلة نموّها، وحتى القرن الحادي عشر الميلادي (السابع الهجري)، على الأقل، أن تأخذ من العربية كل ما ينقصها حتى ذلك الوقت للتعبير عن المفاهيم الجديدة وبخاصة في مضمار المؤسسات والحياة الخاصة». وهناك أمثلة لا حصر لها تشمل مئات عديدة من الكلمات والمفردات ذات الأصل العربي في مجال التنظيم المدني أو العسكري لدى إسبانيا في العصور الوسطى أو في العصر الحديث. يضاف إلى ذلك مصطلحات أخرى تشمل أسماء الأمكنة والأنهار والظواهر الجغرافية، وطرق وأساليب الري، وأسماء الفاكهة والأزهار والألوان والملابس[50]. وتعد هذه الاستعارات اللغوية أفضل من جميع الوثائق التاريخية لأنها تبرز الإشعاع الحضاري الحقيقي الذي سلّطته الأندلس على إسبانيا المسيحية. وهي أكثر من جميع الأدلة إفصاحاً على سيادة العرب الثقافية، سيادة لا جدال فيها عمّت شمال شبه الجزيرة الآيبيرية[51].

ولم يقتصر أثر العرب الحضاري على الإمارات النصرانية في الشمال على النواحي الثقافية واللغوية حسب، بل شمل مجالات أخرى، منها الفنون، وخاصة فن العمارة والبناء الذي نقله المدجّنون، وظهر في إسبانيا النصرانية منذ بداية القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري، وظل فيها

(49) حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، مكتبة الحياة، بيروت، ص81.

(50) انظر: لطفي عبد البديع، الإسلام في إسبانيا، القاهرة، 1958، ص112 ـ 116.

(51) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ص81 ـ 85.

بصورة نهائية تقريباً[52]. ويتميز هذا الفن، وبشكل خاص في الكنائس، بوجود القباب التي ترتفع فوق أقواس على شكل حدوة حصان، ومن جملة الأبنية الأخرى غير الدينية التي تأثرت بالفن العربي، الجسور والأقنية المائية المعلقة، ونواعير المياه وغيرها. كذلك يظهر تأثير المسلمين على إسبانيا النصرانية في تطور الفنون الأخرى الصغرى، مثل صناعة العاج، والمصنوعات الذهبية والزجاجية والخزفية والتطريز. وظلت هذه الصناعات مستمرة في المدن التي استعادها الإسبان وإلى وقت لاحق بعد عصر الإمارة، بل حتى خروج العرب من الأندلس. وذلك لأن إشعاع الحضارة الأندلسية الذي بلغ أقصى اندفاعه في القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري، لم يتلاشَ بل امتد حتى سقوط الأندلس شاملاً جميع أجزاء شبه الجزيرة. ولم يقف ملوك وأمراء النصارى ضد هذا التيار، بل شجعوه، وتبنوا هم أنفسهم شتى المبتكرات المستقاة من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية المجاورة. وإن قيام بعض ملوك الإسبان في وقت لاحق بضرب عملاتهم وهي تتضمن وجهين، عربي وقشتالي وارتدائهم الملابس على الطريقة الإسلامية، ليدل على مدى العمق الذي تغلغلت فيه الحضارة العربية الإسلامية في نفوس الإسبان النصارى وعلى أعلى المستويات[53].

---

(52) عن فن العمارة في الأندلس، انظر: مانويل جوميث مورينو، **الفن الإسلامي في إسبانيا**، ترجمة: د. لطفي عبد البديع ود. السيد محمود عبد العزيز سالم، القاهرة، 1977.

(53) انظر: المرجع نفسه، ص86، 88 ـ 90، وانظر أيضاً: لطفي عبد البديع، المرجع السابق، ص98 ـ 101.

تحالف الممالك الإسبانية في الأندلس
وأثره على سقوط غرناطة

نُشر في مجلة البحث العلمي التي يصدرها معهد البحث العلمي في الرباط،
العدد 34، الرباط، 1984

كانت الممالك الإسبانية الكبرى في أواخر القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري ثلاثاً، هي ليون ونافار وقشتالة. وكانت ليون أكبر هذه الممالك. لكن بعد هذا التاريخ تغيرت أحوال هذه الممالك وغدت نافار من أكبرها وأوسعها رقعة، فشملت إضافة إلى ولاية نافار الأصلية، ولايات كنتبرية وسوبرابي ورباجورسا في جبال البرت. واستطاعت في عهد ملكها شانجة غرسيه الثالث والملقب بالكبير (391 ـ 426هـ/ 1000 ـ 1035م) أن تضم إليها كل من مملكتَي قشتالة وليون. وهكذا اتحدت ممالك إسبانيا المسيحية في الشمال، في الوقت الذي سادت فيه التفرقة في الأندلس نتيجة لقيام العديد من دول الطوائف. ولكن لم تستمر وحدة

ممالك النصارى في الشمال بعد وفاة شانجة الكبير، لأن هذا الملك كان قد قسم المملكة قبيل وفاته بين أربعة من أولاده. فخص غرسيه بنافار، وفرناندو بملك قشتالة وليون، وراميرو بإمارة أراغون، وهي رقعة ضيقة تمتد بحذاء نافار من باب شيزروا جنوباً، وأعطى كونزالو Gonzolo منطقة أخرى في أواسط جبال البرت. وقد أدى هذا التقسيم إلى قيام حروب أهلية عديدة بين هذه الممالك ولكن ما أن انتهى الصراع الذي نشب بين أبناء شانجة الثالث، حتى ابتدأ فرناندو الأول ملك قشتالة، وليون، الذي تسميه الرواية الإسلامية، فرّانْدُه أو فردلند[1] بالاعتداء على أراضي المسلمين، فهاجم مدينة بازو Vizeu الواقعة إلى الجنوب من نهر دويرة واحتلها، كما هاجم معظم دول الطوائف، لا سيما مناطق طليطلة وإشبيلية وبطليوس، وأخيراً احتل مدينة قُلُمْرية Coimbra وهي من أعظم القواعد الإسلامية في شمال غرب الأندلس، حيث سقطت بيده عام 456هـ/ 1064م[2]. وهكذا ترى كيف أحرزت إسبانيا النصرانية تفوقها الواضح على أهل الأندلس في زمن فرناندو الأول، الذي يعد من أعظم ملوك إسبانيا. وقد مهد حكمه المليء بالانتصارات الطريق للملوك الآخرين. وفي عهده اتسعت رقعة مملكة قشتالة اتساعاً عظيماً، وتوسعت حدودها جنوباً وشرقاً وغرباً على حساب الأراضي الإسلامية[3].

وقد سار الفونسو السادس (465 ـ 502هـ/ 1072 ـ 1109م) على نهج

(1) ابن الخطيب، أعمال الاعلام (القسم الخاص بإسبانيا) نشر: ليفي بروفنسال، بيروت، 1965، ص238؛ ابن عذاري، البيان المغرب، نشر: ليفي بروفنسال، باريس، 1930، جـ3، ص238.

(2) المصدر نفسه، جـ3، ص238 ـ 282؛ وانظر: خليل إبراهيم صالح، علاقات المرابطين بالممالك النصرانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، 1979، ص56.

(3) انظر: محمد عبد الله عنان، دول الطوائف، القاهرة، 1969، ص386.

والده فرناندو الأول في توسيع رقعة الممالك النصرانية، وذلك بعد أن خلا له الجو بالسيطرة على الحكم في قشتالة وليون وجليقية. وقد وضع الفونسو السادس نصب عينيه الاستيلاء على مدينة طليطلة التي كانت تحكم آنذاك من قبل بني ذي النون. ومن الجدير بالذكر أن هذا الملك كان قد أقام ما يقارب التسعة أشهر في طليطلة ضيفاً على ملكها المأمون ابن ذي النون، وذلك عندما كان مطارداً من قبل أخيه سانشو. فاطّلع على تحصينات المدينة ونقاط الضعف في دفاعاتها[4]. وعندما واتته الفرصة بعد توليه الحكم، خان واجبات الضيافة، وحاصر المدينة التي أكرمته وآوته حين الشدة واستولى عليها عام 478هـ/ 1085م[5]، وقد كان لسقوط طليطلة بيد النصارى تأثير عميق في ميزان القوى في شبه الجزيرة الآيبيرية، حيث ظهر تفوق إسبانيا النصرانية واضحاً في المجالين السياسي والعسكري. واتخذ ملك قشتالة على أثر هذا الانتصار لقب أمبراطور أو «الأمبراطور ذي الملّتين»[6] الإسلامية والنصرانية. ومما يذكر أن الطابع الصليبي كان واضحاً في حصار طليطلة والاستيلاء عليها، فقد اشترك إلى جانب جنود قشتالة وليون، قوات من أرغون، ومتطوعون ومغامرون من فرنسا وغيرها قدموا للاشتراك في هذا المشروع الذي يهم النصرانية كلها[7].

ونتيجة لسقوط طليطلة، أدرك ملوك الطوائف حقيقة موقفهم وفرقتهم وشعروا بخطر الفناء، فاستعانوا بالمرابطين في شمال أفريقيا. وقد

(4) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص330.

(5) المصدر نفسه، ص181؛ المقّري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968، جـ1، ص441؛ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد، العدد (13) 1965 ـ 1966، ص85.

(6) المصدر نفسه، ص89.

(7) عنان، المرجع السابق، ص396، 298، خليل إبراهيم صالح، المرجع السابق، ص127.

استجاب أمير هؤلاء، يوسف بن تاشفين، إلى نداء المسلمين في الأندلس. وبعبوره تغيرت الأحوال، ودارت معارك بين المرابطين والأندلسيين من جهة والقشتاليين من جهة أخرى. وكانت موقعة الزلاقة سنة 479هـ/ 1086م[8]. التي انهزم فيها الفونسو السادس، وكذلك موقعة أقليش من أهم المواقع التي سجلت نصر المسلمين على جيوش قشتالة. وقد توفي الفونسو السادس بعد عام من موقعة أقليش سنة 502هـ/ 1109م دون أن يخلف وريثاً للعرش، حيث قتل ابنه الوحيد في معركة اقليش، فاضطر إلى أن يوصي إلى ابنته أوراكة Urraca بتولي عرش مملكة قشتالة وليون واشتوريش[9].

ظهور مملكة أراغون:

لقد مر بنا كيف أن شانجة الثالث (الكبير) أعطى أحد أبنائه، وهو راميرو، إمارة أراغون وكانت منطقة ضيقة في جنوب البرت. وظلت هذه الإمارة الصغيرة غير قادرة على التوسع بسبب النزاع على السلطة بين أبناء شانجة الثالث، ووجود سرقسطة في الثغر الأعلى بيد المسلمين[10]. وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، نمت مملكة أراغون، وتوسعت على حساب مملكة نافار، وبدأت تلعب دوراً عظيماً في شمال شرق شبه الجزيرة الإيبيرية. واستطاع أحد أحفاد راميرو ابن شانجة الكبير، أن يجعل من أراغون أعظم مملكة إسبانية، وهو الفونسو الأول الملقب بالمحارب. وقد تمكن، خاصة بعد أن تزوج من

(8) انظر: المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963، ص195.

(9) ابن الكردبوس، ص115.

(10) H. Livermore, The Origins of Spain and Portugal, London, 1971 P.393.

أوراكة، ابنة الفونسو السادس ملك قشتالة أن يحكم سائر الممالك النصرانية. وأنفق هذا الملك جهوداً كبيرة في توسيع رقعة مملكته بالاستيلاء على أراضي المسلمين، فاستولى على سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى، في عام 512هـ/ 1118م(11). كما أصبح معظم وادي نهر الإبرة وعدد كبير من المدن المهمة، مثل تطيلة وطرسونة وقلعة أيوب تحت سيطرة المسيحيين الأرغونيين. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن الفونسو المحارب تلقى مساعدات قيّمة من مقاتلين جاءوا من فرنسا، كما كان الحال بالنسبة إلى الاستيلاء على طليطلة(12). وقد حقق هذا الملك باستيلائه على سرقسطة ما حققه الفونسو السادس حيث سيطر على طليطلة. فأصبحت الأندلس معرضة للخطر الإسباني من الشمال الشرقي والوسط، وسارت سياسة الاسترداد الإسبانية La Reconquista منذ ذلك الوقت في هذين الاتجاهين دون مقاومة قوية من جانب أهل الأندلس(13).

وقد علا شأن مملكة أراغون وازدادت أهميتها حين اندمجت مع إمارة قطلونية أو برشلونة سنة 1137م/ 532هـ. وكانت هذه الإمارة تقوم في الركن الشمالي الشرقي مما يلي جبال البرت، وعاصمتها برشلونة كانت أول ثغر عظيم يفقده المسلمون منذ أن سيطر عليها شارلمان ملك الافرنج في عام 195هـ/ 801م. وقد نالت هذه الإمارة استقلالها وبدأت تحكم من قبل أسر قوية مثل آل بوريل وآل برنجير. وفي عهد الأسرة الأخيرة التي حكمتها منذ القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، اتسعت رقعة هذه الإمارة، وضمت إليها مناطق عديدة مثل شرطانية، وقرقشونة.

---

(11) ابن الكردبوس، ص118 ـ 119، خليل إبراهيم صالح، المرجع السابق، ص298.

(12) A. Mackay, Spain in the Middle Ages, London, 1977, P.30.

(13) انظر: عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الأول، القاهرة، 1963، ص493.

واشتهر من أمراء هذه الإمارة رامون برنجير الثالث المعروف بالكبير، ورامون برنجير الرابع، الذي في عهده توحدت قطلونية وأراغون في مملكة واحدة، وذلك بزواجه من بترونيلا ابنة الملك راميرو الراهب ملك أراغون سنة 1137م/ 532هـ. ويعد رامون برنجير الرابع في نظر بعض المؤرخين من أعظم ملوك إسبانيا النصرانية، ومؤسس عظمة مملكة أراغون الحقيقي، الذي استطاع أن ينتزع آخر القواعد الإسلامية في الثغر الأعلى من يد المسلمين مثل طرطوشة ولاردة، فحقق بذلك توسع إسبانيا النصرانية على حساب الأراضي الإسلامية في الأندلس(14).

تحالف قشتالة وأراغون:

على الرغم من الخلافات والمنازعات على مناطق النفوذ، واقتسام أراضي نافار بين ملوك قشتالة وأراغون، فقد كانوا جميعاً يدركون أهمية تكتلهم ضد الجبهة الإسلامية في الأندلس، لا سيما وأن قوة الموحدين الفتية قد عبرت إلى شبه الجزيرة وخلفت المرابطين لنجدة المسلمين هناك. وقد تم عقد عدة اتفاقات بين قشتالة وأراغون وبقية الإمارات النصرانية، منها اتفاق عقد في بلدة كسولا Cozola في سنة 575هـ/ 1179م. وفي هذا الاتفاق خصّت مملكة أراغون بالسيطرة على منطقة بلنسية وسائر الأماكن جنوباً حتى لقنت. أما مملكة قشتالة، فعليها الاستيلاء على سائر الأراضي الواقعة جنوب لقنت في شبه الجزيرة الإيبيرية. ولكن تحرك الخليفة الموحدي يعقوب المنصور وعبوره إلى الأندلس لقمع عدوان هذه الممالك، لا سيما قشتالة، وانتصاره عليها في موقعة الأرَك بالقرب من أحد فروع نهر وادي آنة، سنة 591هـ/ 1194م، ضيع الفرصة على هذه

(14) انظر: عنان، المرجع السابق، القسم الأول، ص498 ـ 499، 514؛ عنان، دول الطوائف، ص406 ـ 407؛ Mackay, OP. Cit., P.42.

الممالك، ووضع حدّاً لتفوق قشتالة العسكري[15].

ونتيجة لهذه الهزيمة، وللغارات التي تعرضت لها قشتالة من قبل بقية الممالك النصرانية، مثل نافار وليون، اضطر ألفونسو الثامن ملك قشتالة إلى تجديد التحالف مع أراغون. ثم عملت الحروب والمعاهدات والمصاهرات الملكية على تقوية روح الانسجام والتعاون والتحالف بين جميع الممالك النصرانية تحت رعاية ملك قشتالة للوقوف بوجه أهل الأندلس والموحدين. ولم يكن اجتماع كلمة إسبانيا النصرانية، كما يرى أحد المؤرخين المحدثين، على هذا النحو يقصد به فقط تحقيق سلامها الداخلي، «بل كان ينطوي قبل كل شيء على المضي في تحقيق الهدف الرئيس الذي تدخر له إسبانيا النصرانية كل مواردها وقواها، وهو محاربة إسبانيا المسلمة، ودفع تيار فتوح (الاسترداد) بأقصى ما يستطاع. ولم تكن إسبانيا النصرانية تقف وحدها إزاء هذا الهدف بل كانت البابوية والنصرانية كلها، تحبو تلك الغاية بعطفها ومؤازرتها الفعلية، ولم تبخل البابوية بأن تسبغ الصفة الصليبية على أي طور من أطوار هذا الصراع، وكان البابا أنوصان الثالث يشمل بنصحه ورعايته. كل حركة تقارب واتحاد بين الملوك الإسبان، وكان فوق ذلك يوعز إلى الأحبار في جنوب فرنسا، أن يثبتوا كل دعاية ممكنة لحشد السادة والفرسان للتطوع في هذه الحرب المقدسة[16].

---

(15) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص358 فما بعدها؛ وانظر: الحميري، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار، نشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات: ليفي بروفنسال، القاهرة ـ ليدن، 1937، ص12 ـ 13؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص331، وعن موقعة الأرك انظر: هشام سليم عبد الرحمن، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية وبالدول الإسلامية في الأندلس، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، 1979، ص236 فما بعدها.

(16) عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، القاهرة، 1964، ص590.

وكان من نتيجة هذا التحالف والتآزر بين ممالك الإسبان والقوى الصليبية أن انتصرت جيوش النصرانية الموحدة على الجيوش الموحدية والأندلسية في موقعة العقاب Navas de Tolosa جنوب جبال الشارات (سيرامورينا) سنة 609هـ/ 1212م[17]، وكانت هذه النكبة التي حلت بالأندلس نذير بانهيار الوجود العربي الإسلامي فيها، لا سيما وأن أهل الأندلس استمروا في حروبهم الأهلية، ومنافساتهم على الزعامة، مما كان له أسوأ الأثر في تفكك وحدة البلاد، وجعلها فريسة سهلة لإسبانيا النصرانية التي استغلت الفرصة وبدأت بتركيز هجماتها على بقية الأراضي الإسلامية.

وبطبيعة الحال كان لكل من قشتالة وأراغون قصب السبق في التوسع والانتشار نحو الجنوب على حساب أراضي الأندلس. ولقد بزَّ اثنان من ملوك هاتين المملكتين أقرانهما الآخرين في الاستيلاء والسيطرة على المزيد من أراضي المسلمين. وكان هذان الملكان هما دون خايمي الأول ملك أراغون James I (610 ـ 675هـ/ 1213 ـ 1276م)، والملك فرناندو الثالث Fernando III (614 ـ 650هـ/ 1217 ـ 1254م) ملك قشتالة، ثم ملك قشتالة وليون المتحدة بعد سنة 628هـ/ 1230م[18]. وبالنسبة لخايمي الأول، فقد استطاع أن ينتزع الجزائر الشرقية من يد المسلمين، لا سيما جزيرتي ميورقة Mallorca ويابسة Ibiza. ثم جدد حملات متوالية على أراضي بلنسية حتى استولى عليها سنة 636هـ/ 1238م، فمهد ذلك لسقوط عدد كبير آخر من المدن الإسلامية القريبة مثل دانية وشاطبة وجزيرة شقر.

وتوج خايمي الأول انتصاراته بالاستيلاء على مدينة مرسية ولقنت وإلش

(17) انظر: المراكشي، المعجب، ص401، الحميري، ص137، عنان، المرجع السابق، ص287 فما بعدها، دورثي لودر، إسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة: طارق فودة، القاهرة، 1965، ص67 ـ 68.

(18) See: A. Mackay, Op. Cit., P.58

وغيرها من المناطق الإسلامية[19]. وهكذا استطاع هذا العاهل أن يقضي على دولة العرب والإسلام في الجزائر الشرقية وشرقي الأندلس ولهذا فقد لقب في المصادر النصرانية بالفاتح أو بالغازي El Conquistador[20].

أما فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون، الذي كان يعاصر خايمي الأول وينافسه في الاستيلاء على أراضي المسلمين، فقد وجد مجالاً خصباً لمشاريعه التوسعية بعد موقعة العقاب وتفرق كلمة أهل الأندلس، وغلبة الفوضى والتفكك عليهم، وتفرقهم إلى دويلات شتى. فابتدأ غزواته بالتوجه إلى جنوب الأندلس والاعتداء على منطقة جيان، ثم غزا أحواز قرطبة وإشبيلية ثم استولى على قرطبة ذاتها في عام 633هـ/ 1236م. وهكذا سقطت عاصمة الخلافة الأموية التي ظلت ما يزيد على خمسة قرون موطناً للعلم والحضارة، تشع بنورها على ظلام أوروبا الدامس. فحوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة كما أخرج منها أهلها المسلمين أو اضطروا إلى ذلك نتيجة لمعاملة الغزاة القاسية[21].

ولكن أعظم إنجازات فرناندو الثالث كانت سيطرته على مدينة إشبيلية وذلك في سنة 647هـ/ 1248م[22]. وقد صمدت هذه المدينة العربية صموداً أبياً أمام القوات الغازية التي حاصرتها نحو سنة ونصف، لكنها

(19) انظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973، جـ1، ص383 ـ 384؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص273، 327؛ عنان، المرجع السابق، ص438 فما بعدها، 463 ـ 464، 606؛ Mackay, Op. Cit., P.59.

(20) عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، دمشق، 1976، ص473؛ عنان، المرجع السابق، ص607.

(21) عن سقوط قرطبة انظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة، 1964، جـ1، ص57؛ ابن الخطيب، الإحاطة، جـ1، ص383؛ عنان، المرجع السابق، ص424؛ الحجي، المرجع السابق، ص472.

(22) انظر: الإحاطة، جـ1، ص383؛ الحميري، ص22؛ عنان، المرجع السابق، ص466 فما بعدها، Mackay, Op. Cit., P.59

اضطرت بعد أن جردت من حصونها الأمامية مثل قرمونة ولورة وقنطلانة وغيرها، إلى التسليم. وقد ساعد على سقوط هذه المدينة أيضاً محاصرتها من قبل القوات البرية والبحرية التي دخلت من مصب نهر الوادي الكبير. ومما يجدر ذكره أيضاً مشاركة العديد من الجماعات النصرانية الصليبية في هذا الحصار مثل فرسان شنت ياقب، كما أمر البابا بأن تخصص كنائس قشتالة وليون ثلث إيراداتهما للمساهمة في نفقات الحرب. ولكن ومن أجل إظهار الحقائق التاريخية كاملة، يجب ألاّ ننسى مشاركة بعض حكام المسلمين في مساعدة فرناندو للاستيلاء على إشبيلية. وهذه المواقف السوداء لا يمكن أن تبرر لأولئك الذين فضلوا مصلحتهم الخاصة وبقاءهم في الحكم على مصلحة العرب والمسلمين في الأندلس، فساعدوا بأيديهم على زوال الوجود العربي من جميع شبه الجزيرة الآيبيرية. وهكذا استطاعت الممالك النصرانية أن تسيطر في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري على معظم أراضي إسبانيا باستثناء مملكة غرناطة، أما المناطق الغربية من شبه الجزيرة وهي البرتغال الحالية، فلقد تطورت فيها الأحداث بصورة مستقلة تقريباً عن بقية الممالك الإسبانية كما سيتبين لنا الآن.

ظهور مملكة البرتغال:

لما افتتح المسلمون الأندلس، كانت البرتغال تكوِّن إحدى الأقاليم التابعة لمملكة القوط، والتي تدعى لوزيتانيا أو لشدانية. وكانت عاصمتها ماردة، ومن مدنها قلمرية وأشبونة وشنترين وشلب وباجة. وفي عهد دول الطوائف ظل القسم الجنوبي من هذه البلاد بيد المسلمين يحكمه بنو الأفطس، الذين اتخذوا من بطليموس عاصمة لهم[23]. وكان حكمهم

(23) انظر: ابن عذاري، جـ3، ص235 فما بعدها.

يمتد من منتصف وادي نهر آنة حتى المحيط ويشمل على قسم من وادي نهر تاجة إلى الشمال حتى مدينة قلمرية. أما القسم الشمالي من ولاية لوزيتانيا فقد تغلب عليه النصارى بالتدريج، وكان فرناندو الأول ملك قشتالة قد سيطر على معظم قواعده، خاصة مدينة قلمرية التي أشرنا آنفاً إلى سقوطها بيده عام 456هـ/ 1064م. وقد جعل فرناندو هذه المنطقة الشمالية ولاية مستقلة باسم (البرتغال) نسبة إلى اسم بورتوكالي Porto Calle وهو الثغر الواقع على مصب نهر دويرة، كما جعل عاصمتها مدينة قلمرية[24].

وقد عهد الفونسو السادس ملك قشتالة بولاية البرتغال إلى أحد الكونتات الذين جاءوا من فرنسا لمساعدة النصارى في معركة الزلاقة، وهو الكونت ريمون البرجوني من أسرة آل كاييه، الذي تزوج من إحدى بنات الملك الفونسو السادس. وكان هذا التقدير ثمناً لجهود هذا الكونت وابن عمه الكونت هنري في خدمة الفونسو، ومحاربة المسلمين في منطقة البرتغال. وعندما توفي ريمون البرجوني خلفه في حكم ولاية البرتغال ابن عمه الكونت هنري الذي كان قد تزوج هو الآخر من ابنة أخرى للملك الفونسو السادس. وكان على هنري أن يحكم البرتغال باعتبارها ولاية تابعة لمملكة قشتالة، وتؤدي إليها الجزية، وتشاركها في حروبها ضد المسلمين[25].

وبعد وفاة هنري سنة 506هـ/ 1112م تولت زوجته الملكة تريسا

(24) عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الأول، ص522 - 523.
وانظر أيضاً: عبد الكريم التواني، مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، الدار البيضاء، 1967، ص444.

(25) انظر: المرجع السابق، ص524.
H. Livermore, The Origins of Spain and partugal, PP.391 - 392.

Teresa حكم البلاد، وصية على ابنهما الطفل الفونسو. وحدثت خلال سنوات حكمها حروب أهلية عديدة بينها وبين قشتالة، كما استبدت في البلاد، واستهترت مما دعا نبلاء البرتغال إلى عزلها وإعلان ابنها، الذي بلغ الثامنة عشرة من عمره، أميراً على البرتغال في سنة 523هـ/ 1128م. وقد عمد هذا الأمير إلى استقلال إمارة البرتغال عن قشتالة، وخاض من أجل ذلك حروباً عديدة مع الفونسو السابع ملك قشتالة. وأخيراً تمكن من تحقيق هدفه، واتخذ لنفسه لقب ملك البرتغال على الرغم من معارضة البابوية وملك قشتالة[26]. ويعرف هذا الملك باسم الفونسو هنريكيز Alfonso Enriquez نسبة إلى أبيه هنري، كما يسمى في المصادر العربية بصاحب قلمرية، لأنها كانت عاصمة مملكته أو بابن الرّنق أو الرَّنْك أو الرِّيق[27]. وفي عهد هذا الملك وضعت أسس دولة البرتغال الجديدة فتحولت من إمارة صغيرة إلى مملكة قوية، أخذت تقوم بنصيبها في الصراع مع الأندلس، وتوسع من مساحتها على حساب الأراضي الإسلامية في غرب شبه الجزيرة الآيبيرية. وقد كرس الفونسو هنريكيز نشاطه لغزو مناطق البرتغال الجنوبية فبدأ بأشبونة، فاستولى عليها عام 543هـ/ 1147م، ثم استولى على شنترين في السنة ذاتها. وأخيراً سيطر على مدينة باجة في جنوب البرتغال الحالية، في عام 573هـ/ 1177م[28].

وبعد وفاة الفونسو هنريكيز سنة 581هـ/ 1185م استمر خلفاؤه

(26) د. خليل إبراهيم، المرجع السابق، ص282.

Livermore, Op. Cit., P.394.

(27) انظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، بيروت، 1964، ص152، 219، 375، 526، المراكشي، المعجب ص330، 333، 400، ابن الخطيب أعمال الأعلام، ص251.

(28) انظر: المراكشي، المعجب، ص453 «عنان، المرجع السابق» القسم الثاني، ص24 - 25، 610.

بالتوسع والسيطرة على الأراضي الإسلامية المتبقية في منطقة الغرب، وبشكل خاص القواعد القوية مثل شلب وشنتمرية الغرب. وقد استغل الفونسو الثالث أحد أحفاد الفونسو هنريكيز الانحلال، والفزع الذي ساد في قواعد الغرب بعد سقوط إشبيلية بيد القشتاليين، للاستيلاء على هذه القواعد في أراضي البرتغال الجنوبية. فاستولى في سنة 640هـ/ 1242م على مدينة شلب وأخرج منها الموحدين. ثم واصل غزوه، فسيطر على شنتمرية الغرب بعد أن حاصرها من البر والبحر وذلك سنة 647هـ/ 1249م. وتابع هذا الملك البرتغالي توسعه في بقية أراضي جنوب البرتغال، فاستولى على سائر الحصون والمواقع الإسلامية الباقية فيها. ولم يحل منتصف القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري حتى كانت ولاية الغرب البرتغالية كلها قد وقعت بيد البرتغاليين، وبذلك تم القضاء على سلطان المسلمين فيها إلى الأبد[29].

اتحاد قشتالة وأراغون:

مرت على مملكتي قشتالة وأراغون بعد انتهاء حكم أعظم ملوكها، فرناندو الثالث ملك قشتالة وخايمي الأول ملك أراغون فترة طويلة اتسمت بالنزاعات الداخلية والحروب الأهلية والتنافس على العرش، وإن كانت لا تخلو من وجود بعض الملوك الكبار الذين استمروا في مهاجمة الأراضي والحصون الإسلامية في الجنوب. ولكن حدث في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي/ التاسع الهجري ما غيّر سير الأحداث في كل من المملكتين المذكورتين. فلقد تم زواج الأمير فردناند أو فرناندو الأراغوني من ابنة عمه ايسابيلا القشتالية سنة 873هـ/ 1469م. وكان من أحد شروط هذا الزواج الذي قبل به فرناندو هو أن يتعهد بأن يتابع

(29) انظر: المرجع نفسه، ص490 ـ 492، 612.

الحرب ضد المسلمين وقد تولت إيسابيلا الحكم بعد وفاة أخيها الملك هنري سنة 879هـ/ 1474م فأصبحت ملكة لقشتالة وليون، أما زوجها فرناندو فقد نال عرش مملكة أراغون بعد وفاة والده خوان الثاني سنة 884هـ/ 1479م وبذلك اتحدت المملكتان في ظل عرش واحد، واجتمعت كلمة إسبانيا النصرانية، وبدأت إسبانيا في ظل هذين الملكين اللذين يعرفان أيضاً باسم الملكين الكاثوليكيين، عهداً جديداً من القوة والازدهار[30]. وكان كل منهما طموحاً ففرناندو يطمع في سلطة سياسية كبيرة وفي السيطرة على المزيد من الأراضي. أما إيسابيلا فكانت كاثوليكية متدينة إلى حد التعصب، وتحلم باليوم الذي تسود فيه المسيحية الكاثوليكية جميع إسبانيا حيث لا يسمع صوت مسلم أو يهودي أو غيرهما. فكان من الطبيعي أن يعقدا العزم على التخلص من آخر المعاقل الإسلامية في البلاد، أي مملكة غرناطة، وأن يؤججا الروح الصليبية لحرب الاسترداد الإسبانية التي ابتدأها من قبلهما الملوك الإسبان من مختلف الممالك النصرانية[31].

سقوط مملكة غرناطة:

قامت مملكة غرناطة في سنة 635هـ/ 1238م على أثر انهيار حكم الموحدين بالأندلس. حيث استطاع محمد بن يوسف النصري، المعروف بابن الأحمر أن يقيم دولة امتدت رقعتها من جيان شمالاً إلى الجزيرة الخضراء جنوباً. وقد استطاع مؤسس هذه المملكة، الذي يرتفع نسبه الأعلى إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج[32]، أن يستغل حالة الفوضى التي

(30) انظر: عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة، 1966، ص180 ـ 184.
(31) انظر: A. Mackay. Op. Cit., P.205.
(32) انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، 1962 ص365، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1956 ـ 1961 =

سادت الأندلس في تلك الفترة بتقوية حكمه في غرناطة، والوقوف أمام أطماع الممالك الإسبانية، فوطد دعائمها، وأقرَّ بها الملك. وبعد وفاته، استطاع خلفاؤه من بني نصر الاحتفاظ بهذه المملكة مدى قرنين ونصف من الزمن وسط أخطار عديدة تمثلت في التوسع والتحالف الإسباني الخارجي، والنزاعات الداخلية. والحقيقة أن هذه الدولة على الرغم من صغر رقعتها، وخلافاتها الداخلية، كانت شوكة في جنب الدول النصرانية الإسبانية، لا سيما بعد اتحاد قشتالة وأراغون. فلقد لاحظ الملكان الكاثوليكيان أن وجود غرناطة يحول دون وحدة إسبانيا الكاملة، فصمما على القضاء عليها، وأخذا في الاستعداد للحرب. وكان القسس والأساقفة يحثون الناس في خطبهم على غزو غرناطة معتبرين هذا العمل من جملة الحروب الصليبية المقدسة.

ابتدأ الملكان الكاثوليكيان خطتهما في هذا السبيل بإهانة غرناطة وإجبارها على أن تكون تابعاً لمملكة قشتالة، وأن تعترف بطاعتها وتؤدي لها الجزية. وقد نقل سفير قشتالة هذه الشروط الثقيلة إلى السلطان علي أبو الحسن، الملقب بالغالب بالله (868 ـ 887هـ/ 1463 ـ 1482م) الذي رفضها بإباء، وأنذر السفير القشتالي بالحرب والكفاح. فغضب فرناندو الخامس (زوج الملكة إيسابيلا)، وهاجم أراضي غرناطة، واستولى على مدينة الحمة أو الحامة Alhama الواقعة إلى الجنوب الغربي من غرناطة. ولم يستطع السلطان أبو الحسن إنقاذ الحمة أو استردادها، في حين تمكن القشتاليون من الزحف على مدينة لوشة Loja شمال غرب الحمة، ومحاصرتها، لكن حاميتها الإسلامية استطاعت أن ترد النصارى على

= جـ4، ص366، الإحاطة في أخبار غرناطة، جـ1، ص377، جـ2 ص13، نفح الطيب، جـ1، ص294، 447، وانظر: عبد الواحد ذنون طه، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال أفريقيا والأندلس، دار الرشيد للنشر، ميلانو، 1982، ص216 ـ 217.

أعقابهم بعد أن كبدتهم خسائر فادحة[33]. وكانت الأحوال الداخلية في مملكة غرناطة تساعد النصارى في ذلك الوقت وتشجعهم على مهاجمتها والتدخل في شؤونها. فلم تكن لديها قيادة حكيمة لأن ملكها أبا الحسن كان قد أساء إلى شؤون الدولة، وبذر حوله بذور السخط والغضب لإغراقه في اللهو والعبث. ومما زاد في سوء الحال أن أبا الحسن اقترن في أواخر أيامه بفتاة نصرانية اعتنقت الإسلام، فاصطفاها على زوجته الأولى الأميرة عائشة التي ولدت له ولدين هما أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف. وقد أصبح السلطان الشيخ ألعوبة بيد زوجته الثانية التي كانت تطمح أن يكون الملك لأحد ابنيها اللذين أنجبتهما من السلطان. فعملت على الدس والتأثير عليه حتى نزل عند رغبتها وبدأ باضطهاد زوجته الأولى، فسجنها هي وولديها وعوملوا بمنتهى الشدة. وكان لهذا التصرف أثره على المجتمع الغرناطي، حيث انشق الناس إلى فريقين، فريق يؤيد الملكة الشرعية وولديها، وفريق يؤيد السلطان وحظيَّته. واستطاع الفريق الأخير أن يتغلب إلى حين، حتى حرض السلطان على محاولة قتل ولده أبو عبد الله محمد، وعندما علمت الأميرة عائشة بالأمر بادرت هي ومؤيديها إلى العمل ففرت من حبسها في قصر الحمراء مع ولديها[34]، واختفى الفارون لوقت قصير حتى قويت دعوتهم، ثم ظهر

---

(33) مجهول المؤلف، نبذة العصر في أخبار بني نصر، نشر: الفريد البستاني، المغرب، 1940، ص9، نفح الطيب، جـ4، ص512 ـ 514، وقارن: محمد عبده حتاملة، محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، عمان، 1977، ص17 ـ 18، 21 ـ 23.

(34) تذكر الرواية الإسلامية أن الأميرين هما اللذان فرا وحدهما. وجاءت هذه الرواية في كتاب مجهول المؤلف عنوانه «نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر» نشره ميللر في جوتنجن منذ 1863، ثم نشر بالمغرب بعناية الفريد البستاني مع، ترجمة إسبانية في سنة 1940. وهذا الكتاب معاصر للأحداث، ويعد من المصادر الفريدة عن سقوط غرناطة وأحوال العرب المتنصرين بعد السقوط، وقد اعتمدنا فيما أوردناه من معلومات بهذا الشأن على هذا الكتاب، كما نقل منه المقَّري قطعاً كبيرة أثناء كلامه عن أحداث =

الأمير أبو عبد الله محمد في وادي آش، وهو يتزعم أنصاره في ثورة على والده السلطان أبو الحسن، ولما لم يستطع الأخير مواجهة الثورة فر إلى مالقة عند أخيه الأمير محمد بن سعد المعروف (بالزغل) أي الشجاع الباسل. فتولى أبو عبد الله محمد، الذي يعرف في الروايات القشتالية والأوروبية باسم Boabdil، عرش غرناطة بدلاً من أبيه في أواخر سنة 887هـ/ 1473م. وهكذا أصبحت غرناطة ووادي آش وأعمالها تحت طاعة أبي عبد الله، بينما بقيت مالقة والمناطق الغربية من مملكة غرناطة على طاعة أبيه.

واعتزم هذا الأمير أن يقف بوجه النصارى، خاصة بعد أن هزموا من قبل عمه أثناء محاولتهم الاستيلاء على مالقة، فقاد حملة إلى قرطبة، وتغلب في طريقه على بعض الحصون والقلاع، وهزم النصارى في معارك محلية وعاد مثقلاً بالغنائم. لكن جيشاً من النصارى تمكن من اللحاق به بالقرب من اللّسانَة Lucena جنوب شرق قرطبة، فهزم جيشه وتمكن من قتل وأسر العديد من رجاله وقادته، وكان هو من ضمن الأسرى. فتولى عمه محمد بن سعد الزغل الحكم في غرناطة.

ونقل الأمير أبو عبد الله محمد إلى قرطبة، حيث احتفظ به الملكان الكاثوليكيان لما له من أهمية كبيرة في تنفيذ مآربهما في الاستيلاء على مملكة غرناطة. ثم قررا الإفراج عنه لأن إطلاق سراحه سوف يزيد من اضطرام الحرب الأهلية بين المسلمين، خاصة وأنه سوف يناوئ عمه

= الأندلس الأخيرة وسقوط غرناطة. انظر: ص10 من نبذة العصر، طبعة الفريد البستاني، وانظر أيضاً: المقّري، نفح الطيب، جـ4، ص507 ـ 529، المقّري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، 1939 ـ 1942، جـ1 ص50 ـ 72، وانظر أيضاً: عنان، نهاية الأندلس، ص95 ـ 96 هامش (1)، عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص553.

ويطالبه بالتخلي عن الحكم في غرناطة. ولكن قبل الإفراج عنه أخذ عليه ملكا قشتالة العهود والمواثيق التي تمكّنها من تحقيق سياستهما في القضاء على نفوذ المسلمين في غرناطة، خاصة وأن هذا الأمير كان ضعيف الإرادة لا يهمه سوى السلطة والرجوع إلى عرشه[35].

وهكذا ابتدأت الحرب بين العم وابن أخيه، وما صاحب ذلك من انقسامات ومنازعات داخل مملكة غرناطة. واستغلت جيوش النصارى هذه الفرصة والاضطراب الذي ساد في جبهة المسلمين، فزحفت لتنتزع ما يمكن انتزاعه من أيديهم من حصون وقواعد تمهيداً لإضعاف غرناطة وقطع صلتها بما حولها. فابتدأوا بالحصون المحيطة بمدينة رندة الجبلية واستولوا عليها، ثم حاصروا هذه المدينة الحصينة وسيطروا عليها سنة 890هـ/ 1485م. وهكذا سقطت سائر الأماكن والقلاع في تلك المنطقة، وتمهد الطريق لمهاجمة ثغر مالقة من جهة الغرب[36].

وكان لمالقة ولغيرها من موانىء الجنوب أهمية عظيمة كان يدركها القشتاليون. فلقد كانت هذه الموانىء تشكل مركز الاتصال بين الأندلس وشمال أفريقيا. ومنها كان يأتي دوماً المدد إلى العرب والمسلمين، سواء كان ذلك في عهد المرابطين والموحدين فيما مضى، أم في عهد المرينيين الذين كانوا غالباً ما يساعدون مملكة غرناطة بالرجال والسلاح. وسابقاً استطاع القشتاليون أن يسيطروا على طريف والجزيرة الخضراء، وجبل طارق، وكلها موانىء ذات أهمية بالغة في الاتصال بين المغرب والأندلس، أما في السنوات الأخيرة من عمر مملكة غرناطة فلم يبق إلا بضعة موانىء يمكن أن تكون حلقة الاتصال وهي مالقة وألمرية والمُنكّب.

(35) عنان، نهاية الأندلس، ص202، W. M. Watt, A History of Islamic Spain, Edinburgh, 1967. P.150

(36) نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ص12؛ عنان، المرجع السابق، ص206.

فكان من سياسة النصارى محاولة الاستيلاء على هذه الموانىء المهمة وغيرها لقطع كل اتصال خارجي، ومن ثم مهاجمة المدن والقواعد الإسلامية الداخلية جميعاً حتى تعزل غرناطة لوحدها، وعند ذاك يمكن توجيه ضربة حاسمة إليها فينتهي بذلك الوجود العربي الإسلامي من شبه الجزيرة.

استمر النصارى في استغلال الخلافات والفتن في غرناطة بين أنصار أبي عبد الله محمد وعمه الزغل، فهاجموا مدينة لوشة للمرة الثانية واستطاعوا أن يستولوا عليها سنة 891هـ/ 1486م، فهاجر أهلها إلى مدينة غرناطة. وسارت الجيوش القشتالية إلى الحصون المحيطة بغرناطة مثل حصن اليورة وملكين وقلنبيرة وغيرها من الحصون التي تحمي مشارف غرناطة، فاحتلوها وأخرجوا أهلها منها، ثم شحنوها بالرجال والمؤن والسلاح لتؤدي دورها في التضييق على غرناطة[37]. وكانت مملكة غرناطة قد مزقتها الفتن والخلافات، وأصبحت لا تعدو بضعة مدن وقواعد متفرقة مختلفة الميول والاتجاهات يتبع قسم منها الأمير أبا عبد الله محمد، خاصة المناطق الشمالية والغربية، أما القسم الآخر ويشمل الأنحاء الشرقية والجنوبية، فقد انضوى تحت لواء عمه محمد بن سعد الزغل. يضاف إلى ذلك فقد نفذت جيوش النصارى في قلب هذه المملكة وانتزعت منها معظم مدنها وحصونها الداخلية[38].

ركز الملكان الكاثوليكيان على الاستيلاء على المناطق التي كانت خاضعة للزغل، وأهمها بطبيعة الحال مالقة، والمنكب وبسطة ووادي آش والمرية. فقد حوصرت هذه الأماكن على التوالي من قبل النصارى،

---

(37) انظر: المقّري، نفح الطيب، جـ4، ص515، 516.

(38) نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ص17 ـ 19، نفح الطيب، جـ4، ص218، وانظر: عنان، نهاية الأندلس، ص210 ـ 211.

وسقطت الواحدة تلو الأخرى، بعد دفاع مستميت من قبل سكانها المسلمين. ولم يكن دفاع هؤلاء مجدياً بطبيعة الحال، نظراً لتفوق الجيوش المسيحية بالعدد والسلاح، ولأنهم كانوا يحاصرون هذه المدن لفترات طويلة تتجاوز عدة أشهر مما يسبب نفاذ المؤن والطعام، فيضطر السكان للتسليم وفق شروط معلومة.

ومما يلاحظ في هذا المجال أيضاً عدم قدوم نجدات من المدن الأخرى، أو من غرناطة، فقد كان الأمير أبو عبد الله محمد يحسب أن النصارى سيتركوه وشأنه في مملكته، لذلك لم يظهر أي اهتمام لما يجري لإخوانه في المدن الأخرى. وهكذا تركت هذه المدن لمصائرها، حيث سلمت بشروط تظاهر الأعداء أنهم سيحافظون عليها، لكنهم بعد السيطرة على هذه الأماكن نقضوا شروطهم واعتبروا أهاليها المسلمين رقيقاً لهم يجب عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم، وعاثوا فيها، وسبوا النساء والأطفال، كما جرى في مدينة مالقة على سبيل المثال[39].

بعد الاستيلاء على هذه المناطق لم يبق على النصارى إلا تسديد الضربة القاضية إلى مدينة غرناطة. فأرسل الملكان الكاثوليكيان رسلا إلى أبي عبد الله محمد لتسليم قصور الحمراء في غرناطة، ويكون تحت طاعة وحماية قشتالة وفي المقابل يمده الملكان بمال وفير ويسمحان له بالإقامة في غرناطة أو في أي بقعة يشاء من أرض الأندلس. وكان هذا يعني نهاية المملكة ولهذا السبب لم يوافق الأعيان والأجناد والفقهاء على ذلك، وقرروا القتال دفاعاً عن مدينتهم وعروبتهم ودينهم. عندئذ صمم الملكان على محاصرة المدينة والاستيلاء عليها بالقوة. وهكذا خرج فرناندو

(39) نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ص24 ـ 25، وانظر: المقَّري، نفح الطيب، جـ4، ص520 ـ 521.

متوجهاً إلى غرناطة في سنة 896هـ/ 1491م في جيش كبير يقدر بخمسين إلى ثمانين ألفاً من المقاتلين الفرسان والمشاة ومعهم المدافع والعدد الضخمة والذخائر الوفيرة. فعسكر هذا الجيش في جنوب غرب المدينة في مرج غرناطة، وصار يضيِّق على المدينة، ويخرب القرى المحيطة بها ويتلف الزروع، فقطع بذلك الموارد عن العاصمة، إلا ما كان يأتيها من جهة جبال سيرانيفادا. ولكن بحلول الشتاء انقطع هذا الطريق أيضاً نتيجة لنزول الثلج والأمطار، فقل الطعام وعظم البلاء واستولى النصارى على معظم الأماكن المحيطة بالبلد.

استمر هذا الحال ما يقارب السبعة أشهر أبدت غرناطة فيها كل ضروب الشجاعة والصبر وكان مقاتلوها يخرجون خارج الأسوار ويغيرون على الجنود المحاصرين ويكبدونهم خسائر كبيرة. لكن استمرار الحصار أخذ يؤثر في معنوية أهل المدينة الذين أصابهم الضرر حتى إنهم لم يمانعوا في الاستسلام، وهكذا استقر رأي السلطان والحاشية على مفاوضة النصارى والحصول على شروط جيدة نظير تسليم المدينة. فوقعت معاهدة التسليم في 21 محرم 897هـ/ 25 تشرين الثاني 1491م بين آخر سلاطين غرناطة أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) وبين ملكي قشتالة وأراغون. وتضمنت هذه المعاهدة شروطاً عديدة تبلغ سبعة وستين شرطاً حسب المصادر العربية(40)، أو ستة وخمسين شرطاً حسب المصادر القشتالية(41). وقد تعهد فيها الملكان الكاثوليكيان بأمور عديدة للمسلمين،

---

(40) المصدر نفسه، ج4، ص525 ـ 526.

(41) انظر: عنان، نهاية الأندلس، ص244 ـ 250 حيث اعتمد في معلوماته عن معاهدة التسليم على وثيقتين قشتاليتين، الأولى: محفوظة في دار المحفوظات العامة في سيمانقا Simancas برقم 207 - R.R 11 ضمن مجموعة:

Capitulaciones con Moros Y Caballeros de Castilla.

والثانية: وثيقة فرناندودي تافرا، أمين الملكين الكاثوليكيين، وهي محفوظة بمجموعة =

تتعلق بتأمين الأنفس والأموال، وسائر الحقوق المادية وصون الكرامة والدين واحترام الشعائر لكن هذه العهود نقضت جميعها الواحدة تلو الأخرى، ولم تكن سوى ستار للغدر والخيانة، حتى آل الأمر إلى حمل المسلمين على التنصر بعد سنوات قليلة من تسليم المدينة[42]. وتم تسليم غرناطة للإسبان بعد توقيع المعاهدة بفترة وجيزة، حيث دخلها الملكان في الثاني من ربيع الأول 897/ الثاني من كانون الثاني 1492، وتركها أبو عبد الله محمد الحادي عشر إلى منطقة اندرش Andarax في البشرات جنوب جبال سيرانيفادا. ويروى أن الأمير أبا عبد الله ألقى نظرة أخيرة على غرناطة من أكمة تشرف على المدينة، فأجهش في البكاء، فقالت له أمه الأميرة عائشة: «أجل فلتبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال» وتعرف هذه الأكمة التي شهدت هذا المنظر المؤثر بالإسبانية بـ El ultimo Suspiro del Moro أي «زفرة العربي الأخيرة»، وهي لا تزال قائمة معروفة حتى اليوم[43].

ولكن هذا الأمير الذي انتهى على يديه الحكم العربي الإسلامي في الأندلس لم يتمتع بالبقاء في الأرض التي عاش وترعرع فيها، بل كان عليه أن يغادر في العام التالي إلى المغرب، وذلك بناء على أمر من ملك قشتالة، وهكذا كانت خاتمة تلك المأساة، حسرات ودموع وألم تجرعها

= دي تافرا ببلدية غرناطة، وقد نشرت ضمن مجموعة وثائق تسليم غرناطة

Las Capitulaciones Para la Entrega de Granada, Por Miguel Garrido Atienza, Granada, 1910, PP.269 - 295.

(42) نبذة العصر، ص ص43 فما بعدها، نفح الطيب، جـ4 ص527 ـ 527، وانظر: عبد الكريم التواتي، مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس، ص467 ـ 472، محمد عبده حتاملة، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، عمان، 1980، ص59 فما بعدها.

(43) عنان، نهاية الأندلس، ص264 ـ 267، وانظر: حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، ص62.

الشعب العربي المسلم نتيجة لسوء تصرف حكامه وتكالبهم على السلطة والزعامة، وإهمالهم لوحدة الصف أمام عدو عنيد لم يكن له من همٍّ إلا استغلال تلك الخصومات والفرقة لتحقيق النصر على آخر ممالك المسلمين في الأندلس. ولهذا لم يكن سقوط غرناطة بيد المسيحيين الإسبان حادثاً فجائياً، بل كان نتيجة طبيعية لما تقدمه من أحداث، وخاتمة لصراع طويل الأمد، أهمل فيه بعض الحكام المسلمين النظر في مصالح الأمة، وصرفوا جهودهم في خصومات كانت أولى أن توجه إلى العدو المشترك.

أهمية الرحلات العلميَّة
بين المشرق والأندلس

ظهرت ترجمة فرنسية لهذا البحث في مجلة
Revue de L'Occident Musulman et de la Méditerranée
التي تصدر في Aix - en - Provence في فرنسا،
وذلك في عدد خاص بالأندلس عام 1986

هناك العديد من الرحلات التي تصنف حسب غاياتها، فمنها ما يهدف إلى كسب المال، وهي الرحلات التجارية، ومنها ما يعود إلى أسباب دينية، كرحلات الحج مثلاً، ومنها ما يهدف إلى تحقيق أهداف سياسية، ومنها تكليفية أو إجبارية. وأخيراً هناك الرحلات التي سنتناولها في هذا البحث، وتسمى بالرحلات العلمية.

وتعود قصة الرحلة في طلب العلم إلى بداية انتشار الإسلام، فهي

من الممارسات التي أكد عليها هذا الدين، وطالب أفراده بالرحلة في سبيل العلم. فقد كان من المعتقد أن اكتمال العلم لا يتم إلا بالرحلة إليه[1]. ويرى المؤرخ والعالم الاجتماعي المعروف ابن خلدون[2]، بأن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة يزيد في اكتمال التعليم، فعلى قدر كثرة الشيوخ وتعددهم يكون حصول ملكات التعلم ورسوخها في ذهن طالب العلم. ولهذا السبب نجد أن علماء المسلمين اهتموا كثيراً بالرحلات العلمية، وكانوا في أول الأمر يطلبون الأحاديث النبوية الشريفة، التي هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم. ثم تطورت مضامين الرحلات العلمية فشملت ميادين علمية أخرى دقيقة ومحددة.

ولم تقف الخلافات السياسية بين أجزاء العالم الإسلامي بجناحيه الشرقي والغربي أمام انتقال العلماء من مكان إلى آخر. ولدينا مثال جدير بالإشارة إليه في هذا المجال، وهو الرحالة المشرقي، والجغرافي ابن حوقل، الذي قام بجولة كبيرة في أرجاء العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، واخترق أنظمة سياسية متعددة، ودول إسلامية تختلف في اتجاهاتها ومذاهبها الدينية الواحدة عن الأخرى. فمن الموصل والجزيرة حيث كان يحكم الحمدانيون إلى مصر مقر الفاطميين، إلى الأندلس، موطن الخلافة الأموية في عهد الناصر لدين الله. ومع ذلك، فقد احتفظ ابن حوقل بآرائه السياسية والمذهبية التي كانت متعاطفة مع الفاطميين في مصر. ولم تقف هذه الآراء والمعتقدات حائلاً أمامه في دخول الأندلس، ووصفها، وتحليل قوتها السياسية والعسكرية بل إنه أمعن في هذا الأمر وصوَّر أهل الأندلس بصورة قد تغري الفاطميين بمحاولة

---

(1) انظر: ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، حيدر آباد، 1934 ص70.

(2) المقدمة، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ص541.

التفكير في السيطرة عليهم، لأنه حاول أن يقدم صورة سلبية عن شجاعة أهل الأندلس، وتهجّم عليهم، وعلى نظامهم الحربي والإداري(3). وقد دفع هذا الموقف من ابن حوقل ببعض المستشرقين والكتاب المحدثين إلى اتهامه بأنه كان جاسوساً للفاطميين(4). والحقيقة أنه لم يكن كذلك، بل كان متعاطفاً مع الفاطميين فقط. أما دخوله الأندلس، والحديث عنها، فيمكن تفسيره بأن الأخيرة كانت مفتوحة لكل من أراد دخولها، تستوي في ذلك مع بقية البلدان الإسلامية، لأن الرحلات كانت شائعة بين المشرق والمغرب، وتعد أمراً طبيعياً في ذلك العصر.

ومع ذلك فقد كانت كفة العلاقات بين الأندلس وبلاد المشرق في صالح الأخيرة في أول الأمر، وكانت الرحلات من الأندلس إلى المشرق أكثر شيوعاً بين العلماء، وذلك لأن العطاء الحضاري يأتي دائماً من المركز الأكثر حضارة وثقافة إلى الأدنى. وكما سنرى فيما بعد، فقد كانت الأندلس في أول الأمر تعتمد كثيراً على علوم المشرق، وتعدُّها الأصل والأساس الذي يجب أن يعرفه الأندلسيون. ولهذا فإن الرحلات العلمية عملت على توثيق العلاقات وترسيخها بين الجانبين، وأضفت على الحياة العلمية والثقافية الأندلسية طابع النمو والازدهار، ونقلت الأندلس من بلد متخلف (نسبياً) ومقلد للمشرق إلى منافس ومتفوق أحياناً(5).

---

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص104 ـ 105، 108 ـ 109، وقارن: عبد الواحد ذنون طه، الأندلس من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل، مجلة المؤرخ العربي (يصدرها اتحاد المؤرخين العرب) العدد 23، بغداد، 1983، ص43 ـ 64.

(4) R. Dozy, Histoire des Musulmans d'Espange, ed, Levi - Provencal, Leyden, 1932, Vol. II, P.125.

وانظر: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمه: عن الروسية، صلاح الدين عثمان هاشم القاهرة، 1963؛ 1/ 204.

(5) قارن: حازم غانم حسين، الحياة العلمية والثقافية في الأندلس في القرن الرابع =

وبواسطة هذه الرحلات كثر اتصال الأندلسيين بالمشرق، وعادت عليهم بفوائد كثيرة، أهمها بلورة الحركة العلمية في الأندلس وازدهارها، وكذلك تقوية العلاقات بين رجال العلم في كل من الأندلس والمشرق الإسلامي. ويبدو أن أهل الأندلس شعروا أنهم إن أرادوا اللحاق بأهل المشرق في المضمار العلمي، لا بد لهم أن يكونوا على اتصال دائم بهم، فأكثروا من هذه الرحلات، واستفادوا منها إلى درجة كبيرة.

ولقد سلك الأندلسيون طرقاً متعددة في رحلاتهم إلى المشرق، ولكن الطريق الأكثر استعمالاً كان يمر بشمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام. ثم الاتجاه إلى العراق وبلاد الحجاز وهناك من سلك طريق البحر بالركوب إلى مصر. ومنها بعد ذلك إلى بلاد الشام عبر سيناء أو إلى بلاد الحجاز عبر البحر الأحمر. وكانت الرحلات تتجه دائماً إلى عواصم الأمصار الإسلامية الشهيرة، مثل القيروان في تونس، والاسكندرية والقاهرة في مصر، وبغداد والبصرة والكوفة في العراق ومكة والمدينة في الحجاز، وصنعاء في اليمن[6]. ومما لا شك فيه أن هناك مراكز أخرى كثيرة للاستقطاب في المشرق، حظيت بزيارة الأندلسيين لكنها أهملت من قبل المصادر، ولم تذكر بسبب غلبة الأماكن الشهيرة التي أشرنا إليها قبل قليل.

وإذا ما تصفحنا كتب التراجم الأندلسية، نجد أسماء العديد من العلماء الذين رحلوا إلى بلاد المشرق في سبيل تحصيل العلم والتمكن من

= الهجري/العاشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، أعدت بإشراف كاتب هذا البحث، وقدمت إلى جامعة الموصل في أيار/مايو 1983، ص85.

(6) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982 ص410، وانظر: جعفر حسن صادق، الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق في عصر الإمارة (القسم الثاني)، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت إلى جامعة الموصل في نيسان/أبريل 1985.

الجوانب العلمية، ولكن الذي يجب أن نهتم به هو الحصيلة التي كان يأتي بها طالب العلم من رحلته والتي تختلف بطبيعة الحال من عالم إلى آخر. لكنها مع ذلك تعبر لنا عن حقيقة واضحة، وهي نوعية التحصيل العلمي واتجاهاته في الأندلس، والتعريف بالنتاج العلمي في المشرق في شتى العلوم.

وكان الاهتمام بالأحاديث النبوية الشريفة وجمعها في مقدمة العلوم التي يرحل من أجلها الأندلسيون، فعلى سبيل المثال، هناك العديد من العلماء الذين رحلوا إلى المشرق للالتقاء بشيوخ علم الحديث، فبرزوا فيه بعد عودتهم لا سيما في جمعه ودراسته والتأليف فيه وجمعه في كتاب منظم[7]. ومن هؤلاء محمد بن وضاح بن بزيغ، الذي رحل إلى المشرق، ثم رجع إلى الأندلس، فأنشأ مدرسة الحديث، التي نمت بجهوده وجهود تلامذته، وظل علماً من أشهر أعلام الحديث إلى وفاته سنة 287هـ/ 900م[8].

ولم يقف الأندلسيون عند حدود أخذ علوم الحديث حسب، بل أعطوا أيضاً من علمهم، ومارسوا التدريس والإقراء للأحاديث في المشرق، حتى إن بعضهم فضل البقاء على العودة إلى بلاده[9]. وهذا يظهر الترابط الوثيق بين المشرق الإسلامي ومغربه. يضاف إلى ذلك أن سعة التجوال، وطول فترة الرحلات في المشرق الإسلامي، التي برزت بشكل خاص في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، يعطي انطباعاً

(7) انظر محمد بن حارث الخشني، طبقات المحدثين، مخطوط مكتبة القصر الملكي في الرباط رقم (6916)، الورقة 49، 66، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، القاهرة 1966 1/ 43.

(8) المصدر نفسه: 2/ 17.

(9) المصدر نفسه: 2/ 89، 201.

بسعة حجم العلاقات الثقافية التي كانت تتم بين هذه البلدان، ويكشف أيضاً عن الرغبة الذاتية المتزايدة لطالب العلم الأندلسي في جمع التراث الإسلامي، والانشداد إلى المشرق. وكان بعض هؤلاء الطلاب يحظى بتقدير واعتناء الدولة، مما حفزهم على طلب العلم والبحث والتأليف، وزاد من مكانتهم عند الناس(10).

ومن العلوم الدينية الأخرى التي ركز عليها الرحالة الأندلسيون علوم القرآن، وهي تشمل علم القراءات، وعلم التفسير. واشتهر عبد الرحمن ابن موسى الهواري بهذه العلوم، وله كتاب في تفسير القرآن. وقد رحل إلى المشرق في بداية حكم عبد الرحمن بن معاوية(11). ويعد بقي بن مخلد من أشهر من ألف في التفسير. فقد قال ابن حزم القرطبي(12) عن كتابه: أنه لم يؤلف في الإسلام مثله. وجاءت جهود بقي بن مخلد في التفسير، وغيره من العلوم الأخرى نتيجة رحلته إلى المشرق وطلبه للعلم هناك. وتشير المصادر إلى أنه رحل مرتين، فكان مجموع ما قضاه في رحلتيه نحو خمسة وثلاثين عاماً(13).

ونتيجة لرحلة زياد بن عبد الرحمن اللخمي إلى المشرق دخل فقه الإمام مالك بن أنس إلى الأندلس، وانتشر كتابه الموطأ بين العلماء. ويعود الفضل في رسوخ هذا المذهب وانتشاره في الأندلس أيضاً إلى يحيى بن يحيى الليثي تلميذ زياد، الذي شجعه على الرحلة إلى المشرق

(10) المصدر نفسه: 1/ 366، 2/ 58، 61، 69، وقارن: حسين، الحياة العلمية والثقافية في الأندلس، ص90.

(11) ابن الفرضي: 1/ 257 ـ 258.

(12) رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، نشرت ضمن رسائل ابن الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، بيروت 1981؛ : 2/ 178.

(13) الخشني، طبقات المحدثين، الورقة 136، ياقوت، معجم الأدباء باعتناء مرجوليوث مصر 1924: 7/ 81، وانظر: صادق، الرحلات العلمية بين الأندلس والمشرق، ص42 ـ 61.

لطلب العلم، فرجع إلى الأندلس بعلم كثير، وأصبح مفتي البلاد الأول[14].

ولم تقتصر رحلات الأندلسيين على أخذ العلوم الدينية حسب بل تعدتها إلى بقية العلوم الأخرى. فقد أولى العلماء أهمية كبرى لدراسة اللغة العربية وآدابها، وكان لبعد الأندلس عن مصادر الدراسات النحوية في البصرة والكوفة دور كبير في تشدد الدارسين بالالتزام بقواعد اللغة والتعمق في دراستها والرحلة إلى المشرق، حيث المنابع الرئيسة لهذه العلوم. وفي مقدمة الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق محمد بن عبد السلام الخشني (توفي سنة 286هـ/ 899م) الذي دخل العراق وأماكن أخرى، وقضى خمسة وعشرين عاماً درس خلالها اللغة وآدابها وأخذ عن علماء مشهورين كثيراً من كتب اللغة، ثم عاد إلى قرطبة، ودرس في مسجدها الجامع[15].

وقد اهتم الأندلسيون بالتاريخ، ولكنهم في بداية الأمر ركزوا على سيرة الرسول ﷺ ومغازيه وأخبار الخلفاء الراشدين. ومن أبرز المؤرخين الرحالة عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة 238هـ/ 852م. فقد رحل إلى المشرق وقضى فيه نحو ثماني سنوات ولكنه لم يقتصر على دراسة التاريخ حسب، بل درس علوماً مختلفة ومن جملة مؤلفاته **كتاب التاريخ**، الذي ابتدأه بالحديث عن قصة العالم، وتاريخ الأنبياء والرسل، ثم ركز اهتمامه على مسائل الفقه والأحاديث النبوية، وكتب أيضاً بعض الفصول عن تاريخ الأندلس[16]. ولقد أخذ ابن حبيب معظم هذه الأخبار

(14) ابن الفرضي: 2/ 179.

(15) المصدر نفسه: 2/ 14 ـ 15، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، 1973، ص268.

(16) ابن حبيب، استفتاح الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد 5 مدريد 1957، ص 221 ـ 243.

والروايات عن بعض الشيوخ المصريين، مما يشير إلى تأثره برحلته إلى المشرق[17].

ولقد ركز العلماء الأندلسيون في رحلاتهم أيضاً على دراسة العلوم العقلية، كالطب والحساب والفلك، والفلسفة. ولكن هذا الاهتمام جاء في فترات لاحقة، لا سيما في أثناء القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي مما يشير إلى اتجاه الحركة العلمية في الأندلس نحو المزيد من الشمول والتنوع في مختلف أنواع العلوم والثقافة، وعدم الاقتصار على العلوم الدينية والنقلية حسب. وكانت بلاد المشرق وشمال أفريقيا هي المصدر الرئيس الذي أخذ منه الأندلسيون علومهم في هذا المجال، لا سيما الطب، حيث كانت حرّان وبغداد والقيروان من أهم المراكز التي يتجه إليها الرحالة المهتمون بدراسة الطب[18].

أما العلوم الرياضية، فقد شهدت مرحلة جيدة من الانطلاق في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فظهر عدد من العلماء والأندلسيين الذين أخذوا علومهم من بلاد المشرق، وجمعوا بين دراسة علم الحساب والعدد والنجوم، وألفوا فيها كتباً قيمة، جاءت بفضل الجهود الكبيرة التي بذلوها في الاطلاع على المصادر الهندية والإغريقية، ومؤلفات المسلمين على غرارها في المشرق. وبالنسبة إلى الهندسة، فقد اعتمدوا على كتاب **إقليدس** في الهندسة، الذي يسمى أيضاً بكتاب **الأصول أو كتاب الأركان**[19]. وقد ترجم هذا الكتاب في المشرق في عهد أبي جعفر

(17) انظر: عبد الواحد ذنون طه، نشأة التدوين التاريخي في الأندلس، مجلة دراسات، (تصدرها الجامعة الأردنية) العدد 1 المجلد 7، عمان 1980، ص75.

(18) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد السيد، القاهرة، 1955، ص88، 90، 112، 113 وانظر: حسين، الحياة العلمية والثقافية في الأندلس ص215 فما بعدها.

(19) جمال الدين القفطي، تاريخ الحكماء، تحقيق: جوليوس ليبرت، ليبزك، 1903، ص62.

المنصور، ثم ساهم الأندلسيون في الدراسات التي جرت عليه. ويعد المهندس الغرناطي أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح (توفي 426هـ/ 1034م)، من أشهر من تناوله بالشرح والتفسير، وقد ألف كتابين في الهندسة، أحدهما كتاب **المدخل إلى الهندسة** في تفسير كتاب **إقليدس**، والآخر كتابه الكبير في الهندسة الذي بحث فيه في أنواع الخطوط المستقيمة والمقوسة والمنحنية[20]. ولقد شهدت بلاد الأندلس إنجازات علمية رائعة في مجال الفلك، وصلت ذروتها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ويعود الفضل في ذلك إلى جهود علماء الفلك الأوائل الذين رحلوا إلى المشرق قبل هذا التاريخ، وأخذوا علومهم منه. وربما كانت المنجزات العلمية المشرقية الجاهزة قد وفرت للأندلسيين الوقت، والجهد فبرز فيها علماء أخذوا في الفلك من أمثال مسلمة بن أحمد المجريطي. وتكمن أهمية مسلمة في الإنجازات العلمية في الدراسات الرياضية والفلكية، التي تعبر عن مستوى رفيع في سعة المعرفة بأرصاد الكواكب، والتفهم التام للمؤلفات الإغريقية والهندية في الفلك، فضلاً عن المؤلفات المشرقية العربية كزيج الخوارزمي[21].

وقد تأثرت الفلسفة أيضاً بالمشرق، ومن المعتقد أن محمد بن عبد الله بن مسرة (توفي 319هـ/ 931م) قد تأثر بالآراء الاعتزالية خلال وجوده بالمشرق، لا سيما البصرة التي عرفت باستقطاب زعماء الاعتزال. وقد عمد ابن مسرة إلى بث مبادىء الاعتزال بعد عودته من المشرق، كالقول بالقدر والاستطاعة، والقول بالوعد والوعيد، كما فسر القرآن بشيء كثير من التأويل والغموض، وألف كتباً لدعم آرائه، ولكنها تعد من المفقودات في

(20) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، بيروت، 1965 ص483.

(21) لمزيد من التفصيلات انظر: حسين، المرجع السابق، ص230 ـ 234.

الوقت الحاضر. وقد أدت حركة ابن مسرة إلى امتعاض الفقهاء المالكيين، الذين طلبوا من الدولة أن تقف موقفاً حازماً من هذه الحركة وأتباعها[22].

ويتبين لنا من هذا العرض أهمية الرحلات في توفير الاتصال مع المشرق، ونقل علومه إلى الأندلس في شتى الاختصاصات. ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد بل إن الرحلات ساعدت أيضاً على نشر علوم الأندلس في المشرق، وكما ألمحنا سابقاً، فقد مارس بعض الرحالة التدريس والتأديب في مختلف بلدان المشرق. وهناك علماء آخرون من الأندلس كانوا يستشارون في مسائل عديدة من قبل أهل المشرق من مصر والقيروان ومكة وغيرها من الأقطار الإسلامية للتزود بمعرفتهم وعلمهم، لا سيما في الحديث وما يتعلق به[23]. وهناك إشارات أخرى في المصادر تشير إلى استفادة المشرق من خدمات الأندلسيين في حقول أخرى من المعرفة كالطب مثلاً. فقد رحل الطبيب محمد بن عبدون الجبلي إلى المشرق ودرس الطب وأتقنه هناك وفي طريق عودته أعار خدماته إلى مارستان الفسطاط بمصر[24].

وقد نتج عن الرحلات العلمية أن ازدادت حركة نقل الكتب المشرقية إلى الأندلس مما أثر على نمو العلاقات الثقافية وتقويتها بين الطرفين، وقد كان من أهم النتائج المترتبة على هذه الحركة قيام علاقات ثقافية مع المؤلفين في المشرق، وفي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وصلت هذه العلاقات حداً كبيراً من التنظيم بحيث استطاع حكام

---

(22) انظر: ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: ب شالميتا وآخرون، مدريد 1979: 5/25 ـ 29.

(23) ابن بشكوال، كتاب الصلة، القاهرة، 1966: 1/309، 310، 2/520.

(24) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص115، ابن الأبّار، التكملة لكتاب الصلة نشر: عزت العطار، القاهرة، 1956: 1/367 ـ 368.

الأندلس أن يجندوا لهم كتَّاباً في المشرق يعملون لحسابهم، فيؤلفون لهم الكتب ويرسلونها إليهم. وأبرز مثال على ذلك ما قام به أبو الفرج الأصفهاني من تأليف العديد من الكتب لحساب بني أمية في الأندلس[25].

ولقد عملت الرحلات العلمية أيضاً على ازدياد روح النقد لدى الأندلسيين ففي بادىء الأمر كان الأندلسيون ينظرون إلى كل شيء قادم عن المشرق باحترام وإعجاب، ولكن نتيجة لاستمرار الاحتكاك بين الطرفين، واطلاع أهل الأندلس على علوم المشرق ازداد اهتمام العلماء الأندلسيين بالتحري عن هذه العلوم ونقدها نقداً علمياً. ولم يعد يقبل كل شيء قادم من المشرق على أنه صحيح أو أنه أمر مسلّم به. وهذا يعني أن بلاد الأندلس أخذت تتخطى مرحلة التقليد والاقتباس، إلى مرحلة نضج الشخصية العلمية الأندلسية بفعل المؤثرات المشرقية الواردة إليها[26]. وقد انتقد علماء الأندلس العالم اللغوي البغدادي صاعد وأثبتوا أنه رجل قادر على تأليف الكذب من كتب الأدب، كما انتقدوا أيضاً أبا علي القالي القادم من بغداد وبينوا خطأه في إقامة وزن بيت من الشعر[27].

وفي الختام

قد يسأل سائل ما هو حجم هذا التبادل العلمي الذي جرى بين الأندلس والمشرق، أو بالأحرى ما هو عدد الأندلسيين الرحالة الذين ساهموا في هذه النهضة العلمية. الحقيقة أن الجواب عن هذا السؤال

(25) انظر: القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1950 ـ 1955: 2/ 252.

(26) انظر: حسين المرجع السابق، ص255.

(27) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، القسم الرابع، المجلد الأول، ص14، المقّري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968: 4/ 71.

صعب جداً، لأننا لو أحصينا طلاب الرحلات العلمية، كما وردت أسماؤهم وتراجمهم في كتب التراجم الأندلسية، لوجدنا أن العدد ضئيل نسبياً. فيستفاد مما ورد في دراسة حديثة لهذه الرحلات[28]، أن العدد هو نحو 226 شخصاً بالنسبة لعصر الإمارة، يضاف إلى ذلك أن عدداً يقدر بـ 29 شخصاً من هؤلاء قد تكرر، أي أن اسمهم ورد أكثر من مرة لقيامهم بزيارة أكثر من مكان واحد. وهذا الرقم بطبيعة الحال غير معقول، لا سيما وأن هناك أشخاص ورد اسمهم على أنهم زاروا صنعاء مثلاً، لكن لم يرد اسمهم ضمن الذين دخلوا مكة والمدينة، وهذا أمر مخالف للمنطق، لأنه لا يمكن أن يأتي عالم من الأندلس إلى صنعاء ولا يمر بقبر الرسول عليه الصلاة والسلام، أو لا يؤدي فريضة الحج في مكة، مما يشير إلى صعوبة إمكانية الاعتماد على قوائم كتب التراجم، التي أهملت دون شك ذكر أسماء المغمورين، وركزت على العلماء البارزين فقط.

(28) انظر: صادق، الرحلات العلمية بين الأندلس والمشرق: القسم الثاني.

أثر الحضارة العربية الإسلامية
على البرتغال[1]

نشر في مجلة آفاق عربية
السنة السادسة العدد الأول أيلول 1980

إذا سلّمنا بما يقوله الباحثون الشرقيون الذين لهم اطلاع في تاريخ البرتغال من حيث علاقته بتاريخ بلادهم، لتبين لنا بأن كلاً من تاريخ البرتغال وحضارتها يكادان أن يكونا غير معروفين بالنسبة لكثير من العالم.

إن إسهام الحضارة العربية الإسلامية في الثقافة البرتغالية وتاريخ ما لا يقل عن خمسة قرون من الحضارة العربية في الجزء الغربي من شبه

(1) نشر هذا المقال بالإنكليزية بقلم: F.J. Velozo في مجلة الجمعية التاريخية الباكستانية Journal of Pakistan Historical Society, Vol. XIV, 1966. تحت عنوان:
"The problem of Arabic - Islamic influence in portuguese civilization".
وقد أسقطت في الترجمة بعض التفصيلات والاستطرادات التي تتعلق بتاريخ الرومان في البرتغال، وغيرها من التفاصيل الجانبية التي قد لا تهم القارىء العربي.

الجزيرة الآيبيرية، حيث تقع البرتغال اليوم، يعتبر في حكم غير المعروف للباحثين الأجانب، وحتى لكثير من البرتغاليين أنفسهم. والسبب في هذا كما يرى الأستاذ ميندوز كوريا هو أن تأثر البرتغاليين كان قليلاً من الناحية العرقية بالفتح العربي الإسلامي.

البرتغال في ظل الرومان

ويحسن قبل الحديث عن الفتح العربي الإسلامي وأثره على هذه البلاد أن نتحدّث بشيء من الاختصار عن الخلفية التاريخية للبرتغال، وأثر القوى الأخرى التي سيطرت عليها وخاصة الرومان. فحينما جاء هؤلاء الفاتحون إلى غرب شبه الجزيرة الإيبيرية كان عليهم أن يقاتلوا ضد اللوزيتانيين، وهم من المقاتلين الفرسان مثل نظرائهم في جبال الأطلس حتى اليوم. وقد استدعى الرومان أحد قوادهم الكبار، وهو سيرتوريوس الذي أبحر من المغرب للمساهمة في قتال اللوزيتانيين. وبلاد لوزيتانيا هي الأراضي الحالية للبرتغال مع بعض الامتداد إلى مدينة ماردة في إسبانيا، وغاليسيا الحالية، وغربي الأشتوريش. وأخيراً أمكن التغلب عليهم بعد أن أبدوا أعمالاً بطولية، مثال ذلك الانتحار الجماعي الذي قام به سكان Medullius Mountain على تخوم نهر منهو.

بعد هذا بدأت عملية طبع هذه البلاد بالطابع الروماني ولمدة استغرقت ستة قرون. لقد تبنى اللوزيتانيون الحضارة الرومانية، بشكل خاص في المدن وفي الحقول والمستوطنات الرومانية الكبيرة. ولقد وفرت القلاع الرومانية الأمن والنظام لجميع أنحاء البلاد، وأجبر سكان المرتفعات على أن يستقروا في المناطق المنخفضة. وهكذا صارت لوزيتانيا ولاية رومانية، على الأقل الأجزاء الشمالية من البلاد التي فصلها عنها الأمبراطور أغسطس لأغراض حربية، حيث أصبحت تشكل ولاية

أخرى في عهد الأمبراطور كاريكولا، وهي ولاية غاليسيا التي تضم الأجزاء الشمالية الحالية من البرتغال. ومع هذا فقد تجمع السكان خلال تلك الفترة في الولايات التالية: Baracarensis, Emeritensis, Asturicensis, Lucensis, Pacensis, Scaiabitanus. وتضم البرتغال اليوم: Emeritensis, Baracarensis, Lucensis أما بقية الولايات فتتبع إسبانيا.

لقد تولت عاصمة للإمبراطورية الرومانية تقديم كل من اللغة والدين والمؤسسات البلدية وبقية مظاهر الحضارة الأخرى إلى هذه المنطقة. كما دخلت تأثيرات شرقية دينية أيضاً. وتقدمت المسيحية في البلاد حتى يمكن القول بأن وجودها هو الذي سبب حفظ الحضارة المحلية فيما بين اللوزيتانيين.

غزو البرابرة: الوندال، الآلان، السويف

في بداية القرن الخامس الميلادي غزا البرابرة شبه الجزيرة الإيبيرية. واستقر السويف، وهم من برابرة الجرمان، في كلاسيا خاصة في الولاية البرتغالية Entre - Douro - e - Minho.

ثم تم نفي أو إبادة الجماعات الأخرى المصاحبة لهؤلاء، وهم الوندال، والآلان، وبقي السويف وحدهم في الميدان. وفي سنة 429م عبر الوندال إلى شمال أفريقية، ووسع السويف من حدود الأراضي التي يسيطرون عليها حتى وصلت إلى Algarve على البحر جنوبي البرتغال، وسواحل كانتبريا في التخوم الشمالية لغاليسيا. ويتحدث الكتّاب المعاصرون لذلك الوقت بصورة خاصة عن المصادرات التي قام بها السويف لبيوت وثروات اللوزيتانيين ـ الرومان Luso Roman وكيف أنهم سيطروا على الكثير من الحقول الغنية والمزارع في المنطقة. ولكن من جهة أخرى فإن Orsius يخبرنا بأن السويف قد حولوا سيوفهم إلى

محاريث، فزرعوا الأرض حسب شروط واتفاقات جيدة مع الفلاحين اللوزيتانيين ـ الرومان.

يقول المؤرخون المعاصرون لذلك العهد بأن سكان الجبال هم الوحيدون الذين احتفظوا بنظام حياتهم القديم، وقاوموا لمدة طويلة هؤلاء الجرمان العظام. لقد أنشأ السويف دولة جديدة قائمة على أسس قومية مستقلة عن الأمبراطورية الرومانية، وهذه الدولة كانت ملكية وراثية. ولقد تعرضت شبه الجزيرة الآيبيرية في سنة 549م إلى غزو البيزنطيين عندما بدأ الأمبراطور Justinian (527 ـ 565م) محاولاته في استعادة أملاك الأمبراطورية الرومانية، فوصلت جيوشه إلى شمال أفريقيا حيث قهرت الوندال الذين كانوا قد أسسوا مملكتهم هناك. ومن هنا جاء البيزنطيون إلى شبه الجزيرة الآيبيرية، فغزوا كل أراضي ولاية باطقة الرومانية ـ ولاية أندلوسيا الإسبانية الحالية. وفي سنة 576م احتلوا جنوبي البرتغال الحالية وبعض مناطق أخرى مثل: Alentejo ومدينة Myrtillis التي كانت إحدى المواقع العسكرية المهمة للسويف.

وفي سنة 585م توحدت مملكة السويف مع مملكة القوط الغربيين بعد إجراء عسكري من قبل الملك القوطي Leovigild، الذي استدعي من قبل إحدى جماعات السويف لغرض تثبيت سيطرتها على بقية الفئات، ومع هذا فقد احتفظت مملكة السويف بشخصيتها ضمن الإمبراطورية القوطية، لأننا نعلم أن بعضاً من ملوكها قد عينوا للحكم من قبل العاهل القوطي. كما ذكر أيضاً بأن جيشها كان يتألف من السويف فقط، يضاف إلى هذا أنها احتفظت بسلطاتها ومنظماتها القومية الدينية على الرغم من القوة المركزية لمجالس طليطلة عاصمة القوط الغربيين. ولم يستطع القوط الغربيون أن يسيطروا على جنوبي البرتغال إلا في سنة 621م حيث عقدوا

اتفاقية مع الحاكم البيزنطي هناك تمت بموجبها سيطرتهم على هذه المناطق.

هكذا كانت مظاهر الحياة في البرتغال في تلك الأزمان، ولكننا يجب أن نذكر بأن السويف قد أثروا، إما تأثيراً حضارياً، أو عرقياً كبيراً في الشعب اللوزيتاني القديم. وهكذا تأثرت كل من الزراعة والصيد والبحرية والبناء والأسلحة والحرب والسياسة والموسيقى والفولكلور والعادات وبقية مظاهر الحياة الأخرى بالسويف، ولكن هؤلاء امتزجوا أخيراً بسكان البلاد الأصليين.

الفتح العربي الإسلامي

وفي عام 711م حدث من الأمور الهامة ما غيّر بصورة كلية تقريباً مرحلة التطور اللوزيتاني. فتحت قيادة القائد العظيم طارق بن زياد، استطاع الجيش الإسلامي، الذي كان يتألف في أغلبه من فرسان البربر، أن يقهر قوات القوط في معركة وادي لكة Guadalete في جنوبي إسبانيا. ولأجل أن يسيطر على زمام المواصلات في شبه الجزيرة، وهذا ما تحقق فعلاً فيما بعد، فقد سار طارق بقواته ووزعهم عبر الطرق الرومانية الرئيسة حتى وصلوا إلى شمال إسبانيا. ولم تكن هذه الطرق تقع ضمن أراضي البرتغال الحالية.

وفي سنة 713م نظم السكان المسيحيون في باجة جنوبي البرتغال حملة لمساعدة أهالي إشبيلية المتمردين ضد العرب. وفي طريقهم نحو الشرق انضمت إليهم تعزيزات من نبلة، المدينة الإسبانية التي تقع اليوم ضمن مقاطعة أندلوسيا. وخلال هذا الوقت كان موسى بن نصير قد وصل فعلاً إلى شبه الجزيرة فاستطاع أن يسحق بانتصاره العصيان ومؤيديه، ثم ذهب إلى ماردة التي افتتحها في 30 حزيران سنة 713م[2] ومن هناك أرسل

(2) تم فتح إشبيلية على يد موسى بن نصير قبل فتح ماردة، وقد تمرد أهالي المدينة بمساعدة القوط القادمين من باجة ونبلة حينما كان موسى مشغولاً بحصار ماردة. وكان الذي =

ابنه عبد العزيز ليقاتل مسيحيي الغرب، فافتتح نبلة، ثم باجة في البرتغال، وربما اكشونبة في هذه الحملة أيضاً، وهي تقع في جنوب البرتغال (تسمى اليوم Estombar).

استطاعت الجيوش العربية المتوجهة نحو الشمال أن تسيطر على مدينة Evora في 14 آذار سنة 715م. واستولت في نفس الشهر على Idanha a Velha (وهي مدينة Egitania الرومانية) - وفي 28 نيسان استسلمت Alcacar de sal التي تقع على المحيط، كذلك سقطت لشبونة وقلمرية في سنة 716م، وذلك في الفترة الواقعة بين كانون الثاني وآذار قبل مقتل عبد العزيز بن موسى. وكان عبد العزيز قد ذهب قبل اغتياله إلى أقصى الشمال وغزا كلاً من Oporto و Braga وTuy وOrense وLugo، وفي هذه الحملة استطاع عبد العزيز أن يخضع Galicia، وأن يأسر ملكاً مسيحياً هو Pelaio ويأخذه إلى قرطبة عاصمة المسلمين[3]. ولقد هرب Pelaio فيما بعد من سجنه وثار ضد العرب وتحالف مع البربر الذين كانوا قد استقروا في الاشتوريش[4]. وكان هؤلاء البربر قد ثاروا بدورهم ضد الحكم العربي تحت قيادة منوسة البربري حاكم مدينة خيخون، الذي كان قد تزوج من أخت Pelaio (وتزوج أيضاً من ابنة الدوق إيديوس، دوق أكيتانيا في فرنسا). وربما يعود إلى هذا التحالف السبب في كثرة تواجد المسلمين

= قضى على العصيان هو عبد العزيز بن موسى: الذي أرسل من قبل والده لإنجاز هذه المهمة: فأداها بنجاح ثم توجه إلى نبلة وباجة فافتتحهما ووضع فيهما الحاميات العربية (المترجم).

(3) كانت إشبيلية، وليست قرطبة، هي عاصمة البلاد أثناء ولاية عبد العزيز بن موسى، ولم ينقل المسلمون العاصمة إلى قرطبة إلا بعد مقتل عبد العزيز واختيار أيوب بن حبيب اللخمي والياً بدلاً منه. وفي رواية أخرى أن نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة كان في عهد الوالي التالي وهو الحر بن عبد الرحمن الثقفي. (المترجم).

(4) لا يوجد ما يؤيد هذا التحالف في المصادر العربية، والكاتب يعتمد هنا على مصادر مسيحية لاتينية (المترجم).

البربر في هذه المنطقة وحتى بعد حركة الاسترداد المسيحية الثي بدأت سنة 718م، كما تشير إلى ذلك المصادر المتقدمة في العصور الوسطى.

التأثير العربي الإسلامي في البرتغال

إن عدد أسماء المواقع الجغرافية العربية الأصل كبير بصورة غير اعتيادية في البرتغال، وذلك ينطبق حتى على المناطق التي خضعت للحكم العربي لفترة قصيرة. وتكثر هذه الأسماء بشكل عجيب في أقصى المناطق الجنوبية للبرتغال، ولا يضاهيها في هذا الأمر إلا منطقة أندلوسيا في إسبانيا. ويجب علينا في هذا المجال أن نفكر في دوافع هذه الظاهرة.

فلقد فتح العرب بعض المدن وطبقوا فيها الحكم الإسلامي موقِّعين معاهدات مع كل جماعة ارتضت إما طوعاً أو حرباً بحكم المسلمين. وفي السنوات الأولى، أبقى العرب ملوك القوط الغربيين على عروشهم في طليطلة(5). وتزوج عبد العزيز بن موسى من أرملة لذريق، آخر ملوك القوط الغربيين وتصرف العرب إلى حد ما، وإلى زمن معين كممثلين لملوك القوط الشرعيين الذين اعترفوا بسيادة الخليفة في دمشق.

ونحن نمتلك أدلة كثيرة على أن العرب أعطوا عهوداً واتفاقات لأديرة مسيحية كبير مثل Algarve و Larvao وغيرهما، وأنه كان هناك حريّة دينية للمسيحيين الخاضعين تحت حكمهم. لقد كانت حضارة العرب متقدمة ومتطورة أكثر من حضارة شبه الجزيرة اللاتينية المسيحية. وبطبيعة الحال فقد تبنى السكان عادات وتقاليد الفاتحين المتحضرة إلى حد كبير خلال فترة القرون الخمسة التي خضع فيها تاريخ البرتغال للحكم العربي.

(5) هذا غير صحيح من الناحية التاريخية، ولا يوجد هناك أي دليل يؤيد هذا الزعم، فلقد قتل أو فقد لذريق آخر ملوك القوط، وسيطر العرب سيطرة فعلية على البلاد، فأصبحت على الفور جزءاً من الدولة الأموية (المترجم).

ويمكن القول إن عدد العرب الذين كانوا موجودين في البرتغال قليل. اللهم إلا إذا اعتبرنا البربر عرباً. ويلاحظ وجود بعض المصريين في باجة، وبعض اليمانيين في شلب. ومع هذا فقد احتفظت هذه المدينة باسمها العربي السائد (شلب). ولكن تبقى الحقيقة وهي أن التأثير العربي - الإسلامي في الحضارة البرتغالية كان كبيراً وعميقاً بشكل غير متوقع.

تضم اللغة البرتغالية كثيراً من الكلمات العربية، ويمكن العثور على هذه الكلمات بسهولة من قبل أي فرد، لأنها تحتفظ بألف لام التعريف العربية. ويمكن أن نعتبر العدد الكبير من أسماء المواقع الجغرافية العربية وبخاصة في منطقة لشبونة، دليلاً على هذا التأثير، لقد كانت لشبونة مركزاً عربياً كبيراً للتجارة والملاحة، ويخبرنا الجغرافي الإدريسي عن قصة إبحار المغامرين الثلاثة، التي تعتبر، كما يقول أحد الباحثين البرتغاليين المحدثين، الخطوة الأولى في الاستكشافات البحرية البرتغالية منذ العصر العربي.

على الرغم من الحروب بين الملوك المسلمين والمسيحيين، فإن طرائق الحياة لكلا الشعبين كانت وشيجة الاتصال إلى حد يصعب معه على المؤرخ أن يعرف أو أن يميز القضايا التي تخص العرب أو المستعربين أو المسيحيين. ويبدو أن العرب لم يعكروا صفو نظام الحياة السائد في المناطق التي سيطروا عليها، لأننا نرى بأن المؤسسات الرومانية القديمة استمرت في أعمالها تحت أسماء عربية، مثل القاضي، القائد، المحتسب، وتكشف الوثائق عن تبني الشعب لعادات العرب في كثير من المناطق. وإذا لم تكن الزراعة، وهي بصورة خاصة رومانية الأصول جرمانية التركيب، كما يصفها عالم أمريكي، فإن الصناعة التي تخدم أغراضاً زراعية كانت قد تأثرت تأثراً كبيراً بالعرب. ومن الأمثلة على هذا استحداث الناعورة، وصناعة الصابون، والزينة والمداخن في المنازل. . .

إلخ. ولكن أهم الأمور كلها، هو التأثير العربي في المؤسسات العامة وكذلك في الحياة المنزلية.

لقد أصبحت البرتغال مستقلة في سنة 1140م، ولقد تبنى الملك Alfonso Henriques الذي يسميه العرب لذريق، حماية المواطنين المسلمين، مبقياً على قضاتهم، وعاداتهم، كما فعل العرب بالذميين الذين خضعوا للإسلام. وحتى اليهود استفادوا من هذه المثل القرآنية. ولقد كان ملوك البرتغال يشيرون إلى المسلمين الخاضعين لسيطرتهم، بأتباعي المسلمين، My Moor ويكاد القانون الجنائي البرتغالي في العصور الوسطى أن يكون عربياً في مواصفاته. ويجب ألا نستغرب من هذا الأمر لأن العرب كانوا حكاماً لمدة خمسة قرون في هذه الأرض. صحيح كانت هناك مؤسسات محلية أيضاً. ولكن دراسة القوانين القديمة تشير إلى أن هناك عدداً لا بأس به من الموظفين البرتغاليين في العصور الوسطى كانوا يتمتعون بألقاب ومناصب عربية، ولقد كان هذا إلى حد ما نتيجة لاتخاذ لشبونة عاصمة للحكم الملكي المسيحي، وهي التي كانت سابقاً مركزاً عربياً مهماً.

وإذا ما عدنا إلى العصور العربية، فعلينا أن نتأمل هذه الحقيقة الغريبة، قبل حركة الاسترداد المسيحي، حارب بعض المقاتلين المشهورين في صفوف العرب، كما حاربوا في صفوف المسيحيين أيضاً. مثال على ذلك السيد القمبيطور في قشتالة (إسبانيا)، وكذلك Geraldo Sepavor في البرتغال وهذا الأخير قتل في السوس في المغرب نتيجة لاتهامه، وربما كان هذا صحيحاً، بأنه كتب رسالة إلى الملك Alfonso Henriques يحرضه فيها على غزو المغرب، حيث كان Geraldo نفسه يخدم هناك في صفوف الجيوش العربية.

ومن الشخصيات المثيرة للانتباه أيضاً شخصية Sisenando «وزير»

قلمرية أثناء الحكم العربي، الذي كتب رسالتين بالعربية إلى عاهله خليفة قرطبة يعلمه فيهما عن انتهاء سيطرته على البلدة. وفيما بعد انضم هذا النبيل إلى جانب النصارى مع كل المناطق التابعة له، والتي كانت جزءاً كبيراً من وسط ما سوف يعرف مستقبلاً بالبرتغال.

وظهرت في مدينة بطليموس، وهي مدينة إسبانية في الوقت الحاضر لكنها كانت تقع ضمن أراضي لوزيتانيا القديمة، إمارة ابن مروان الجيليقي وهو حاكم عربي من أصل غاليسي، وربما كان استقلاله بعيداً عن الشمال المسيحي صورة سابقة لأشكال الاستقلال التي ستحدث في البرتغال فيما بعد. وهناك العديد من الملوك الصغار بأسماء عربية، لكنهم من أصل لوزيتاني، حكموا في أماكن عديدة من الأراضي البرتغالية.

ظلت جماعات عديدة من الشعب تتبنى العادات والمؤسسات الإسلامية مثال ذلك المؤسسات العسكرية. ولدينا الكثير من الآثار العربية الطراز التي يمكن التمييز بينها وبين التي في إسبانيا، ولقد شُخِّصت فيما بعد أنواع هذه الآثار من قبل باحث برتغالي.

ولقد ولد وترعرع في خلال القرون الخمسة التي انتشرت فيها الحضارة العربية في أرض البرتغال، شعراء وقضاة ونحويون. ولربما يعتبر ابن عمار، من شلب، والمعتمد من باجة، والذي أصبح فيما بعد ملكاً على إشبيلية في إسبانيا، من أعظم شعراء ذلك الزمن، وكانت العاطفة والحماسة المفرطة في شعرهما معروفة جداً وتمثل إحدى خواص الشعر البرتغالي.

عومل العبيد في البرتغال المسلمة معاملة كريمة كما هو الحال في بقية الأقطار الإسلامية. ولقد كان لتقليد الـ«anadigo» في برتغال العصور الوسطى أهمية عظمى، وهو يحمي المرأة المربية والمرضعة لابن سيدها، الذي هو ابنها أحياناً. ولقد أطلقوا على هذه المرأة اسم «أمَه» ويقوم

سيدها بتكريمها وتكريم أسرتها بإهدائها قطعاً من الأراضي، ويمن عليها بالحرية، وذلك طبقاً للقانون الإسلامي، ومن المحتمل أن يكون تقليد «الأمة» هذا، قد أدخل إلى وسط الهند من قبل البرتغاليين في القرن السادس عشر الميلادي، وكذلك إلى الشرق الأقصى، حيث إن «الأمة» أو الـ «amah» تعني «مربية بلدية». ولهؤلاء المربيات تأثير كبير في التقاليد والفولكلور البرتغالي، لأن أصلهن في العادة من مناطق إسلامية. لقد كن يغنين القصص الشعرية الرومانسية، التي ما هي في الحقيقة إلا ذكريات ماضية للقصيدة العربية، إما في المحتوى أو في الإيقاع.

ويظهر قانون المواريث التأثير الكبير للتشريع القرآني على الحياة القديمة للسكان اللوزيتانيين. فحتى عام 1910م كان يحق في البرتغال للشخص أن يتصرف بثلث ثروته فقط قبل الوفاة، أما ما تبقّى من ممتلكاته، وهو الثلثان، فيحفظ للأبناء.

وبواسطة تحوير السفن العربية التقليدية في Algarve استطاع الأمير هنري الملاح وبحارته أن يتوصلوا إلى صناعة Caravels وهي المراكب الصغيرة السريعة التي ساعدت على تحقيق استكشافات القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وأخيراً يجب أن نشير إلى حقيقة ظهرت أهميتها مؤخراً في بعض مناطق البلاد. فلربما نسمع في أوقات الظهيرة صوت أغنية ذات لحن هادىء شجي لكن الذين يغنونها لا يعرفون لها أصلاً، وهي نفس ما كنا نسمعه فيما مضى من على مآذن الجوامع. ولقد لوحظ هذا الأمر بعناية من قبل المختصين وعلماء الآثار البرتغاليين.

إن النقود العربية وكذلك بعض القطع والآثار الفنية ما يزال يعثر عليها في كل مناطق البرتغال. وهذا المشهد لم يتكامل بعد، ففي كل يوم يزداد عدد الباحثين البرتغاليين الراغبين في الدراسات العربية، ومن المؤمل

أن يكون عملهم وجهدهم مثمراً. ولكن يجب أن أشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن تطور الدراسات في التاريخ، وخاصة في تاريخ القانون، لا بد وأن تكشف عن الكثير من جذور مؤسسات النظام البرتغالي القديم، الذي سقط في سنة 1820 نتيجة لتأثير أفكار الثورة الفرنسية، والذي كان يتميز بحكومته الموروثة والاحترام لحقوق الإنسان والحرية على الرغم من التأثير الأجنبي.

وعندما ذهب البرتغاليون إلى أقطار أخرى، حملوا معهم هذه النظم، وأقاموا طريقة للتعايش مع الشعوب والأديان الأخرى، وهذا الأمر لم يطبق من قبل بعض الأمم الأوروبية الأخرى في مستعمراتهم فيما وراء البحار. ويعرف كل المؤرخين سياسة البرتغال القائمة على منح أعدائهم شروطاً متساهلة للاستسلام، وعقد المعاهدات مع السلطات الوطنية، وحماية المؤسسات المحلية بدلاً من تدميرها، أو التشكيل الفوري لارتباطات اقتصادية قومية مع الشعوب التي تحكمها. وهم غالباً ما يتخذون نظماً، وربما كان من أهمها نظام The Foral، وهي اللائحة التي تشير إلى امتيازات السكان المحليين وواجباتهم تجاه ملك البرتغال، على أسس تشابه الأحكام الإسلامية فيما يخص حماية أهل الذمة.

وهذه السياسة فيما أعتقد، مسؤولة عن عدم تمييزهم العنصري، الظاهرة التي اتسمت بها الفتوحات العربية الإسلامية، في المناطق التي سيطرت عليها البرتغال بعد أن أصبحت دولة جديدة في القرن الثاني عشر الميلادي سنة 1140م. كما أنني أعتقد أيضاً بأن كل هذه المبادىء التي أثرت في توسع البرتغال وسياستها فيما وراء البحار، حتى في أقطار غير إسلامية كالبرازيل مثلاً، تعزى بالدرجة الأولى إلى الأثر الثقافي المهم الذي تركه نظام الذمة الإسلامي في التربة اللاتينية. وهذا قد يوضح الاختلافات الموجودة بين التوسع البرتغالي وغيره لدى الدول الأوروبية الأخرى.

بعض التقاليد العربية الإسلامية
في الحياة الإسبانية(1)

قبل هذا البحث للنشر في مجلة آفاق عربية
التي تصدرها وزارة الإعلام العراقية

افتتح العرب والبربر والمسلمون إسبانيا في تموز 711م/ 92هـ قبل سنة من الفتح العربي للسند، وقد حكموا إسبانيا حتى سقوط غرناطة في كانون الثاني 1492/ 897هـ. وعاشوا قرابة مائتي سنة أخرى هناك رعايا للملوك الكاثوليك وكانوا يدعون بالموريسكيين Moriscos حتى تحول بعضهم إلى المسيحية. وقضي على الآخرين أو نفوا إلى فرنسا والبلدان الإسلامية وقد كان للمسلمين كما يبدو القابلية على تكييف أنفسهم للعيش

---

(1) نشر هذا المقال بالإنكليزية بقلم S.M. Imamuddin في مجلة الجمعية الآسيوية.
Journal of the Asiatic Society, pakistan, 1967, Vol. XII. no.I, pp.111 - 121.
تحت عنوان: Some Moorish Traditions in Spanish life

في أي مكان يذهبون إليه ولهذا ففي أثناء إقامتهم الطويلة التي تبلغ نحو تسعمائة عام في إسبانيا، استطاعوا أن يغرسوا طرقهم وعاداتهم الشرقية في جيرانهم المسيحيين. بل كانوا أفضل من الإسبان من الناحيتين السياسية والاقتصادية فضلاً عن كونهم متفوقين عليهم من الناحية الحضارية أيضاً.

وعلى الرغم من أن المركز السياسي والحضاري لإسبانيا المسلمة كان في الجنوب، فقد تأثر الشمال بالحكم الإسلامي أيضاً. ويصدق ذلك كذلك على المغرب العربي المشهور الذي كانت الأندلس تشكل جزءاً منه. وهكذا أصبحت المراكز السياسية والحضارية الإسلامية مصدر إشعاع إلى الأجزاء الشمالية من إسبانيا طيلة فترة حكم المسلمين، وقد استمرت الحضارة العربية الإسبانية بالتأثير على المدنية الأوروبية والإفريقية حتى بعد إبعاد العرب عن إسبانيا وساهمت في مجالات عديدة لقيام الحضارة الحديثة في أوروبا.

ويمكن ملاحظة مثل هذا التأثير منذ وقت مبكر يرجع إلى عصر عبد الرحمن الثاني 822 ـ 852م/ 206 ـ 238هـ. فقد تبنى السكان الأصليون الذين فضلوا العيش تحت ظل سادتهم الجدد العادات والأساليب العربية إلى حد كبير، بل إن قسماً كبيراً من السكان نسي لغته الرومانسية المشتقة من اللاتينية، وأخذ يقرأ الإنجيل مترجماً بالعربية، وقد تعرّب هؤلاء وأصبحوا منذ ذلك الوقت يعرفون بالمستعربين. (بالإسبانية Mozarabs). ولم يكن هذا بالأمر الذي يمكن أن يتسامح إزاءه رجال الكنيسة، الذين كرهوا المسلمين وابتدأوا حركة دينية على السلطة القائمة، وتقوّلوا علناً بما لا يليق بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام. وأصبحت هذه الحركة تعرف بحركة Zealot ولم تخمد نارها إلا في عهد الأمير محمد الأول (850 ـ 886/ 238 ـ 273)، الذي قضى عليها. وهو ابن الأمير عبد الرحمن الثاني وخلفه. وبما أن المستعربين خضعوا أكثر من غيرهم للتأثير العربي، فقد

لعبوا دوراً مهماً في نقل المعرفة والحضارة العربية ونشرها في شمال إسبانيا وبقية أنحاء أوروبا. وظل المستعربون بعد قرن من الزمان في أعقاب سيطرة الفونسو السادس ملك ليون على طليطلة Toledo في 1085م/ 478هـ يكتبون الإسبانية بحروف عربية[(2)].

كان المستعربون ثنائيي اللغة، وكانوا أحد العوامل التي ساعدت على الاتصال بين المسلمين والمسيحيين في المجالات الاجتماعية والثقافية وحينما افتقد هؤلاء المستعربون التسامح المعهود من قبل الحكام المسلمين بعد القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري، بدأوا بمغادرة الجنوب إلى الشمال. ففي سنة 1102م/ 496هـ هاجروا من بلنسية إلى قشتالة، وفي سنة 1125م/ 519هـ غادر نحو عشرة آلاف منهم غرناطة مع القوة المسيحية المنسحبة بقيادة الفونسو الأول ملك أراغون، وفي سنة 1146م/ 541هـ نفوا من إشبيلية إلى الأراضي القشتالية[(3)].

لم يكن المستعربون موالين بصورة دائمة للحكام المسلمين، وكانوا غالباً ما يتآمرون ويتعاونون مع ملوك الإسبان في غزواتهم على أراضي المسلمين، ونتيجة لتعاونهم استطاع الفونسو السادس ملك ليون أن يديم تموين جيشه البالغ نحو أربعمائة ألف مقاتل لمدة تسعة أشهر في المنطقة الإسلامية في أثناء قتاله المرابطين. وعندما انسحبت هذه القوات لحقت بالملك المسيحي ألوف من النصارى خوفاً من انتقام المسلمين، وقد نقل الكثير من الباقين من قبل علي بن يوسف بن تاشقين وأسكنوا في مدينتي آسفي ومكناس[(4)].

---

(2) Hole, Edwyn, Andalus, Spain under the Muslims, London, 1958, p.49.

(3) R. Menendez Pidal, Origenes del espanol, Pp.445 - 6.

(4) Hole, P.50.

وقد رافق نحو أربعين ألف يهودي جيش الفونسو الحادي عشر ملك ليون (1312 ـ 1350م) وعلى الرغم من أنهم تلقوا اللوم والمعاملة السيئة في الأراضي المسيحية بسبب استغلالهم وسلبهم للفقراء، فقد تمتعوا بحماية الملوك والزعماء لحاجتهم إلى أموالهم واعتمادهم على خدماتهم، وقد اتخذ العديد من النبلاء المسيحيين الزوجات اليهوديات لجمالهن وثروتهن. وفي القرن الرابع عشر ألح الفونسو الحادي عشر على البابا كليمنت السادس Clament VI ليسمح لليهود باستعمال كنائسهم بحجة أنهم قاتلوا المسلمين إلى جانب المسيحيين، وأن سكناهم في المدن كان ضرورة أساسية للاستقرار الاقتصادي. وكان العديد من المدجنين Mudejars قد غادروا إلى الجنوب، وقد عوضت هذه الخسارة بوصول اليهود، الذين عينوا موظفين لجمع الضرائب وملتزمين للمزارع التي تقع خارج نطاق أراضي المسيحيين في طليطلة ومرسية Murcia، ولامانشا La Mancha من سنة 1272 ـ 1274م، وقد عُدّ اليهود مع ذلك خدماً للكنيسة التي غالباً ما كانت تسلبهم ثرواتهم.

لقد أثر كل من المستعربين واليهود، والمدجنين على السفن والمدنية المسيحية، وغرسوا الروح الإسبانية ـ الإسلامية في الحياة المسيحية وهناك أيضاً المهربون والجواسيس الذين كانوا ثنائيي اللغة يعيشون في مدن الحدود وكانت إحدى هذه المدن تسمى Pueblo de Naciados وهي ما تزال مدينة مزدهرة في منطقة الاسترامادورا Extramadura. وكان المعلمون والتجار المسلمون واليهود من كبار حملة الحضارة في إسبانيا المسلمة، وقد اكتسب تلامذتهم وزبائنهم طرقهم وعاداتهم، ونظراً لتوفر أفضل أنواع المعالجة الطبية في قرطبة، قصدها المرضى المسيحيون من الشمال لغرض المعالجة.

ولقد شفي سانشو السمين Sancho the Fat من بدانته المفرطة بفضل

شروط الطبيب اليهودي الخاص بالخليفة. «وكانت الزيارات غالباً ما تتبادل بين المسلمين والمسيحيين في أثناء الحروب، وكذلك ساد التعاون المتبادل بين الطرفين، ويبدو أن المقاتلين في كلا الجانبين كانوا خليطاً من المسلمين والمسيحيين» ولقد حددت هذه الفكرة بشكل واضح في كلمات كاسترو بالقول: «عاش السيد Cid في مملكة سرقسطة Zaragoza الإسلامية بين سنتي 1081 ـ 1087م/ 474 ـ 480هـ، ولهذا فقد استطاع أن يحمي المستعين بن المؤتمن بن هود، فحارب ملك لاردة Lerida المسلم عدو المستعين، وكان ملك لاردة يتمتع بدوره بحماية كونت برشلونة Barcelona المسيحي. ولكن كان على السيد أن يحارب أيضاً ملك أراغون Aragon حليف ملك لاردة.

وقبل هذا التجأ الفونسو السادس Alfonso VI ملك ليون إلى بلاط المأمون حاكم طليطلة، وذلك بسبب عزله من مملكته من قبل أخيه سانشو Sancho، إن هذه الأمور وغيرها مما قد يجده القارىء في كتاب منديث بيدال الموسوم «إسبانيا في عهد السيد»، «La España del Cid» كانت أحداثاً مألوفة حتى القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري. وقد يضطر الرجل المسيحي الإسباني وهو يواجه مثل هذه الظروف أن يؤكد خصوصيته الإسبانية ـ الإسلامية بوصفها وسيلة من وسائل الدفاع الطبيعي إزاء ضغط العديد من الرهبان والقسس، والفرسان، والتجار، والأحبار، الذين عمروا شبه الجزيرة من الأراضي الأجنبية، لا سيما فرنسا. وكان هذا هو النول الذي نسجت حوله بنية الإسباني، وعليه حيكت طبيعته الفنية والأدبية»[5]. إن هذه الزيارات المتكررة، وهذا التعاون المشترك

(5) Cambridge Medieval History, 111, P.437.

ساعد المسيحيين على تبني الحضارة الراقية لمضيفيهم، وضيوفهم، وزملائهم في العمل، وأصدقائهم، ومن أجل مقاومة وصد النفوذ الفرنسي، استمر الشعب والملوك المسيحيون على قبول هذا الموقف. وفي الوقت نفسه، فإن قطلونية، بسبب خضوعها للسيطرة الفرنسية لسنوات عديدة، سارت على نهج مخالف لنهج بقية مناطق إسبانيا، وقد أراد الإسبان إنقاذ بقية أجزاء البلاد من السير في هذا الاتجاه، والمحافظة على كيانها، وهكذا فقد اضطروا نتيجة للظروف، أن يوجهوا أنظارهم إلى مسلمي الجنوب طلباً للتنمية في جميع مجالات حياتهم، وقد عاد العبيد المسيحيون إلى بيوتهم في الشمال وهم يحتفظون بأسمائهم العربية، وبحضارتهم، وشاعت المصاهرات ليس بين الطبقات الواطئة فحسب بل ضمن الطبقات العالية في كلا المجتمعين المسلم والمسيحي أيضاً.

وبحلول القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري وما بعده أصبحت إسبانيا الإسلامية مطمح أنظار كل ذي ميل للتعلم. ونتيجة لهذا فقد غدت اللغة العربية شائعة ومفهومة في ليون وقشتالة ونافار، وبقية أجزاء إسبانيا المسيحية. وقد أخذت اللغات الرومانسية، التي كانت تقرأ وتفهم من قبل المسلمين في البلاطات والقصور، عدداً كبيراً من المصطلحات والكلمات العربية التي تشير إلى أثر الأساليب والعادات العربية في الحياة المسيحية في كل أنحاء البلاد الإسبانية. وقد ترجم رجال المدارس العربية ـ اللاتينية التي رعاها الحكام الإسبان في طليطلة وإشبيلية وبقية المدن الأخرى عدداً من الكتب العربية في مختلف مناحي الحياة. فساعد ذلك بشكل كبير على انتقال المعرفة المشرقية إلى الغرب لا سيما في شمال إسبانيا.

ويلاحظ لويس برتراند «Louis Bertrand» أن مسيحيي الغرب مدينون لهؤلاء المترجمين فمن خلال ترجماتهم وتعليقاتهم، تعرف علماؤنا على أرسطو Aristotle، والأطباء والرياضيين والجغرافيين الإغريق ـ اللاتين في

العصور القديمة»[6].

ولقد استثمرت جهود المعماريين والبنائين المدجنين في بناء الكنائس والقصور، كما قام ملوك المسيحيين والقسس في الشمال بارتداء الملابس المنسوجة في مصانع إسبانيا الإسلامية أيضاً.

ومنذ فترة مبكرة تعود إلى بداية القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، ابتدأ الكونت Sancho كونت قشتالة (الذي توفي عام 1017م/ 408هـ) بالعيش على الطريقة الإسلامية. واستناداً إلى ما يقوله ابن حيان، فقد اندهش أحد سكان قرطبة المسلمين الذي كان مستقراً في تطيلة Tudela عندما وجد هذا الكونت جالساً في بلاطه المزخرف مرتدياً الملابس الإسلامية لكنه كان في الوقت نفسه قد وضع تاجاً على رأسه[7]. كما كان السيد القمبيطور Rodrigo Diaz de Bivar الذي قهر بلنسية Valencia وحارب بقية الحكام المسلمين في الإمارات الأخرى، مستعرباً تقريباً في سلوكه وعاداته[8]. وكان التأثير المشرقي ملحوظاً أيضاً لدى معاصري السيد، وكذلك إيزابيلا وفرديناند، وأتباع فيليب الثاني، حتى ارتديت الملابس العربية من قبل سانت فرناندو «St. Fernando» والأسقف رودريكو خمينيث Rodrigo Jimenez of Roda. وأوصى الأخير أن يكفن عند وفاته بقماش من صنع المسلمين[9]. وعلى الرغم من أن الحكام المسيحيين لم يجرؤوا على اتخاذ الحريم بصورة علنية كالمسلمين، فقد كانوا يحتفظون بجوار يتحرزون عليهن بشكل دقيق، ولقد كان لألفونسو السادس ملك

(6) The Structure of Spanish History, P.270.

(7) The History of Spain, P.78.

(8) R. Dozy, Recherches, I, P.204; Levi - Provencal, La Civilizacion Arabe España, P.112 and n16.

(9) Hole, Andalus, P.31.

ليون، الذي التجأ مرة إلى بلاط المأمون في طليطلة، خمس زوجات إحداهن مسلمة، هي زبيدة ابنة [أو زايدة كنة] المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية[10].

ولم يكن هناك تشديد في فرض الحجاب على النساء المسلمات في ظل الخلفاء في إسبانيا، وعلى الأقل بالنسبة للطبقات العليا من الناس. وقد لاحظ Hole أنه من خلال الروايات المختلفة أن النساء في قرطبة قبل أكثر من ألف سنة كن يخرجن من غير خمار ويشاركن الرجال في بعض الأعمال الاجتماعية أيضاً، في حين أبقى المسيحيون الإسبان نساءهم معزولات ومحجبات، ولم يكن من المستحب للنساء المسيحيات أن يخرجن دون أن يغطين وجوههن حتى بعد أن منع المسيحيون السادة النساء الموريسكيات من اتخاذ الحجاب في القرن السادس عشر الميلادي، بل لقد كان السماح للنساء بالظهور في الأماكن العامة دون حجاب إثماً في نظر المسيحيين، لأن الرجال لا يتورعون عن النظر إلى وجوههن الجميلة[11].

ولقد وصفت مناظر النساء المحجبات وهن يتجولن في المدن في العشرات من مسرحيات القرن السابع عشر الميلادي، واستعمل النساء الإسبانيات نوعاً من الأقبية يسمى Manto tapado لا سيما في إشبيلية، لتغطية الرأس والوجه[12]. ونلحظ اليوم استعمال الرداء نفسه في مدن بيرو، إحدى دول أمريكا الجنوبية، وما تزال النساء في الأرجنتين يستعملن

(10) cf. Bertrand, Louis, The History of Spain, P.59.

(11) Andalus, P.123; Luis del Marmol, Rebelian y Castigo de los moriscos in Biblioteca de Autores Espanoles, XXI, P.165.

(12) Tirso de Molina in El burlador de Sevilla, II, P.101, quoted by: L. Pfandl in Introduction al Siglo de Oro, P.273 cf. Castro, P.110.

لباساً يدعى tapado، وهو مأخوذ من الـManto tapado المذكور آنفاً ومعنى كلمة tapar؛ يستر أو يغطي، وكلمة tapado: مغطى أو مستور.

إن القوانين البلدية المحلية ما زالت تنظم الحمامات العامة في زوريتا Zorita في منطقة وادي الحجارة Guadalajara، وكوينكا Cuenca، وهما قريتان قشتاليتان يوجد فيهما حتى الآن جماعات قليلة تمتلك حمامات مياه ساخنة، الأمر الذي يفسر التقليد المحتمل للعادة العربية.

إن القوانين البلدية المحلية لزوريتا وكوينكا تزودنا بالمعلومات الآتية:

على صاحب الحمام أن يزود الزبائن بالمواد التي ربما يحتاجونها كالماء والضروريات الأخرى ويعاقب كل شخص يسرق أي شيء من أحواض الحمام بقطع أذنه(13). ويبدو أن العقوبة المفروضة على السرقة في هذا المجال ترجع أيضاً إلى عادة عربية قديمة، وكان المستحمون يزودون عادة بالماء الحار، والصابون، والزيت، والمناشف لقاء مبالغ معينة من المال، ولكن مساعديهم لم يكونوا ليدفعوا شيئاً. ويحق للمستحم أو المستحمة اصطحاب ثلاثة من الخدم، يقوم أحدهم بالمساعدة على الاغتسال(14). وتنص قوانين بريويكا Brihuega المحلية، وهي قرية أخرى في منطقة وادي الحجارة «على إعفاء الخادم المرافق أو الخادمة المرافقة من دفع أية أجور لصاحب الحمام»(15).

ومن أجل الحفاظ على العزلة بين الجنسين، كانت الحمامات العامة تحجز للنساء أياماً معينة في الأسبوع، وعلى سبيل المثال فقرية Usagra في

(13) Fuero de usagra, edited by: A. Bonilla. P.48, quoted by Castro, P108.

(14) Fuero de Zorita. de los Canes, edited. by: T. de Urena PP.67 - 69 quoted by Castro, P.107; cf. A. Ruiz - Morena Cuadernos de Historia de España, Buenos Aires, 1945, III.

(15) Fuero de Brihuega, edited by: J. Catalina, P.162, quoted by Castro, P.108, n2.

منطقة بطليوس Badajos كان لها حمامها الخاص «الذي تقصده النساء للاستحمام أيام الآحاد والثلاثاء والخميس، والرجال في الأيام الباقية»[16].

ويقول إدوين هول «Edwyn Hole» «إن قانون القرن الثالث عشر لزوريتا Zorita، القرية الواقعة في وادي الحجارة، ينص على ذهاب الرجال إلى الحمامات أيام الثلاثاء والخميس والسبت، والنساء أيام الاثنين والأربعاء، واليهود أيام الجمع والآحاد»[17]. وربما لم يكن هناك مدجنون Mudejars، أي: مسلمون كانوا يعيشون تحت ظل المسيحيين قبل سقوط غرناطة في زوريتا لأن هول لم يشر إلى وجود دور للمسلمين في هذا المجال. وكان شأن المسلمين في إسبانيا المسلمة شأنهم في أي مكان آخر يغتسلون يومياً ولهذا فالحمامات العامة كانت مخصصة للرجال صباحاً وللنساء من بعد الظهر.

وكانت شعيرة غسل الموتى تمارس ثلاث مرات أو خمساً في المجتمع الإسلامي، حيث يبدأ بالأعضاء اليمنى تلك التي يبدؤها المتوضىء بالغسل عادة. وكان اليهود يمارسون شعائر غسل جثث الموتى أيضاً. فقد غسل يوسف أباه يعقوب قبل تحنيطه، ولكن هذه العادة لم تكن منتشرة بين المسيحيين. ومن المحتمل جداً أنها كانت تقليداً للمسلمين دون اليهود، لأنهم كانوا متأثرين بالممارسات الإسلامية، ذلك أن المسيحيين ابتدأوا بتغسيل الموتى في أثناء وجود المسلمين في إسبانيا فقط. فقد غسلت جثة كونت طولوشة Tolosa وكفنت بقماش من السلك الفاخر من قبل عدوه فرنان كونثاليث Fernan Gonzalez[18].

---

(16) Fuero de Usagra, P.48.

(17) Andalus, Spain ander the Muslims, London, 1958, p.60.

(18) The Cronica General, P.399, cf. the Poema de Fernan Ganzalez quoted by: Castro, P.109.

وتذكرنا الأريكة والكراسي المجنبة في غرفة الجلوس، والتي ما تزال تدعى بالإسبانية بـ estrada (= tarima منصة واطئة) بالعادة الإسلامية في جلوس النساء على الأرض أو على منصة واطئة ويزودنا الـ El Libro del Caballero Cifar وهو كتاب يرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي، بالمعلومات الآتية:

«أدركت السيدة أنه الملك، وقامت سائرة نحوه لتقبل يده لكنه امتنع ومضى ليجلس معها على منصتها الواطئة»[19].

وتبعاً للعادات المسيحية فالملك إذا أراد أن يشرِّف جماعة من النبلاء سمح لهم بارتداء قبعاتهم في حضوره، كذلك لو أرادت الملكة أن تكرم نساء نبيلات سمحت لهن بالجلوس على مخدات، في حضورها، وقد عرف هذا التقليد الأخير بـ tomar La almohada أي أخذ المخدة من الملكة، ويعتقد سرفانتس Cervantes أن جلوس النساء على المخدات كان عادة شرقية، فقد كتب يقول: «منصة ذات مخدات مخملية ناعمة أفضل مما عند أي مسلم»[20].

وإلى جانب الأريكة كان هناك بعض قطع الأثاث الأخرى، مثل السجاد، والمخدات، والبسط وعلائق الألبسة، التي تعود إلى أصل عربي، وهي أمثلة على التقاليد العربية في تأثيث غرفة الجلوس في إسبانيا، وما تزال تستعمل، مع بعض التعديلات من قبل الشعوب المتمدنة في كل أنحاء العالم. وفي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي زار بارون Zech taveller Rozmithal بورجوس Burgos في قشتالة، وهو مكان لم يعد فيه أي مسلم منذ القرن العاشر الميلادي، وسجل في مذكراته طرق

(19) Edited by Ch. Ph. Wagner, P.100, quoted by: Castro, P.110.

(20) Quijote, 11, 5, quoted by: Castro, P.110.

حياة الموريسكيين التي تسربت إلى الحياة العامة، وقد استمتع هناك وتسلى بالرقص والشراب، وفي إحدى الحفلات شاهد بعض النساء الجميلات المرتديات للزي الإسلامي يأكلن ويشربن ويرقصن على الطريقة الموريسكية[21].

وكان ميخائيل لوكاس Miguel Lucas، أحد رجال حاشية هنري الرابع يركب الخيل على طريقة تسمى «خنيتا»، Jineta وهذا الاسم تحريف لاسم قبيلة زناتة البربرية، وهو يرتدي رداءً موريسكيّاً متعدد الألوان من السلك، يدعى (الخوبا aljoba) وهو ثوب طويل له أكمام قصيرة وضيقة[22].

وقد عرف الفرسان المسلمون (الـ jinetes) بطريقة ركوبهم، وكان الملوك المسلمون يحصلون على هؤلاء الفرسان من قبيلة زناتة البربرية، وطريقة خنيتا أو زناتة تتميز بالركوب اعتماداً على الركاب القصير مع رفع الأرجل[23].

إن الصيغة العامة للمسلمين المتمثلة باللفظ العربي (السلام عليك) قد حورت من قبل المستعربين الإسبان، الذين اعتادوا إلقاء التحية بالقول Dios guarde (أي: يحفظك الله) ويحيي الفلاحون الأندلسيون في منطقة أندلوسيا الحالية بالقول: «Dios guarde a usteds Caballeros» أي عسى أن يحفظكم الله أيها الرجال، أما الريفيون في منطقة غرناطة فكانوا يقولون في القرن السادس عشر الميلادي: Dios mantenga أي (يحفظك الله أو يصونك)[24].

إن كل هذه الأشكال من التحيات يبدو متأثراً بالصيغة الإسلامية

---

(21) Libres de antano, VIII, P.162, quoted by: Castro, P.119.

(22) Memorial historico espano, VIII, P.262, quoted by Castro, P.119.

(23) cf. A. Steiger, Fonetica del hispano - arabe, P.140.

(24) Revista, de la Biblioteca, Archivo Y Museo, Madrid, 1955, II, 138f.

لإلقاء السلام، ولقد تعود العرب أن يقولوا للسائل بالعربية الدارجة (الله يعطيك) عندما يعتذر أحدهم عن إعطاء الصدقة، واحتفظ الإسبان بهذه الصيغة محوَّرة بقولهم: «سامحني من أجل الله»، أو يحفظك الله.

ومن عادة المسلمين أيضاً التقاط فتات الخبز من على الأرض والقول: (عيش الله)، ويعمل الإسبان الشيء نفسه ويقولون: espam de Dios (إنه خبز الله). ويبدو أن أحد الطرفين قد تأثر بالآخر، والغالب على الظن أن المسيحيين استعاروا ذلك من العرب، لأن الفكرة مشرقية، وأن تقبيل الخبز الساقط على الأرض ما يزال يلاحظ عند المسلمين في الشرق.

إن تقبيل اليد دليل على الاحترام لمن هو أكبر سناً، والطاعة للرؤساء عادة عربية ومشرقية، وقد ذكر الشقندي أن ابن دراج المتوفى سنة 1035م/ 427هـ كان قد قرر لنفسه أن يقوم برحلة طويلة من أجل أن يقبِّل يد العامري[25]. وقد مارس هذه العادة أيضاً اليهود الإسبان علامة للاحترام، وليس لهذه العادة علاقة بنظام الإقطاع في أوروبا بل بالحياة المشرقية[26].

وحتى هذا اليوم فالابن في مصر يقبل يد الأب[27] وقد أراد السيد مرة في سنة 1140م/ 535هـ أن يقبل أقدام الفونسو السادس، ولكن الأخير سمح له بتقبيل يديه دون رجليه[28]. وفي سنة 1566 كتب الدون لويس دي ريكويسنس Don luis de Requesens رسالة إلى فيليب الثاني يقول:

(25) Gomez. E. Garcia, Elogio del Andalus, P.61.

(26) Rabbi Arragel, Biblia de Arragel, 1, 133, quoted by Castro, P.115.

(27) Manners and custom of the Modern Egyptions. London 1836, I,P.252.

(28) Poema del Cid, quoted by Castro, P.114.

«صنيعة جلالتكم، التابع والخادم الذي يقبل أيادي جلالتكم الملكية وأرجلها»[29]. وقد دخلت هذه العادة في صيغة الرسائل في إسبانيا، بأن ينص على: «تقبيل اليد، وتقبيل الأرجل».

وفي القرن التاسع عشر كانت السيدة تقول للرجل عند الاستئذان منه: «أنا أقبل يدك، فيجيب الرجل وأنا أقبل رجليك يا سيدة».

وكانت أيدي الأب تقبل أكثر من أي تذكار مقدّس[30].

إن المصطلح العربي المأثور الذي يقال للضيف: «البيت بيتك» قد احتُفظ به من قبل الإسبان الذين يقولون: «Esta es su casa». ويضيف الإسبان عند توديعهم للضيف: «ya sabe que ha tomado posesion de su casa». بمعنى: أنت تعلم أن بإمكانك أخذ محتويات الدار كلها.

أما تسليم مفتاح المدينة لزائر مشهور، فما هو إلا امتداد لهذه العادة ذاتها في تشريف الضيف.

وما زال سكان منطقة أندلوسيا في إسبانيا يقدمون بطريقة شرقية الطعام والشراب لأي عابر سبيل أو قريب مجاور، يمر في أثناء تناولهم للطعام فيقولون: «Usted gusta» أي هل لك في تناول شيء؟ أو «Venga usted a comar» أي «تفضل وتناول الطعام». فيرد عابر السبيل شاكراً: «Que aproveche»: عسى أن ينفعك هذا، أو De Salud sirva: عسى أن يديم هذا عليك صحتك.

وينادي الإسبان في منطقة أندلوسيا بـ Ole لأجل تشجيع مصارعي الثيران واللاعبين، والراقصين، وقد تطورت هذه الكلمة عن (الله) لفظة

---

(29) Castro, P.114.

(30) Ibid., P. 114.

الجلالة بالعربية، واشتقت الكلمة الإسبانية «ojala» من المصطلح العربي الذي يدل على التقوى والتدين «إن شاء الله»[31].

ويذكر الإسبان في حالات عديدة اللفظ الآتي: «Si Dios quiere» «أي إذا شاء الله».

وفي فترة من الزمن تعلم العديد من الموريسكيين الكثير من مفردات اللغة القشتالية، حتى إن فقيه إشبيلية (Alfaquis) أصدر خلاصة للأوامر والوصايا الرئيسة في القانون الإسلامي في قشتالة[32].

وبدأ الإسبان بنظم الشعر الغنائي بالقشتالية (الإسبانية)، ولكن بأفكار موريسكية تتحدث بحرية عن الجنس بشكل طبيعي، كما يتحدث العرب عن الحب العذري بالطريقة العربية.

(31) كتبها المؤلف «وشاء الله» (Might God will that).

(32) cf. Memorial historico espanol. 1853, V.

الموريسكيون(1)

قبل سقوط السلالات الإسلامية الحاكمة في الجنوب، كان مسلمو قشتالة Castile وليون Leon، وأراغون Aragon، الذين عاشوا في ظل الحكام المسيحيين، يُدعون بـ Mudejares، أي المدجنين. ومنذ القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري فما بعد عُرف هؤلاء المدجنين بـ Moriscos، أي الموريسكيين، وهو الاصطلاح الذي استخدم لأول مرة لتسمية مُسلمي غرناطة بعد سقوطها في عام 1492م/ 897هـ. وكان الموريسكيون يتحدثون العربية والرومانسية، وقد كتبوا اللغة الأخيرة بالحروف العربية، التي أصبحت تعرف بـ «aljamiado» المشتقة من كلمة «الأعجمية» العربية، التي تعني اللغة الأجنبية. وكان على المدجنين أن يدفعوا ضريبة تسمّى «Cenas reales» وذلك عن محلّاتهم السكنية في

(1) Moriscos By: S.M. Imamuddin, Islamic Culture. 1959, Vol. 33, PP.88 - 94.

القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد/ الثامن والتاسع للهجرة[2].

كما مُنِعوا في عام 1312م/ 712هـ من قبل خايمي الثاني Jaime II أن يقوموا بأداء صلواتهم في المحلات العامة[3]. ويقول جارلس لي Charles lea بأن المسلمين أُجبروا فيما بعد أن يعيشوا مثل المسيحيين، وأن يدفنوا كالمسلمين[4].

الموريسكيون في غرناطة:

بعد استسلام غرناطة في كانون الثاني 1492م/ ربيع الأول 897هـ، استمرت العلاقات السلمية لما يقارب سبع سنوات بين الملكين الكاثوليكيين فردناند وإيزابيلا، وبين رعاياهما من المسلمين. ولكن ملك قشتالة، فردناند، تخلى عن وعده، وحاول أن يحوّل رعاياه المسلمين إلى المسيحية خلافاً لما جاء في شروط استسلام المدينة وقد عين فرنسسكو خمينيث Francisco jimenez de Cisneros مسؤولاً مباشراً عن الجماعات التبشيرية التي تعمل على تنصير مسلمي غرناطة في عام 1498م/ 904هـ. وقد حاول هرناندو دي تلافيرا Hernando de Talavera أن يحوّل المسلمين إلى المسيحية بالإقناع، بينما استخدم فرنسسكو خمينيث القوة والإكراه، في الحالات التي فشلت فيها الرشوة[5]. لقد كان من الحكمة معاملة

---

(2) Capmany: Memorias Historicas sobre la Marina comercio de Barcelona, III, PP.124 - 5.

(3) M. Danvila Y Collado: La expulsion de los Moriscos espanoles, Madrid, 1889, PP.30.

(4) A History of the Ingulsition of Spain, III, P.377.

(5) Cf. Boronat Barrachina, Los Moriscios Espanoles Y su expulsion, I, P.168; cf, Juan Regle, La Expulsion de los Moriscos y sus consecuenias in Hispana, XIII, Madrid 1953, PP. 224.

المسلمين على قدم المساواة مع بقية الرعايا، بدلاً من التنصير القسري وذلك بترك مسألة اندماجهم وانصهارهم مع المسيحيين لتأخذ مجراها مع مرور الزمن. ولم يتمتع الموريسكيون بأية مكاسب حضارية أو اجتماعية في حالة قبولهم للمسيحية، وحتى بعد التنصير لم يكن لهم أية منزلة في المجتمع المسيحي، بل كانوا مكروهين ومحتقرين، ويسمون «الكلاب الإسلامية Perros moros»(6).

وقد ذهب خمينيث إلى مدى أبعد، حينما أحرق في عام 1499م/905هـ بعض الكتب العربية في ساحة باب الرملة Plaza de Bibarrambla في غرناطة. كما نقل أيضاً بعض الأعمال العلمية العربية إلى كلية San idefonse of Alcala(7).

ولقد أثار التنصير القسري عداء الموريسكيين في حي البيازين Albaicin (غرناطة القديمة)، وقادهم إلى الثورة. وبعد سنتين، صدر قانون، كان عليهم بموجبه، إما أن يقبلوا بالتنصير أو أن يدفعوا خمسين ألفاً من الدوكات الذهبية «ducaes»(8).

وعلى الرغم من أن القانون كان يتعارض مع شروط الاستسلام، لكنه أقرّ بحجة أن الموريسكيين ليسوا موالين للسلطة. ولقد تعذر على الموريسكيين أن يدفعوا المبلغ المطلوب، فجبي منهم بالقوة، وعُمِّدوا بماء التعميد المقدس للنصرانية، وإن رفضوا بعد هذا التنصير القسري، التقيّد بتعليمات الكنيسة فإنهم يتهمون بالهرطقة، ومن ثَم يحكم عليهم بالموت.

(6) cf. Marmol, Rebelion de los Moriscos, I, Folls 28a - 30b.

(7) Palencia, Historia, P.118.

(8) Manual Danvila, PP.71 - 72.

ومنذ سنة 1501م/907هـ فما بعد، اعْتُبر مُسلمو غرناطة وقشتالة مسيحيين من الناحية النظرية، وقد أصبح بعضهم مسلمين سريين يعتنقون المسيحية، لكنهم يمارسون سراً شعائر الإسلام. ولكن الكثيرين تمسكوا بعقيدتهم، والتجأوا إلى جبال البشارات «Alpujarras». وقد ألقي القبض على الرجال، والنساء والأطفال، وعوقبوا بالموت. ويقول أمير علي: «لم يكتف القشتاليون بذبح الرجال، بل إنهم فجروا بالبارود جامعاً كان قد التجأ إليه النساء والأطفال من مناطق بعيدة»[9]. أما الذين نجوا من الموت فقد خُيّروا بأن يدفعوا مبلغ عشرة دوبلات (عملة ذهبية إسبانية) لكل شخص أو بالتنصير. ولم يتمكن العديد من دفع الغرامة، واعتنقوا المسيحية «تقية»[10] لأنهم لم يتخلوا عن إسلامهم في السر. وقد شك دانفيلا Danvila وهو محق في شكه، في صحة اعتقاد هؤلاء المتنصرين في العقيدة المسيحية[11].

الموريسكيون في بلنسية وأراغون:

لقد سُمح للموريسكيين في بلنسية وأراغون أن يمارسوا شعائر دينهم من الناحية النظرية والقانونية[12]. وحينما كان شارل الأول Charls I أميراً زار بلنسية وأراغون، واحترم المعتقدات الدينية للمسلمين.. وفي عدة مناسبات، كما في عام 1510م/916هـ و1518م/924هـ أعطيت المواثيق والعهود بعدم الإكراه على التنصير. ولكن من الناحية العملية، فإن هذه العهود لم تنل إلا القليل من الاحترام. وحينما قامت ثورتان خطيرتان للمسيحيين في Germania في بلنسية، وفي Comuneros في قشتالة، كان

(9) History of the Saraces, PP.560 - 61.

(10) Palencia, Historia, P.118.

(11) Danvila, PP.72 - 73; Ameer Ali, History of the Saracense P.561.

(12) Danvila, P.76.

الإمبراطور خارج إسبانيا. وكان هؤلاء المسيحيون الفقراء قد ثاروا ضد نبلائهم الإقطاعيين، نظراً للصعوبات الاقتصادية التي ظهرت نتيجة الارتفاع في أسعار البضائع، بسبب تدفق الذهب من أمريكا. وقد انقلب هؤلاء المتمردون ضد الفلاحين المسلمين، لأن هؤلاء لم يشاركوا في تمردهم، وتمسكوا بولائهم لمالكي الأرض المسيحيين. وقد قام المتمردون بإكراه بعض المسلمين على التنصر، كما قتلوا الكثير منهم. وقد أيَّد أصحاب الأراضي المسيحيين، لأسباب معينة، أتباعهم المسلمين، الذين ظلوا موالين لهم، على أمل أن يُسمح لهم بالبقاء على عقيدتهم ودينهم، كما وعدهم ملاّك الأرض بأن تنصيرهم القسري لن يكون نافذ المفعول[13]. وكان المسلمون قد اشتهروا في البلاد بعملهم وخبرتهم في الزراعة، حتى ضُرب بهم المثل، حيث قيل: «من كان عنده مسلمٌ كان عنده الذهب» «Quien tiene moro tiene oro». ولقد أُجْبر المتمردون على التسليم بصعوبة كبيرة. ونشب فيما بعد قتال بين الفلاحين الموريسكيين، الذين كانوا من أفقر الناس في إسبانيا، وبين الرعاة المسيحيين في أراغون[14] وقد اختار هؤلاء الذين كانوا بقيادة لوبيثيو لاتراس Lupeacio Latras أن يهاجموا أراضي الكنيسة التي يحرثها الموريسكيون العُزل، وليس تلك التي يمتلكها النبلاء الإقطاعيون، وساعد هؤلاء النبلاء الزراع الموريسكيين بالرجال والسلاح لصد الرعاة المسيحيين. أما الكنيسة فلم تقدم لهم المساعدة لعدم امتلاكها القوة. ولكن حين تعرضت ممتلكاتها للدمار، احتج رجال الدين، وقامت الحكومة، التي كانت إلى ذلك الحين إلى جانب الرعاة بالتدخل في نهاية الأمر، ونفت قائدهم لوبيثيو إلى إنكلترا. وهكذا نجا الزراع الموريسكيون في بلنسية وأراغون من انهيار اقتصادي. ولكن برزت مسألة

(13) Charles Lea, A History of the Inquisition, III, PP.347, 375.

(14) Rispana, XIII, P.258.

تعميدهم القسري بشكل كبير، وأصبحت موضوعاً واسعاً للجدل، واستغل رجال الكنيسة هذه الفرصة لتنصير المسلمين، وأصدرت الحكومة مرسوماً يقضي باعتبار المسلمين الذين عُمِّدوا من قبل الثوار مسيحيين، وأن يعاقبوا إذا لم يتقيدوا بالطقوس الدينية المسيحية.

وقد جرت أيضاً محاولة لتنصير بقية الموريسكيين، ففي نيسان 1525م/ 932هـ تخلى شارل الخامس Charles V عن وعده السابق باحترام عقيدة وديانة المسلمين، وأصدر مرسوماً ضد ملابس، وعادات، ولغة، وديانة الموريسكيين في بلنسية وأراغون[15]. وقد حاول النبلاء الإقطاعيون، الذين كانوا ما يزالون يناصرون الموريسكيين، من أجل مصالحهم الاقتصادية الخاصة، أن يؤثروا على الإمبراطور شارل الخامس لكي يلغي القانون الصادر مؤخراً. وفي أيار 1528م/ 935هـ التمس اثنا عشر فقيهاً من فقهاء الـ Aljamas في مملكة بلنسية من الإمبراطور أن يوقف تنفيذ أمره. ولكنه لم يلغ الأمر، ومع ذلك فقد ظل الموريسكيون لمدة أربعين سنة معفين من التقيد الفعلي بعادات المسيحيين وقوانينهم ولغتهم. وكانوا من الناحية النظرية يُعدون من المسيحيين، لكنهم لم يخضعوا لمحاكم التفتيش، والمعاقبة بتهمة الهرطقة[16]. وقد صدرت في عام 1526م/ 933هـ عدة قوانين بمنع اللغة العربية، والملابس والعادات الإسلامية. ولكن الموريسكيين دفعوا رشوة مقدارها ثمانين ألف دوكة ذهبية إلى شارل الخامس، ولهذا لم تفرض هذه القوانين في عهده. ومن أجل استعمال اللغة العربية، وارتداء الملابس العربية، دفع الموريسكيون للدولة في عام 1563م/ 971هـ ضريبة تدعى الفرضة «Farda» والتي تبلغ نحو عشرين ألف

(15) Danvila, PP.91 - 92; cf, Palencia, Historial, pp. 119 - 120.

(16) Cf. Danvila, pp. 101 - 102; cf Pedro Longas, Vida Religiose de los Moriscos, Madrid, 1915, XXIX.

دوكة[17]. ولم تكن هناك نهاية للاضطهاد فبحجة عدم أكل لحم الخنزير، والامتناع عن شرب الخمر، عذِّب الموريسكيون، وألقي القبض عليهم. ويقول شارلس لي Charles lea: «لقد كان الامتناع عن أكل لحم الخنزير، وشرب الخمر، سبباً كافياً لتبرير الاضطهاد، ونحن نسمع عن أمور مثل تخضيب الأظافر بالحناء، ورفض أكل الحيوانات الميتة، والطيور المخنوقة، والرقص أو الامتناع عنه وعن الغناء في حفلات الزواج والأفراح، وحتى النظافة، كانت تعد من الأدلة على الارتداد عن المسيحية»[18].

الموريسكيون في أواخر القرن السادس عشر الميلادي:

في عام 1566م/ 974هـ دعا فيليب الثاني إلى عقد اجتماع في مدريد للخنتا (الجمعية الوطنية) Junta. وقد قُرر فرض كل القوانين التي صدرت في عام 1525م و1526/ 932هـ و933هـ المتعلقة بديانة وملابس ولغة الموريسكيين. كما جرت أيضاً محاولة لنزع أسلحتهم. وفي كانون الثاني 1568م/ 976هـ، أمرَ الموريسكيون في غرناطة أن يتخلوا خلال ثلاث سنوات عن لغتهم العربية، وملابسهم، وتقاليدهم. كما أُمروا أيضاً أن يبقوا أبواب دورهم مفتوحة في أيام الجمع والأعياد الإسلامية. وقد حُرّم عليهم أن يستحموا داخل منازلهم أو خارجها وأن يقتنوا الخدم[19] ويقول شارلس لي: «إن هذا التحريم للاستحمام حتى من قبل المسيحيين يثير

(17) Lea, A History of the Inquisition, III, 333.
وكانت هذه عادة ضريبة سنوية

(18) A History of Inquisition, III, P.329, n.2.

(19) Cf. Aurelino Fernandez - Guerra, Reflexiones Sobre la Rebelion de los moriscos y censo de Publacion, Granada, 1840, PP.14 - 15nl; Pedro Longas, Vida Religiosa de los Moriscos, pp. XLVI, XLVII; cf. Palencia, Historia, P.120.

الفضول بالنسبة للحضارة التي كانت سائدة في العصر. وقد بطل هذا التحريم منذ أن منح الفونسو الثاني Alfonso II ملك أراغون الـ Fuero de Ternel في عام 1176م/572هـ، والذي نص على أن الحمام العام يجب أن يستخدم من قبل الرجال أيام الثلاثاء والخميس والسبت، ومن قبل النساء في أيام الاثنين والأربعاء، ومن قبل اليهود والمسلمين في أيام الجمع. أما في أيام الآحاد، فتغلق الحمامات، ولا يسخن فيها الماء[20]. ولقد أسهمت عملية تخريب حمامات الموريسكيين في تمردهم[21]. وابتدوا في اعتبار أنفسهم من الجماعات التي تقف ضد السياسة الملكية، لا سيما في غرناطة. وأصبحت المنظمة التي تضمهم تسمى بـ (Cofradio de la resurreccion) وقد استطاعوا، بحجة جمع التبرعات لافتتاح مستشفى، أن يحصلوا على رخصة ملكية للطواف في البلاد. ولكنهم استغلوا هذه المناسبة لشراء الأسلحة والذخيرة، ولتنظيم ثورة عامة للموريسكيين.

وفي الأول من كانون الثاني 1568م/976هـ صدر قرار بتسجيل أسماء أطفال الموريسكيين من عمر 3 ـ 15 سنة لتعليمهم وفق الطريقة المسيحية[22] وفي خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري صدرت قوانين عديدة لتنصير الموريسكيين، ولكن لم تبذل أية محاولة لتربية أبنائهم حسب ما تسير عليه الديانة المسيحية. وفي هذه المرة أيضاً، فقد طلب منهم أن يدرجوا أسماء أبنائهم فقط للتعليم، ولكن لم يعمل إلا القليل للسير بهذا الاتجاه. ولهذا فقد قام الموريسكيون بثورة في كانون الأول 1568م/977هـ في غرناطة، لا سيما في جبال البشرات، تحت قيادة فرناندو دي فالور Fernando de Valor (مولاي عبد

(20) A History of the Inquisition of Spain, III, PP.336 I.

(21) Ibid., III, P.336.

(22) A History of Inquisition of Spain, III, P.336.

الله محمد بن أمية). وقد تقدمت القوات الملكية، بقيادة خوان دي أوستريا Juan de Austria، وهو ابن غير شرعي للملك شارل الخامس، للقضاء على هذه الثورة. وفي حزيران 1569م/ 977هـ تم نفي ثلاثة آلاف وخمسمائة موريسكي من غرناطة إلى إشبيلية. وربما كان الموريسكيون قد نجحوا في هزيمة السلطة المسيحية على الأقل في غرناطة وأحيائها، حيث لم تحدث منازعات بين الأسر الساكنة هناك. وقد قتل زعيمهم فرناندو دي فالور من قبل أتباعه في تشرين الأول 1579م/ 977هـ. ولكن تحت قيادة زعيمهم التالي (ابن أبو؟ Aben Abou) حارب الموريسكيون، وخلقوا المتاعب في المنطقة، وقد لوحقوا من قبل السلطة الملكية من مكان إلى آخر، حتى استسلموا في عام 1571م/ 979هـ. وقد أخرجوا جميعاً دون رحمة من كل ولاية غرناطة إلى جبال قشتالة، وشمالي إسبانيا[23]. ويبدو أن بعضهم قد تسلل مرة أخرى إلى غرناطة، وتدل على ذلك وقائع نفيهم الأخير من إسبانيا عام 1609م/ 1018هـ، فقد كان هناك بعض الموريسكيين الذين كان يجب إخراجهم من غرناطة.

وقد حُرّم على الموريسكيين قانوناً أن يعملوا بمهنة القصابة، أو حتى القيام بذبح دجاجة لرجل مريض، وقد استمر هذا القانون إلى وقت متأخر حتى سنة 1595م/ 1004هـ[24]. وحينما اتخذت إجراءات قاسية إزاءهم في سنة 1581م/ 989هـ. قامت ثورة في بلنسية، ولكنها أخمدت بصعوبة كبيرة. وقد اعتزم فيليب الثاني أن ينفيهم في سنة 1582م/ 990هـ ولكنه لم ينفذ هذه الفكرة.

واستناداً إلى مصادر إسبانية، فقد حاول الموريسكيون أن يثوروا

(23) Ibid., PP. 338 - 401.

(24) Ibid., P.382, n.2.

بمساعدة البربر، والأتراك، تحت حماية هنري الرابع Henry IV ملك فرنسا. وبهذه الحجة اضطهدوا دون رحمة. وفي سنة 1605م/ 1014هـ، ألقي القبض على عدد منهم لاتهامهم بالاشتراك في هذه المؤامرة. ولكن المصادر الفرنسية تصمت عن هذا الموضوع، ولهذا فلا يمكن القول بالتأكيد إن الموريسكيين قاموا بمثل هذه المؤامرة مع الفرنسيين، على الرغم من أنهم تلقوا فعلاً المساعدات من الأتراك والبربر. ولهذا السبب لم يسمح لهم بالسكنى وبالتجول بالقرب من سواحل البحر المتوسط. وإذا ما تواجدوا هناك فإنهم يقتلون على الفور من قبل الحراس المتيقظين. ولقد اعتبروا كالطابور الخامس في البلاد، وكانت إقامتهم كمسلمين مصدر قلق دائم للحكومة. وفي سنة 1605م/ 1014هـ أُحرق دييغو بيت لمباتي Diego Faez limpatiof Almagro باعتباره من المعارضين غير النادمين[25] وفي السنة ذاتها شكلت لجنة (Junta) لتقرر ماذا يجب أن يُفعل بالموريسكيين.

نفي الموريسكيين ونتائجه:

وفي آذار 1607م/ 1016هـ قدمت الخنتا (اللجنة) تقريراً يقول إن الموريسكيين، إما أن يُعمَّدوا، أو أن يُنفوا جميعاً. ولكن لم تتخذ خطوات حاسمة حتى تموز 1609م/ 1018هـ، حينما اقتنع رئيس الوزراء Lerma بنفي الموريسكيين. ولم يكن اتخاذه لهذا القرار المتطرف بسبب عوامل دينية، ولكنه على الأغلب أراد أن يتخذ من موضوع نفي الموريسكيين وسيلة لجمع مقادير كبيرة من المال. وفي الرابع من آذار 1609م/ 1018هـ تمت المصادقة على التشريع الخاص بالنفي النهائي

(25) Charles lea, History of the Inquisition, P.330;

وقد وصلت إلينا تقارير ومعلومات، تفيد بحرق سبعة من اليهود في «auto dafé» وآخر في إشبيلية في سنة 1480م/ 885هـ.

Ameer, Ali, History of the Saracens, P.559.

للموريسكيين، ونفذ في أيلول من السنة ذاتها. وفي حدود سنتي 467 و500؟ تم نفي الموريسكيين، وبضمنهم المسيحيين الجدد من البلاد[26]. ولم يُسمح بالبقاء والعيش في البلاد إلا لأولئك الذين استطاعوا أن يقدموا استشهادات تثبت مواظبتهم على حضور الطقوس الدينية لمدة سنتين متعاقبتين، وأنهم انفصلوا تماماً عن الموريسكيين. وقد أُعفي أولادهم إلى حد سن السابعة من هذا الإجراء. وتم نفي العديد من المسيحيين الجدد الذين لم يستطيعوا أن يحصلوا على مثل تلك الاستشهادات.

«وحاول دوق Gandia، الذي كان يملك مزارع كبيرة للسكر والذي لم يستطع أن يحصل على عمال ماهرين آخرين لتشغيل مصانعه، عبثاً أن يقدم ما يطلبه الموريسكيون. وكان الشرط الوحيد الذي يمكن أن يقبلوا به هو حرية ممارسة طقوس دياناتهم. وقد قدم الدوق التماساً بذلك إلى نائب الملك، ولكن Ribera، أوضح بأن هذا الأمر سيكون تنازلاً لا يمكن منحه حتى من قبل الملك أو البابا، لأنه أعلى من سلطتهما، وذلك لأن هؤلاء كانوا معمَّدين»[27]. ويجادل دانفيلا Danvila وغيره من الكتاب

(26) اعتماداً على المصادر الإسبانية الأصيلة، نقل دانفيلا Danvila هذه المعلومات، وأعطى الأرقام الآتية للمنفيين الموريسكيين:

بلنسية	Valencia	أكثر من 15,000
فيلا ديل ريكوت	Vale del Ricot	2,000
أندلوسيا	Andalucia	80,000
قشتالة منجا	Castile, Mancha	64,000
وإكسترا مادوراو	and Extramadura	
أرغون	Argon	64,000
قطالونية	Cataluna	50,000
كمب دي قلعة رباح	Campe de Calatrava	6,000
مرسية	Murcia	15,000

(27) Charles lea, Inquisition, III, P.396, n.I.

المسيحيين بأن الرأي العام قد استشير في عملية النفي، وأن الشعب قد صوّت لصالح نفي الموريسكيين. وإذا صح أن إسبانيا المسيحية كانت متحضرة، كما يفترض أن تكون، وأن الرأي العام قد استشير في هذا الأمر، فلماذا لم يكن هناك تسامح، ولم تكن هناك حرية للتعبير؟

لقد اضطر الملوك الإسبان المسيحيون إلى اتخاذ مثل هذه الإجراءات القاسية ضد الموريسكيين، ليس فقط بسبب كراهيتهم للمسلمين، ولكن أيضاً بسبب الظروف التي كانت تحيط بهم في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين، أي علاقاتهم العدائية مع فرنسا وألمانيا وهولندا وإنكلترا، ومع الأقطار الإسلامية، لا سيما الدولة العثمانية. وهكذا فقد طرد الملوك المسيحيون الموريسكيين من البلاد نتيجة تأثرهم بعوامل دينية وسياسية أيضاً.

ومن أجل الزراعة، فقد سمح لنحو 6٪ من الأسر الفلاحية الموريسكية بالبقاء(28)، ولكنهم فضلوا مغادرة البلاد أسوة بالآخرين. وقد منحت حيازة أراضي الموريسكيين المنفيين إلى ملاّك الأراضي الذين كانوا يتبعونهم ونتيجة لهذا، فقد كانت هناك ثورة في بلنسية، حيث كان الموريسكيون ما يزالون أقوياء بقيادة زعيمهم Jernimo Millini، ولكنهم أجبروا على مغادرة البلاد، حتى دون استعداد للتزود بالطعام والملابس. واستمر نحو 2,500 منهم بالعيش في جبال بلنسية التي تدعى Valle de Ricote حتى سنة 1613م/1022هـ، حيث ابتدأت المفاوضات. وقد أعطوا المؤن وسمح لهم بالسفر خارج البلاد إلى الجزائر. وخلال سنتي 1610م/1019هـ و1612م/1021هـ تم نفي الموريسكيين من أندلوسيا، وبقية أجزاء

(28) Charles lea, Inquisition, III, P.395; cf. Pascual Bornat Y Barrachina, los Moriscos Espanoles y su expulsion, II Valencia, 1901, P.208, n.31.

إسبانيا. ويقال بأن نحو 900 ـ 1000 طفل موريسكي بقي في إسبانيا سنة 1610م/ 1019هـ[29] أما بالنسبة للموريسكيين الذين عاشوا في إسبانيا، فقد كانوا عرضة للتعذيب والاضطهاد، وحتى إن بعضهم أحرق بتهم الهرطقة.

وبالنسبة للمعاناة التي قاساها الموريسكيون في طريقهم الطويل إلى المنفى، يقول هنري شارلس لي Henry Charles Lea: أن الأغنياء كان عليهم أن يدفعوا عن الفقراء، وأن المندوبين المرافقين لهم كانوا قساة في مطاليبهم، بحيث اضطروهم للدفع عن المياه التي يشربونها من الجداول والغدران، وظلال الأشجار التي يستظلون بظلها في رحلتهم الصيفية الطويلة، يضاف إلى ذلك، أنهم طالبوهم بأجور أكثر عادة من الأجور المطلوبة... كما غمرت فرنسا بالمهاجرين... وكان هناك كتلة من نحو أربعة عشر ألفاً من الناس الذين لم يسمح لهم بالدخول إلى فرنسا، بعد أن وصلوا إلى Canfrance، وهي آخر مدينة إسبانية في الطريق الجبلي عبر البرنية. وكانوا قد دفعوا أربعين ألفاً من الدوكات، ثمناً لطلب رخصة الدخول إلى فرنسا، إلى جانب الضرائب التي كان عليهم أن يدفعوها على البضائع التي بحوزتهم ومصاريف المندوبين الذين كانوا مسؤولين عنهم في الرحلة.

ونتيجة لإكراههم على العودة في الطريق الطويل إلى Alfaques أصابهم المرض، وتوفي العديد منهم بسبب حرارة الصيف، حتى خشي أنهم ربما جلبوا وباء الطاعون إلى السفن. وباختصار فإن قصة الرحيل من أراغون من القصص التي تتسم بانعدام الرحمة، والطمع، والطيش، واللاإنسانية[30]. ويقول Janer، إن نفي موريسكيي أراغون لم يكن أقل

(29) Pascual Bornat, Los Moriscos, II, P.251.

(30) A History of the Inquisition, III, PP.401 - 402.

حزناً وبؤساً من نفي موريسكيي بلنسية[31].

وقد عاد بعض الموريسكيين المنفيين إلى إسبانيا، وذلك بعد رشوة حراس الموانىء والممرات الحدودية، ولكنهم لم يسموا أنفسهم بالموريسكيين، إنما اندمجوا مع الطبقات الواطئة من السكان. وقد توفي العديد من الموريسكيين المنفيين، قبل أو بعد وصولهم إلى أماكن لجوئهم. وقد قدر عدد الذين توفوا بنحو ثلثين إلى ثلاثة أرباع من مجموع عدد المنفيين[32]. ونفي هؤلاء الذين كانوا غير مسلحين، ولا يملكون شيئاً، خلال موانىء وممرات عديدة إلى فرنسا، وجزر البحر المتوسط، وشمال أفريقيا. وذهب غالبية المنفيين الموريسكيين الذين نجوا من الموت، إلى تونس، والرباط، والأقلية إلى تركيا. إن قصة معاناتهم، هي من القصص المؤلمة حقاً، ومن الصعب العثور على نظيرها في أحداث تاريخ العصور الوسطى، أو الحديثة.

واستناداً إلى Richelieu، فإن نفي الموريسكيين: «كان من أشنع الأفعال وأكثرها بربرية في تاريخ البشرية»[33]، ويقول أيضاً: «إن أسباب التدهور كثيرة، ولكن يجب أن لا يعد أقلها شأناً عدم التسامح العنيف الذي أدى إلى نفي أهم الطبقات الاقتصادية من السكان»[34]. ويقول Gonzalez Palencia: «إن النفي أسهم في انحطاط الزراعة والصناعة، وفي تجريد إسبانيا من السكان»[35].

---

(31) Janer, Don Florencio, Condicion Social de los Moriscos de España, P.90.

(32) A History of the Inquisition, III, P.408, n.3.

(33) Memorias de Richelieu, I, P.86 quoted by Charles lea, in A History of the Inquisition, III, P.410, n3.

(34) Charles lea, A History of the Inquisition, III, P.410.

(35) Historia de España Muculmana, P.121; cf. Ameer Ali, History, PP. 563 - 64; cf; lane poole, The Moors in Spain, 1888, 279 - 280.

وفي الحادي عشر من أيار 1610م/1019هـ أرسلت إحدى اللجان في بلنسية The Real Audlencia of Valencia تقريراً إلى الملك بشأن سبعمائة من الموريسكيين، الذين ظلوا في البلاد. ويشير التقرير إلى أن هؤلاء كانوا خبراء في ري الحقول، ويعرفون فن تصنيع السكر، وإنتاج الرز، والحرير، وبعض المحاصيل الأخرى التي لا يعرفها المسيحيون القدماء. ولقد استفاد المسيحيون من خبرة هؤلاء في الزراعة، وسمح للموريسكيين بالبقاء كخدم حتى يعملوا مع المسيحيين في الحقول، التي كانت قد هجرت بسبب نفي الموريسكيين(36). ويذكر Francisco أن نظام الإرواء والحراثة للموريسكيين بقي في مرسيه(37). وفي بلنسية ما زال نظام الري العربي يتبع حتى الآن. واستناداً إلى Janer، فإن الموريسكيين كانوا خبراء متميزين في فن الفلاحة، بحيث إنهم على الرغم من عملهم في أراض أقل خصوبة، فإنهم كانوا غالباً أغنى من المسيحيين الذين يزرعون أراض تزيد في خصوبتها على أراضيهم، وذلك في عهد الملك فيليب الثاني(38)، وبإعجاب بالمجتمع الموريسكي يذكر شارلس لي بأن «التسول لم يكن موجوداً بينهم، والمنازعات نادرة، وكانت الخلافات غالباً ما تحل بأساليب سلمية، ودون اللجوء إلى قضاتهم»(39).

(36) Hispana, XIII, PP.235 - 567.

(37) Francisco Fernandez y Gonzalez, Estado, Social de les Mudejares Castilla, Madrid, 1866, P.138.

(38) Condicion Social de los Moriscos, P.67.

(39) A History of the Inquisition, I.P.65.

جريدة المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات والرسائل غير المنشورة.

* حسين، حازم غانم.

1 ـ **الحياة العلمية والثقافية في الأندلس، في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي**، رسالة ماجستير، جامعة الموصل 1983.

* الخشني، محمد بن حارث (ت 360هـ/ 971م).

2 ـ **طبقات المحدّثين**، مخطوط مكتبة القصر الملكي في الرباط (رقم 6916).

* صادق، جعفر حسن.

3 ـ **الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق في عصر الإمارة**. رسالة ماجستير، جامعة الموصل 1985.

* صالح، خليل إبراهيم (السامرائي).

4 ـ **علاقات المرابطين بالممالك النصرانية وبالدول الإسلامية**. رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، 1979.

* عبد الرحمن، هاشم سليم.

5 ـ **علاقات المرابطين والموحدين بالممالك النصرانية وبالدول الإسلامية في الأندلس**. رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، 1979.

* الغساني، محمد بن عبد الوهاب (القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي).

6 ـ **رحلة الوزير في افتكاك الأسير**. مخطوط المكتبة الوطنية في مدريد (رقم 5302).

* مجهول المؤلف.

7 ـ **ذكر بلاد الأندلس**. مخطوط الخزانة العامة في الرباط (رقم 85ج).

* الهذيل، علي بن عبد الرحمن (القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي).

8 ـ **كتاب تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس**. مخطوط المكتبة الوطنية في مدريد (رقم 5095).

ثانياً: المصادر الأولية المحققة والمنشورة:

* ابن الأبّار، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي (ت 658هـ/ 1260م).

9 ـ **التكملة لكتاب الصلة**، جزءان. نشر عزت العطار، القاهرة، 1955 ـ 1956، وقطعة أخرى نشر: الأركون وكونثاليت بالنثيا.

"Apendice a la Edition Codera de la Tecmila de Aben Al - Abbar" in: Miscelanea de Estudios Y Textos Arabs, Madrid, 1915.

10 ـ **الحلة السيراء**، جزءان، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963.

* ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي (ت 630هـ/ 1233م).

11 ـ **الكامل في التاريخ**، بيروت 1965 ـ 1966.

* الإدريسي، أبو عبد الله محمد (ت560هـ/ 1164م).

12 ـ **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشره: دوزي ودي غويه في ليدن، 1866 بعنوان: "Description de l'Afrique et de l'Espagne".

* الأنصاري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك (ت 703هـ/ 1303م).

13 ـ **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الأول بقسميه تحقيق: محمد بن شريفة، بيروت، بدون تاريخ، السفر الرابع والخامس والسادس، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1964، 1965، 1973.

* الاصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد (ت 346هـ/ 957م).

14 ـ **كتاب المسالك**، نشر: دي غويه: ليدن 1870 ونسخة أخرى بتحقيق محمد جابر عبد العال الحيفي، القاهرة، 1961م.

* ابن أبي أصيبعة، أحمد بن قاسم (ت 668هـ/ 1269م).

15 ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق: نزار رضا، بيروت، 1965.

* ابن بسام، علي بن بسام الشنتريني (ت 542هـ/ 1147م).

16 ـ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، الجزء الأول، القسم الرابع، القاهرة، 1945. وطبعة إحسان عباس، القسم الأول، المجلد الأول بيروت، 1979.

* ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578هـ/ 1183م).

17 ـ **كتاب الصلة**، القاهرة، 1966.

* البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/ 1094م).

18 ـ **جغرافية الأندلس وأوروبا من الكتاب «المسالك والممالك»**، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت 1968.

* البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ/ 892م).

19 ـ **فتوح البلدان**، نشر: دي غوية، ليدن، 1866.

* ابن جلجل، سليمان بن حسان الأندلسي (ت 399هـ/ 1008م).

20 ـ **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق فؤاد السيد، القاهرة، 1955.

* ابن جماعة، بدر الدين بن أبي إسحاق (ت 733هـ/ 1332م).

21 ـ **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، حيدر آباد الدكن، 1934.

* ابن حبيب، عبد الملك (ت 238هـ/ 852م).

22 ـ **استفتاح الأندلس**، تحقيق محمود علي مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، الجزء الخامس، 1957.

* ابن حزم، علي بن أحمد (ت 456هـ/ 1063م).

23 ـ **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1962.

24 ـ **رسالة في فضل الأندلس**، نقلها المقري في نفح الطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج3، ص 156 ـ 186. وطبعة أخرى نشرت ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي. تحقيق: إحسان عباس، بيروت 1981.

* الحميدي، محمد بن أبي نصر (ت 488هـ/ 1095م).

25 ـ **جذوة المقتبس**، القاهرة، 1966.

* الحميري، محمد بن عبد الله (ت حوالي 710هـ/ 1310م).

26 ـ **صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، نشره وترجمه إلى الفرنسية: ليفي بروفنسال، القاهرة ـ ليدن، 1937.

27 ـ **الروض المعطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975.

* ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت 367هـ/ 977م).

28 ـ **صورة الأرض**، بيروت، 1979.

* ابن حيان، حيان بن خلف (ت 469هـ/ 1079م).

29 ـ **المقتبس**، نشر: ملشور أنطونيا، باريس، 1937.

30 ـ **المقتبس**، تحقيق؛ عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، 1965.

31 ـ **المقتبس**، تحقيق: محمود علي مكي، بيروت، 1973.

32 ـ **المقتبس**، نشر: ب شالميتا وآخرون، المعهد الإسباني العربي للثقافة مدريد 1979.

* الخشني محمد بن حارث (ت 360هـ/ 971م).

33 ـ **قضاة قرطبة وعلماء أفريقية،** نشر: عزت العطار، القاهرة، 1952.

* ابن الخطيب: لسان الدين محمد (ت 776هـ/ 1374م).

34 ـ **الإحاطة في أخبار غرناطة،** ج1، ج2. تحقيق: محمد عبد الله عنان. القاهرة، 1973، 1974.

35 ـ **أعمال الاعلام،** القسم الثاني، الأندلس، نشر: ليفي بروفنسال، بيروت، 1956.

* ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/ 1405م).

36 ـ **مقدمة ابن خلدون،** طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

37 ـ **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر،** بيروت، 1956 ـ 1961.

38 ـ **كتاب التعريف بابن خلدون،** منشور مع كتاب العبر في الجزء السابع.

* ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ/ 1282م).

39 ـ **كتاب وفيات الأعيان،** تحقيق إحسان عباس، بيروت، بلا تاريخ.

* ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ/ 933م).

40 ـ **الاشتقاق،** تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1958.

* الرازي، أحمد بن محمد بن موسى (ت 344هـ/ 955م).

41 ـ Cronica del Moro Rasis نشر: د. كاتلان، مدريد، 1975.

42 ـ La Cronic del Moro Rasis نشر: باسكال دي جاينجوس.

"Memoria sobre la autenticidad de la cronica denominada del Moro Rasis, "Memorias de la Real Academia de la Historia, VIII, Madrid, 1852, pp. 67 - 100.

43 ـ La Description de l'Espagne d'Ahmad al - Razi Al - Andalus, XVII, 1953, pp. 51 - 108. نشر وتحقيق: ليفي بروفنسال.

44 - Fragmentos ineditos de la cronica llamada del Moro Rasis
نشرها سافيدرا ملحقاً لدراسته عن فتح المسلمين للأندلس:
Estudio sobre la invasion de los arabes en España, Madrid, 1892, pp. 145 - 154.

* الرقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم (ت بعد 417هـ/ 1026م).

45 - **تاريخ أفريقية والمغرب**، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968.

* الزبيدي، محمد الحسن (ت 379هـ/ 989م).

46 - **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1973.

* ابن الزبير، أبو جعفر أحمد (ت 708هـ/ 1308م).

47 - **صلة الصلة**، نشر: ليفي بروفنسال، الرباط، 1938.

* ابن سعيد، ابن سعيد المغربي وآخرون (ت 685هـ/ 1286م).

48 - **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة، 1964.

* ابن شباط، محمد بن علي بن محمد التوزري (ت 681هـ/ 1282م).

49 - **صلة السمط وسمة المرط (نص ابن الشباط)** تحقيق: أحمد مختار العبادي، مدريد، 1971. وكذلك النص نفسه المنشور في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الرابع عشر، 1967 - 1968.

* ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد (ت. في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي).

50 - **المنّ بالإمامة**، تحقيق: عبد الهادي التازي، بيروت، 1964.

* الضبي أحمد بن يحيى (ت 599هـ/ 1202م).

51 - **بغية الملتمس**، نشر: فرانسسكو كوديرا، مدريد، 1884.

* ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن محمد (ت 257هـ/ 871م).

52 - **فتوح مصر وأخبارها**. نشر: شارلس توري، نيوهيفن، 1922.

* عبيد الله بن صالح، عبيد الله صالح بن عبد الحليم (القرن الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر الميلادي).

53 ـ **نص جديد عن فتح العرب للمغرب**، تحقيق: ليفي بروفنسال، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الثاني 1954.

* ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد (كان حياً في 712هـ/ 1312م).

54 ـ **البيان المغرب**، ج1 و2 نشر: كولان وليفي بروفنسال. ليدن، 1948، ج3، نشر: ليفي بروفنسال، باريس 1930.

* العذري، أحمد بن عمر (ت 478هـ/ 1085م).

55 ـ **نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار**، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، مدريد 1965.

* ابن غالب، محمد بن أيوب (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

56 ـ **كتاب فرحة الأنفس**، تحقيق: لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، العدد الأول، القسم الثاني، القاهرة 1955 ـ 1956.

* ابن الفرضي، عبد الله بن محمد (ت 403هـ/ 1013م).

57 ـ **تاريخ علماء الأندلس**، القاهرة، 1966.

* ابن قتيبة (المنسوب) أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/ 889م).

58 ـ **الإمامة والسياسة** (الجزء الخاص بالأندلس)، منشور مع كتاب ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، مطبعة مدريد 1926 ص 120 ـ 188.

* قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت 337هـ/ 948م).

59 ـ **نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة**، منشور مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، بعناية: دي غويه ليدن، 1889.

* القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت 646هـ/ 1248م).

60 ـ **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،

القاهرة، 1950 ـ 1955.

61 ـ **تاريخ الحكماء**، تحقيق: جوليوس ليبرت، ليبزك 1903.

* ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت 367هـ/ 977م).

62 ـ **تاريخ افتتاح الأندلس**، نشره وترجمه إلى الإسبانية: خوليان رايبيرا بعنوان: Historia de la conquistas de España, Madrid, 1962.

* ابن الكردبوس، عبد الملك (ت 573هـ/ 1177م).

63 ـ **الاكتفاء في أخبار الخلفاء** (القسم الخاص بتاريخ الأندلس)، تحقيق: أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد العدد الثالث عشر، مدريد، 1965 ـ 1966.

* الكندي، محمد بن يوسف (ت 350هـ/ 1961م).

64 ـ **الولاة والقضاة**، بيروت، 1908.

* مجهول المؤلف.

65 ـ **أخبار مجموعة**، نشر: لافونتيني القنطرة، مدريد، 1867.

* مجهول المؤلف.

66 ـ **الرسالة الشريفية**، نشرت بدون اسم المؤلف ملحقاً لكتاب ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 191 ـ 214. وهي على ما يعتقد جزء من كتاب رحلة الوزير في افتكاك الأسير للغسّاني.

* مجهول المؤلف.

67 ـ **فتح الأندلس**، نشر دون خواكين دي كونثاليث، الجزائر، 1889.

* مجهول المؤلف.

68 ـ **مفاخر البربر**، نشر: ليفي بروفنسال، الرباط، 1937.

* مجهول المؤلف،

69 ـ **نبذة العصر في أخبار بني نصر**، نشر: ألفريد البستاني، المغرب، 1940.

* المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت 647هـ/ 1249م).
70 ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق: محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963.
* المقري، أحمد بن محمد (ت 1041/ 1631م).
71 ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**. تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1968.
72 ـ **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، 1939 ـ 1942.
* ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري (ت 711هـ/ 1311م).
73 ـ **لسان العرب**، نشر دار لسان العرب، بيروت، 1970.
* النباهي، أبو الحسن بن عبد الله (كان حياً في 793هـ/ 1390م).
74 ـ **تاريخ قضاة الأندلس**، نشر: ليفي بروفنسال، بيروت، بدون تاريخ.
* ياقوت، أبو عبد الله شهاب الدين الحموي (ت 626هـ/ 1226م).
75 ـ **معجم الأدباء**، بيروت، دار المستشرق، بدون تاريخ.
76 ـ **معجم البلدان**، بيروت، 1957 والطبعة الأوروبية بعناية ادورد وستنفلد، لايبزك 1866.

ثالثاً: الدراسات والبحوث العربية الحديثة والمترجمة.

* أحمد نفيس.
77 ـ **جهود المسلمين في الجغرافية**، ترجمة: فتحي عثمان، القاهرة، سلسلة الألف كتاب.
* أرسلان، الأمير شكيب.
78 ـ **تاريخ العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا، وجزائر البحر المتوسط**، منشورات: دار مكتبة الحياة، بيروت 1966.
* بالنثيا، أنخل جنثاليث.

79 ـ **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، 1955.

* بدر، أحمد.

80 ـ **دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها**، دمشق، 1972.

* بروفنسال، ليفي.

81 ـ **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة: السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صالح الدين حلمي، القاهرة، 1956.

82 ـ **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة: ذوقان قرقوط، مكتبة دار الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

* بروكلمان، كارل.

83 ـ **تاريخ الأدب العربي**، ج3، ترجمة: عبد الحليم النجّار، القاهرة، 1969، ج4، ترجمة السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، دار المعارف بمصر 1975.

* بيضون، إبراهيم.

84 ـ **الدولة العربية في إسبانيا**، بيروت، 1978.

* التواتي، عبد الكريم.

85 ـ **مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس**، الدار البيضاء 1967.

* حتاملة، محمد عبده.

86 ـ **محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها**، عمان، 1977.

87 ـ **التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين**، عمان، 1980.

* الحجي، عبد الرحمن علي.

88 ـ **التاريخ الأندلسي**، دار القلم، دمشق، 1976.

89 ـ **أندلسيات (المجموعة الأولى والثانية)** بيروت، 1969.

* خصباك، شاكر.

90 ـ **كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي**، بغداد، 1979.

91 ـ **دائرة المعارف الإسلامية** (الترجمة العربية): مواد مختلفة.

* دوزي، رينهارت.

92 ـ **تاريخ مسلمي إسبانيا**، الجزء الأول، ترجمة: حسن حبشي وآخرون، القاهرة، 1963.

* روزنتال، فرانتز

93 ـ **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة: صالح أحمد العلي، بغداد، 1963.

* الزركلي، خير الدين.

94 ـ **الأعلام**، الطبعة الثالثة، بيروت، 1969.

* سالم، السيد عبد العزيز.

95 ـ **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1962.**

* السامرائي، خليل إبراهيم صالح.

96 ـ **الثغر الأعلى الأندلسي**، بغداد، 1976.

* طه، عبد الواحد ذنون.

97 ـ **الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا والأندلس**، دار الرشيد، ميلانو ـ بغداد، 1982.

98 ـ **استقرار القبائل البربرية في الأندلس**، مجلة أوراق، يصدرها المعهد الإسباني ـ العربي للثقافة، العدد الرابع، مدريد، 1981.

99 ـ **جهاز الأمن والشرطة السرية في العصر العباسي**، مجلة الشرطة، العدد 30، بغداد 1975.

* العبادي، أحمد مختار.

100 ـ **سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس**، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد الخامس، العدد 1 ـ 2، مدريد، 1957.

101 ـ **الصقالبة في إسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية**، مدريد، 1953.

102 ـ **صورة لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس**، مجلة البيّنة، الرباط، 1962 ـ 1963.

103 ـ **في تاريخ الأندلس والمغرب**، الإسكندرية، بدون تاريخ.

104 ـ **التاريخ العباسي والأندلسي**، بيروت، 1972.

* عبد البديع، لطفي.

105 ـ **الإسلام في إسبانيا**، القاهرة، 1958.

* عنان، محمد عبد الله.

106 ـ **دولة الإسلام في الأندلس**، ج1، القاهرة، 1969.

107 ـ **دول الطوائف**، القاهرة، 1969.

108 ـ **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، القاهرة، 1964.

109 ـ **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**، القاهرة، 1966.

110 ـ **الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال**، القاهرة، 1961.

* عيسى، محمد عبد الحميد.

111 ـ **تاريخ التعليم في الأندلس**، دار الفكر العربي القاهرة، 1982.

* كحالة، عمر رضا.

112 ـ **معجم المؤلفين**، دمشق، 1960.

* كراتشكوفسكي، أغناطيوس يولبانوفتش.

113 ـ **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، 1963.

* لودر، دورثي.

114 ـ **إسبانيا: شعبها وأرضها**. ترجمة: طارق خودة، القاهرة، 1965.

* مال الله، علي محسن عيسى.

115 ـ **أدب الرحلات عند العرب في المشرق**، بغداد، 1978.

* متز، آدم.

116 ـ**الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**. ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، 1967.

* مكي، محمود علي.

117 ـ**التشيع في الأندلس**، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية المجلد الثاني، العدد 1 ـ 2، مدريد، 1954.

* مؤنس، حسين.

118 ـ**تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، مدريد، 1967.

119 ـ**فجر الأندلس**، القاهرة، 1959.

120 ـ**بلاي وميلاد أشتريس**، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، المجلد الحادي عشر، الجزء الأول، القاهرة، 1949.

* مورينو، مانويل جوميث.

121 ـ**الفن الإسلامي في إسبانيا**، ترجمة: لطفي عبد البديع، والسيد عبد العزيز سالم، القاهرة، 1977.

* المياح، علي.

122 ـ**العوامل السوقية والتعبوية وأثرها على الفتوحات العربية الإسلامية في فرنسا**، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد الخامس، بغداد 1969.

رابعاً: المصادر والمراجع الأجنبية.

* Abadal y Vinyals, Ramon,

123 - **"El paso de septimania del domino godo al france a traves de la invasion sarraceno (720 - 768)"**, Cuadernos de Historia de España, XIX, 1953, pp. 5 - 54

* Ashtor Eliyah

124 - **The Jews of Moslem Spain,** vol. I. translated from the Hebrew by

Jenny Machlowits Klein and Aaron Klein, pheladelphia, 1973.

125 - **The Cambridge Medieval History** Vol. II, planned by J.B. Bury, ed: H.M. Gwatkin and J.P. Whitney, cambridge, 1964.

* M. Casiri,

126 - **Bebliotheca Arabico - hispana Escurialensis,** Vol, II Madrid, 1970.

* Crease, Edward

127 - **Fifteen Decisive Battles of the World,** London, 1862.

128 - **La Cronica Rotense or The Chronicle of Alfonso III,** ed: Manuel Gomez - Moreno, Boletin de la Real Academia de la Historia, 100, Madrid, 1932, pp. 609 - 21.

129 - **Chronicon Moissiacense,** or the chronicle of Moissac,

(ملحق رقم 4 لكتاب أخبار مجموعة، ص 145 ـ 146).

* Dozy, Renhart.

130 - **Spanish Islam,** English translation from Histoire de Musulmans d'Espange by: F.G. Stokes, London, 1913.

131 - **Encyclopedia Britannica,** Vol, XIV, 15th edition, 1974.

132 - **Encyclopedia of Islam,** new edition.

* Garcia Domingues, Jose D.

133 - **"Invasao e conquista de Lusitania por Muca Ben Nocair e seu filho Abdalaziz"** Congreso de Estudios Arabes e Islamicos, Actas, held, Cordoba, 1964, pp. 215 230.

* Gayangos, Pascual.

134 - **The History of the Mohammedan Dynasties in Spain,** New York - London, 1964, reprint of London edition, 1843.

* Gonzalez Palencia, Angel

135 - **Historia de la literatura arabigo espanola,** Barcelona, 1945.

* Imamuddin, S.M.

136 - I) **Moriscos,** Islamic culture, Vol. 33, 1959.

137 - II) **Some Moorish,** Traditions in Spanish life, Journal of the

Asiatic Society, Vol, XII, n°, Pakistan, 1967.

* Isidoro Pacense, or The Chronicle of 754.

138 - (ملحق رقم 2 لكتاب أخبار مجموعة ص 146 - 162)

* Isidoro of Seville,

139 - **History of the Goths,** Vandals and Suevi, translated from the latin by: Guido Donini and Gordon B. Ford Jr, 2nd edition, leiden, 1970.

* Katz Solomon,

140 - **The Jews in the Visigothic and Frankish Kingdoms of spain and Gaul,** New York, 1970.

* King, P.D.

141 - **Law and Society in the Visigothic kingdom,** Cambridge, 1972.

* Levi - Provencal, Evariste.

142 - **"Sur l'installation des Razi en Espagne"** ARABICA, II, 1955.

* Livermore, H.V..

143 - **The Origins of Spain and portugal,** London, 1971. Mackay, A.

144 - **Spain in the Middle Ages,** London, 1972.

* Madoz, Pascual.

145 - **Diccionario geografica - estadistico historico de España y sus posesiones de Ultramar,** Madrid, 1848 - 50.

* Makki, Mahmud Ali,

146 - **"Egipto y los origenes de la historiografia arabe - espanola"** Revista del Instituto de Estudios, Islamicos, V, Madrid, 1957.

* Menendez, Pidal, Ramon,

147 - **Historia de España,** Madrid, 1955.

148 - **Paulus Diaconus,** exlib, vi, or Paul The, Deacon book, 6

(ملحق رقم 6 لكتاب أخبار مجموعة، ص 168).

* Pons Boigues, Francisco,

149 - **Los historiadores y geografos arabigo - espanoles,** Amsterdam,

1972, reprint of Madrid edition, 1898.

* Reinaud, M.

150 - **"Incursions of the Muslims into France, Piedmont and Switzerland"** translated from the French by Haroon Khan sherwani, Islamic culture, IV, V, 1930, 1931.

* Rosenthal, F.

151 - **A History of Muslim Historiography,** Leiden, 1968.

* Saavedra, Eduardo.

152 - **Estudio sobre la invasion de los arabes en España,** Madrid, 1892.

* Sanchez - Albornoze, Claudio.

153 - I) **"Otra vez Guadalete y Govadonga" Cuadernos de Historia de España, I - II, 1944.**

154 - II) **"Precisiones sobre "Fath al - Andalus", Revista del Instituto de Estodios Islamicos,** IX - X, Madrid, 1961 - 62.

* Simonet, Francisco Javier.

155 - I) **Glosario de voces ibericas y latinas usadas entre los mozarabes,** Amsterdam, 1967, reprint of Madrid edition 1888.

156 - II) **Historia de los mozarabes de España,** Amesterdam, 1967, reprint Madrid edition, 1903.

* Taha, Abdulwahid Dhanun,

157 - **The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain,** Unpublished ph. D. Thesis, University of Exeter, 1978.

* Thompson, E.A.

158 - **The Goths in Spain,** Oxford, 1969.

* Velozo, F.J.

159 - **"The Problem of Arabic - Islamic influence in Portuguese civilization",** Journal of the Pakistan Historical Society, XIV, 1966.

* Watt, W.M.

160 - **A History of Islamic Spain,** Islamic Surveys, 4. Edinburgh 1967.

المحتويات

تصدير 7

دراسة في
الجهد العسكري العربي لفتح إسبانيا

تمهيد 11

عرض لسير العمليات العسكرية في عموم إسبانيا 13

أهم المعارك الحاسمة التي كان لها دور في إنجاز الفتح 23

تركيب الجيش والأسلحة المستعملة في المعارك 31

أبرز قادة الفتح 37

طبيعة الجهد العسكري العربي في شمال إسبانيا
وجنوب فرنسا في عصر الولاّة 43

تمهيد 45

الخاتمة 70

التنظيم الاجتماعي في الأندلس في عصر الولاة 71

الأندلس من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل 95

إشبيلية في التراث العربي 115

قيام الممالك الإسبانية وعلاقاتها مع العرب في الأندلس 141

تحالف الممالك الإسبانية في الأندلس وأثره على سقوط غرناطة 165

أهمية الرحلات العلميَّة بين المشرق والأندلس 189
أثر الحضارة العربية الإسلامية على البرتغال 201
بعض التقاليد العربية الإسلامية في الحياة الإسبانية 213
الموريسكيون 229
جريدة المصادر والمراجع 245

د. عبد الواحد ذنون طه

دراسات أندلسية

دراسات أندلسية

هذا الكتاب مجموعة من الدراسات والبحوث في تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، متكاملة في موضوعاتها تدرس نواحي متعددة من الحضارة في مختلف تجلياتها السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية.

عسى أن تعطي صورة واضحة الملامح لما أبْدعته الحضارة العربية الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية على مساحة ثمانية قرون.

وبحوث الكتاب وان كانت متخصّصة في مجالها إلاّ أنها موجّهة للباحث المتعّمق و القارئ المتثقف في موضوعات لا تزال تلقي بظلالها على حاضرنا.

من مواليد مدينة الموصل 1943.

حصل على البكالوريوس في التاريخ بدرجة جيد جداً (قسم الشرف)، من كلية التربية بجامعة بغداد عام 1965.

نال شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب والأندلس من جامعة اكستر (Exeter) بالمملكة المتحدة عام 1978 م.

مؤلفاته :

- العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي
- الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال أفريقيا و الأندلس
- أصول البحث التاريخي
- دراسات أندلسية
- دراسات في التاريخ الأندلسي
- دراسات في حضارة الأندلس وتاريخها
- دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي
- دراسات في تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي
- موسى بن نصير
- ابن عذارى المراكشي
- حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس
- نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس
- الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق
- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس / بالاشتراك مع اخرين
- تاريخ المغرب العربي / بالاشتراك مع اخرين

المدار الإسلامي

موقعنا على الانترنت:

www.oeabooks.com

ردمك ISBN 9959-29-208-8

9 789959 292087 >